سلسلة السياسة والمجتمع

الاستراتيجية الطبقية للثورة

تأليف

جورج طرابيشي



الاستراتيجية الطبقية للثورة

الاستراتيجية الطبقية للثورة

جورج طرابيشي

الاستراتيجية الطبقية للثورة

دار الطليعة للطباعة والنشر
بيروت

بيروت - ص.ب ١١١٨١٣

الطبعة الاولى
نيسان (ابريل) ١٩٧٠
الطبعة الثانية
آذار (مارس) ١٩٧٩

ماركس
رسالة البروليتاريا التاريخية

لم يكن ماركس اول من اكتشف وجود الطبقات والصراع الطبقي ، فالتناحر بين الاغنياء والفقراء فكرة معروفة قال بها علم الاجتماع البشري البدائي منذ آلاف السنين ، ولكن ماركس كان ، على حد تعبير كاوتسكي ، اول من أكد ان الصراع الطبقي هو القوة المحركة للتاريخ .

اكد ماركس هذه الفكرة في **الايديولوجيا الالمانية** ثم فصلها في **البيان الشيوعي** : فتاريخ المجتمع لم يكن حتى الان سوى تاريخ صراع الطبقات، والتناحر والصراع هو السياق التاريخي لتطور كل مجتمع بشري : التناحر والصراع بين الاحرار والعبيد في العهود الغابرة ، وبين النبلاء والاقنان في العصور الوسطى ، وبين البورجوازية والبروليتاريا في العصر الحاضر .

وهذا الصراع ليس مجرد صفة من صفات حركة التاريخ ، ولا حالة من حالاتها بل هو محركها ولولبها . فبدون صراع وتناحر لا يكون هناك تقدم . هذه حقيقة تاريخية ترقى الى مصاف القانون ، وهذا القانون هو جوهر كل حضارة بشرية .

وفي هذا الصراع تتواجه طبقتان : طبقة محافظة رجعية ، وطبقة تقدمية ثورية . والطبقة الاخيرة هذه ترمز الى ماضي الاولى ، بقدر ما ان الاولى ترمز الى مستقبل الثانية . فما دام التاريخ حركة مستمرة من نمو قوى الانتاج ، فان كل طبقة تاريخية تمر بالضرورة في مرحلتين : مرحلة يبرز فيها طابعها التقدمي الثوري بوصفها الطبقة التي تضمن لقوى الانتاج تطورا اعلى ، ومرحلة يتأكد

فيها طابعها المحافظ الرجعي بوصفها الطبقة التي يصبح وجودها بالذات عقبة امام تطور القوى الانتاجية . واللحظة التي تشرع فيها الطبقة الثورية بالتحول الى طبقة محافظة هي اللحظة التي تكون فيها هذه الطبقة قد راكمت من قوى الانتاج اكثر مما تستطيع احتواءه . وفي تلك اللحظة على وجه التحديد تنطرح على جدول اعمال التاريخ مسألة ازاحة تلك الطبقة السائدة ـ السائدة لانها هي التي تقرر مصائر العمل ـ لتخلفها طبقة سائدة جديدة أقدر منها على متابعة سيرورة تقدم قوى الانتاج .

هذا التوتر ، هذا الصراع بين الطبقة السائدة القديمة وبين الطبقة الجديدة المرشحة لخلافتها هو في حقيقة الامر توتر ، تأزم ، صراع بين علاقات الانتاج وقوى الانتاج . واللحظة التي يتصاعد فيها ضغط قوى الانتاج على علاقات الانتاج الى حد تفجيرها هي لحظة ثورية حاسمة حقا ، لانها اللحظة التي يتحول فيها الضغط الكمي الى انفجار نوعي يحقق من جديد التطابق المطلوب بين قوى الانتاج وعلاقات الانتاج ، وهو التطابق الذي يتم لا عن طريق تعديل وتصحيح علاقات الانتاج القديمة المتخلفة ، بل عن طريق نسفها واستبدالها بعلاقات جديدة قادرة على احتواء كل ما تراكم من قوى الانتاج وعلى توفير شروط افضل للمزيد من تراكمها وتطورها .

وعامل هذا التحول النوعي وذاته الفاعلة انما هي الطبقة الثورية التي هي ، كما يقول ماركس في **بؤس الفلسفة** ، اكبر قوة وأهم قوة بين سائر ادوات الانتاج وقوى الانتاج ، والتي يمثل تحررها الشرط الضروري والمسبق لقيام مجتمع جديد متطور على أنقاض المجتمع القديم المنخور .

ومن مفارقات قانون الصراع الطبقي ان هذه الطبقة الثورية التي تمثل لحظة تقدم حاسمة في تطور المجتمع والحضارة لا تستطيع ان تؤدي رسالتها الثورية ، لا تستطيع ان تأخذ مكان الطبقة التي كانت سائدة قبلها الا اذا تصورت نفسها وصورتها للآخرين لا على انها مجرد طبقة بل على انها ممثل المجتمع قاطبة ، وإلا اذا مثلت مصلحتها لا على انها مجرد مصلحة طبقية جديدة بل على انها المصلحة المشتركة لكل اعضاء المجتمع ، وإلا اذا اعطت افكارها شكل الشمول وطرحتها على انها الافكار الوحيدة المعقولة ، الوحيدة المقبولة عالميا . وهذا أمر ممكن لها لان مصلحتها تكون في البداية مرتبطة ارتباطا وثيقا بالمصلحة المشتركة لسائر الطبقات غير السائدة ولان هذه المصلحة لم تستطع بعد ان تطور نفسها باعتبارها المصلحة الخاصة لطبقة خاصة .

هذا في مرحلة اولى فحسب . اما بعد ان تصبح السيادة للطبقة الجديدة ، فان التناحر بينها وبين سائر الطبقات غير السائدة لن يني يتفاقم عمقا وحدة الى ان تأزف لحظة الانفجار الثوري من جديد مؤذنة بصعود طبقة ثورية جديدة . وهذا هو بالضبط جوهر قانون الصراع الطبقي الذي كان حتى اليوم قانون تطور المجتمعات البشرية ، والذي لن يكف عن ان يكون القوة المحركة للتاريخ الا يوم

يكف الانقسام الطبقي عن ان يكون شكل النظام الاجتماعي .

دور البورجوازية في التاريخ

ان مفهوم الطبقة الثورية يشكل حجر الزاوية في بناء المادية التاريخية . واذا ما انتقلنا الان من صعيد التجريد الى صعيد التاريخ العيني ، امكن لنا ان نميز طبقتين تاريخيتين اثنتين ينطبق عليهما مفهوم الطبقة الثورية ، مع ما بينهما من تناقض جوهري : البورجوازية والبروليتاريا (1) .

ولنبدأ بالبورجوازية .

ان عداء ماركس الراسخ المتأصل للبورجوازية لم يجعله يغفل في اي لحظة من اللحظات عن الدور الثوري الذي قامت به في التاريخ . وليس من قبيل الصدفة ان تكون الماركسية ، التي قرعت ناقوس موت البورجوازية ، خير من اشاد بفضائلها . وقد تبدو عبارة «فضائل البورجوازية» مستغربة على لسان الماركسية ، ولكن هذا الاستغراب لا يعود في محله اذا ما تذكرنا ان الماركسية هي نظرية جدل التاريخ ، والجدل هو بالتعريف تاريخ التناقض . وخالدة هي تلك الصفحات من **البيان الشيوعي** التي تشيد بالفضائل الثورية للبورجوازية :

«لقد لعبت البورجوازية في التاريخ دورا ثوريا رفيعا .

«فحيثما استولت على السلطة داست بأقدامها العلاقات الاقطاعية والرعوية والعاطفية . وحطمت بلا شفقة الروابط المعقدة المتنوعة التي تربط الانسان الاقطاعي بسادته الطبيعيين ، ولم تترك من صلة بين الانسان والانسان غير صلة المصلحة الباردة وقسوة متطلبات «الدفع عدا ونقدا» . وأغرقت الرعشات المقدسة التي تثيرها الحمية الدينية وحماسة الفرسان وعاطفية البورجوازية الصغيرة في مياه الحساب الاناني الصقيعية . وجعلت من الكرامة الشخصية مجرد قيمة تبادلية . وأحلت محل الحريات الجمة التي كلف تحقيقها ثمنا باهظا حرية التجارة وحدها بقسوتها التي لا ترحم . وبكلمة واحدة ، استبدلت الاستغلال المقنع بالاوهام الدينية والسياسية باستغلال مكشوف ، شائن ، مباشر ، فظ .

«وسلخت البورجوازية هالة القداسة عن جميع النشاطات التي كانت تعتبر الى ذلك العهد مبجلة محترمة مقدسة ، وجعلت من الطبيب والقانوني والكاهن والشاعر والعالم أجراء يعملون في خدمتها .

«ومزقت البورجوازية حجاب العاطفية الذي كان مسدلا على العلاقات العائلية وقضت عليها بأن تكون مجرد علاقات مالية ...

«والبورجوازية هي اول من اظهر ما يستطيعه النشاط الانساني . فخلقت

---

1 ـ هذا لا يعني ان الاقطاعية لم تلعب في التاريخ دورا ثوريا ازاء نظام العبودية ، لكن هذا الدور كان محدودا نظرا الى ان الهم الاول للاقطاعية لم يكن تطوير قوى الانتاج .

عجائب تختلف كل الاختلاف عن أهرامات مصر والاقنية الرومانية والكاتدرائيات القوطية ، وقادت حملات لا تشبه في شيء الغزوات والحروب الصليبية .

«والبورجوازية لا تستطيع ان تبقى على قيد الحياة الا اذا أدخلت تغييرات ثورية مستمرة على أدوات الانتاج ، اي على علاقات الانتاج ، اي على مجمل العلاقات الاجتماعية . وعلى العكس من ذلك كانت المحافظة على نمط الانتاج القديم بلا تغيير الشرط الاول لوجود جميع الطبقات الصناعية السالفة . وهذا الانقلاب المستمر في الانتاج ، وهذا التزعزع الدائم في كل النظام الاجتماعي ... يميز العصر البورجوازي عن كل العصور السالفة . وهكذا تنحل وتندثر جميع العلاقات الاجتماعية الجامدة الصدئة مع ما يواكبها من تصورات وأفكار بالية مبجلة . اما تلك التي تخلفها فتشيخ ويتقادم عهدها قبل ان يصلب عودها . وكل ما كان وطيدا ثابتا يتبدد كالهباء ، وكل ما كان مقدسا تنتهك حرمته ، ويضطر الناس في النهاية الى مواجهة شروط حياتهم وعلاقاتهم المتبادلة بأعين لا تغشاها الاوهام .

«وتغزو البورجوازية الكرة الارضية بأسرها بدافع الحاجة الى منافذ جديدة دوما .. وباستثمار السوق العالمية تضفي البورجوازية على الانتاج والاستهلاك في جميع الاقطار طابعا كوسموبوليتيا . وتنتزع من الصناعة اساسها القومي بين يأس الرجعيين وقنوطهم ... وتتولد بدلا من الحاجات القديمة التي كانت تلبيها المنتجات القومية حاجات جديدة تتطلب تلبيتها منتجات أقصى الاقاليم وأنأى البلدان . ولا تبقى ثمة مقاطعات وأمم منعزلة تكفي نفسها بنفسها ، بل تتطور علاقات عالمية وتبعية عالمية متبادلة بين الامم . وما يصح عن الانتاج المادي ينطبق ايضا على منتجات الفكر . فالمؤلفات الفكرية لكل أمة تصبح ملكا مشتركا لجميع الامم ...

«وتجر البورجوازية الى تيار المدنية اكثر الامم همجية بفضل التقدم السريع في صنع ادوات الانتاج وتحسن وسائل المواصلات . ورخص منتجاتها هو بمثابة مدفعية ضخمة تدك كل ما هنالك من أسوار صينية وترغم رؤوس البرابرة الاشد عداء للاجانب على الانحناء امامها . وتجبر البورجوازية جميع الامم ، تحت طائلة الموت ، على تبني نمط الانتاج البورجوازي ، تجبرها على ان تدخل اليها المدنية المزعومة ، اي على ان تصبح بورجوازية . وبكلمة واحدة ، تصطنع لنفسها عالما على صورتها .

«وقد اخضعت البورجوازية الريف للمدينة . فأنشأت مدنا كبرى ، وزادت سكان المدن بالنسبة الى سكان الارياف زيادة هائلة ، وبذلك انتزعت قسما كبيرا من السكان من بلادة الحياة الريفية . وكما انها اخضعت الريف للمدينة ، والبلدان الهمجية ونصف الهمجية للبلدان المتمدينة ، كذلك اخضعت شعوب الفلاحين لشعوب البورجوازيين ، اي الشرق للغرب .

«وتقضي البورجوازية اكثر فأكثر على تشتت وسائل الانتاج والملكية والسكان.

فهي قد حشدت السكان ، ومركزت وسائل الانتاج ، وركزت الملكية في عـــدد ضئيل من الايدي . وقد كانت النتيجة المحتومة لهذه التغيرات المركزة السياسية. فالمقاطعات المستقلة ، المتحدة فيما بينها على اساس فيدرالي لا اكثر ، والتي كانت لها مصالح وقوانين وحكومات وتعرفات جمركية مختلفة ، جُمعت في أمة واحدة، لها حكومة **واحدة** ، وقوانين **واحدة** ، ومصلحة قومية طبقية **واحدة** ، خلف حاجز جمركي **واحد** .

«وقد خلقت البورجوازية ، التي لم يكد يمضي على تسلطها الطبقي قـــرن واحد ، قوى انتاجية تفوق في عددها وعظمتها كل ما صنعته الاجيال السالفة مجتمعة . اخضاع قوى الطبيعة ، الآلات ، تطبيق الكيمياء على الصناعة والزراعة، الملاحة البخارية ، السكك الحديدية ، التلغراف الكهربائي ، استصلاح قـارات بأكملها ، تنظيم مجاري الانهار ، الشعوب التي كأنما قذفتها من بطن الارض قوة سحرية – اي عصر سالف كان يحلم بأن مثل هذه القوى الانتاجية كامنة في قلب العمل الاجتماعي» .

رسالة البروليتاريا

ان كل هذه المآثر الكبرى التي سجلها التاريخ للبورجوازية – انهاء عهـــد الاقطاع وتثوير اسلوب الانتاج وتثوير الافكار وافتتاح عصر العالمية واقتحام بلادة الحياة القروية وترويض قوى الطبيعة والارتفاع بشعوب الارض الى مستـــوى الحياة القومية – اقول ان كل هذه المآثر الكبرى تكاد لا تساوي شيئا امام كبرى كبريات مآثرها ، وأعني انتاجها الطبقة الثورية الجديدة المرشحـــة لان تخلفها : البروليتاريا .

ان البروليتاريا هي بحق المأثرة التاريخية الكبرى للبورجوازية . وصحيح ان كل طبقة سائدة في التاريخ قد انتجت طبقة ثورية مناقضة لها ، ولكن الطبقــة الثورية التي انتجتها البورجوازية فريدة من نوعها في التاريخ . فلقد رأينا ان كل طبقة ثورية في الماضي حاولت ان تلعب لعبة الشمولية ؛ ان تطرح نفسها على انها ممثلة المجتمع بأسره ، ليمكنها ان تؤسس نفسها في طبقة سائدة على المجتمع. والحال ان البروليتاريا هي الطبقة الثورية الوحيدة في التاريخ التي اعتبـرت الشمولية غاية لا وسيلة ، مصيرا لا لعبة . كانت كل الحركات الثورية فـــي التاريخ حركات قامت بها أقليات ولصالح أقليات . امـــا الحركة الثوريـــة البروليتارية فهي حركة الغالبية الساحقة لصالح الغالبية الساحقة . كانت كـل الثورات التاريخية القديمة ثورات في سبيل سيادة طبقة جديدة ، أما الثـورة البروليتارية فهي الثورة الطبقية الاولى من نوعها في التاريخ التي تقوم من اجل انهاء سيادة كل طبقة ، ومن اجل انهاء وجود الطبقات بالذات .

ان البروليتاريا هي **الطبقة** التي تفتح لاول مرة في التاريخ أفق التحرر من

كل هيمنة طبقية ، انها الطبقة التي تجسد انحلال كل الطبقات ، الطبقة التي ترتفع حقا الى مستوى الشمولية لان عذابها شمولي وأغلالها شمولية ، الطبقة التي لا تطالب بأي حقوق خاصة لانها لا تشكو من مظالم خاصة وانما من الظلم المطلق ، الطبقة التي لا تستطيع ان تحرر نفسها الا اذا تحررت من جميع طبقات المجتمع ، وبالتالي الا اذا حررت جميع طبقات المجتمع ، الطبقة التي تجسد الضياع الكامل للانسان بحيث لا يكون في وسعها ان تضع حدا لضياعها الا اذا وضعت حدا لضياع كل انسان .

وشمولية التحرر والتحرير هذه هي ما يسميه ماركس بالرسالة التاريخية للبروليتاريا : «ان شرط تحرر الطبقة الكادحة هو الغاء كل الطبقات» . وصحيح بعد ذلك ان نضال البروليتاريا ضد البورجوازية هو نضال طبقة ضد طبقة ، ولكنه ليس كذلك الا في وسيلته لا في غايته ، في ماضيه لا في مستقبله : ان الثورة البروليتارية « لا تستطيع ان تستقي شعرها من الماضي ، وانما من المستقبل وحده » .

ومن هنا كان الاختلاف العميق في معنى الثورة بالنسبة الى البروليتاريا عنه بالنسبة الى البورجوازية . فالثورة ليست ضرورية بالنسبة الى البورجوازية الا بوصفها الوسيلة الوحيدة للاطاحة بالطبقة التي كانت سائدة قبلها . اما بالنسبة الى البروليتاريا فانها ، بالاضافة الى ذلك ، الوسيلة الوحيدة ايضا للتطهر من كل الوحل القديم ولامتلاك القدرة على بناء العالم الجديد ـ الجديد لان انسانه جديد ، انسان ليس له من ماهية غير الانسانية ، ولا ماهية للانسان عندما يكون انسانا غير الحرية ، والعالم الذي ستبنيه البروليتاريا سيكون عالما جديدا حقا لانه العالم الاول من نوعه الذي لن يكون فيه انسان عبد او انسان ذاق قط طعم العبودية .

واذا كان ماركس قد علق آمال تحرر الانسانية على طبقة البروليتاريين ، فليس ذلك لان البروليتاريين هم في نظره طبقة من الآلهة . بل على العكس من ذلك تماما . فالبروليتاريا هي التجسيد الحي للتجرد من كل انسانية ، بل حتى من وهم الانسانية. وشروط حياة البروليتاريا تلخص كل لاانسانية شروط الحياة في المجتمع الراهن . ومع ذلك فان البروليتاريا ليست رمز البؤس المطلق ، بل هي ايضا وعي البؤس المطلق . صحيح انها لا تملك من خيرات هذا العالم غير قيودها ، ولكنها تملك ايضا ، وبسبب هذا التجرد من كل شيء الا من القيود ، تملك الوعي بأنها لن تخسر شيئا في حال تمردها غير هذه القيود . ونظرا الى ان قيودها ، ولكنها تملك ايضا ، وبسبب هذا التجرد من كل شيء الا من القيود ، اعتقت الانسانية قاطبة . وليس المهم ههنا ما يتصور هذا البروليتاري او ذاك انه كائن عليه ، بل ليس المهم ما تتصور البروليتاريا قاطبة انها كائنة عليه . وانما المسألة معرفة ما هي مرغمة وما ستكون مرغمة تاريخيا على ان تفعله وفقا لطبيعتها . والحقيقة ان رسالة البروليتاريا التاريخية ليست مسألة ذاتية متعلقة بارادتها ، وانما هي قدر محتوم ، مرسوم مسبقا في وجودها بالذات كما في

وجود كل المجتمع البورجوازي المعاصر .

ان تاريخ الانسانية لم يكن حتى الان غير تاريخ الضرورة . وكل ما امكن للطبقات الثورية في التاريخ ان تفعله هو الارتقاء بالانسان الى مراتب اسمى من الحيوانية . اما الطبقة الثورية الجديدة ، البروليتارية ــ وهنا يكمن امتيازها على سائر الطبقات الثورية المتقدمة عليها تاريخيا ــ فانها تتيح للانسان لاول مرة في التاريخ ان ينفصل نهائيا عن ملكوت الحيوان ، ملكوت الضرورة ، ليرتقي الى ملكوت الانسان ، ملكوت الحرية . فبدلا من ان يكون الانسان عبدا لشروط حياته ، تصبح شروط حياته تحت سيطرته . وبدلا من هيمنة الانتاج على المنتج، يصبح المنتج هو المهيمن على الانتاج . والتاريخ الذي كان يصنع البشر يغدو هو نفسه من صنع البشر . وما كان قانونا طبيعيا ، تاريخيا ، اجنبيا عن الانسان وسيدا عليه ، يضحي قانونا انسانيا ، الانسان صانعه وسيده . ومع هذه القفزة من ملكوت الضرورة الى ملكوت الحرية ينتهي ما قبل تاريخ الانسان ليبدأ تاريخه الحقيقي ، يكف التاريخ عن ان يكون طبيعيا ليغدو انسانيا .

وبديهي ان البروليتاريا ، التي هي عامل هذا التحول الهائل ، تمثل قوة اجتماعية محددة . وتحديد هذه القوة واجب حتى لا يبقى تحرر الانسانية مثلا اعلى طوبائيا لا حظ له في الوجود والتحقق الا في مدن الفلاسفة الفاضلة . والواقع ان امتياز المذهب الانساني الماركسي على جميع المذاهب الانسانية السالفة يكمن في تأسيسه تحرر الانسانية على امكانية تاريخية واقعية لا انطلاقا من ماهية مثالية ميتافيزيقية للانسان .

لقد كان يحلو لماركس ان يردد عبارة سيسموندي التي تقول ان البروليتاريين كانوا يعيشون في العصور الغابرة على نفقة المجتمع في حين ان المجتمع الحديث بأسره يعيش على نفقة البروليتاريا . وانما لان البروليتاريا تعيل المجتمع بأسره، امكن لها ان تتصدى لتحرير المجتمع بأسره .

والبروليتاريا هي الطبقة الثورية بالتعريف ، لانها اولا تجسد عبودية الغالبية في الوقت نفسه الذي ترمز فيه الى امكانية تحرر الغالبية .

ولانها ثانيا الطبقة التي ترتبط ، بحكم وضعها في الانتاج ، بمستقبل المجتمع لا بماضيه .

ولانها ثالثا الطبقة التي تفوق سائر الطبقات الاخرى قدرة على وعي شروط وجودها وعلى تنظيم نفسها بهدف تبديل هذه الشروط .

ولقد قالها **البيان الشيوعي** بصراحة مطلقة : «من بين جميع الطبقات التي تجابه اليوم البورجوازية ، فان البروليتاريا هي وحدها الطبقة الثورية حقا» .

فهي اولا طبقة الغالبية ، العاملة لصالح الغالبية . ولئن كان ثمة مجال للحديث عن «نبوءات» ماركس ، فانما ههنا على وجه التحديد تكمن قدرته العبقرية على استشفاف حركة سير التاريخ . فلقد حدد ماركس الرسالة التاريخية للبروليتاريا في الوقت الذي لم تكن فيه هذه الطبقة تمثل سوى فئة محدودة للغاية من السكان حتى في البلدان الرأسمالية الاكثر تطورا . وفي المانيا

بالذات حيث صاغ ماركس نظريته عن البروليتاريا ، لم يكن للطبقة العاملة من وجود فعلي ، ولم تكن اكثر من «تجريد» لا يمكن الحديث عن تجسده عينيا الا استباقا . فالمشروع الذي انشأه كروب لم يكن يضم يوم وفاته في عام ١٨٢٦ سوى اربعة عمال . ولم يزد عدد العاملين بأول آلة بخارية في مشروعه على ٦٧ عاملا في عام ١٨٣٥ ، ثم تضاعف تقريبا هذا الرقم في ١٨٤٦ . وفي الحقبة نفسها كان عدد العاملين في الورشات الصناعية البدائية (المانيفاكتورة) لا يتجاوز المليونين ونصف المليون في فرنسا ، ٨٩٧ الفا منهم عاطلون عن العمل و٣٨٤ الفا منهم من النساء والاولاد ، وهذا مقابل حوالي اربعة ملايين من الصناع اليدويين وأربعة عشر مليونا من العمال الزراعيين . كما ان عدد العمال في الولايات المتحدة الاميركية لم يكن يتجاوز المليون في منتصف القرن التاسع عشر ، اي ٦ بالمئة من تعداد السكان . واذا ما علمنا ان في الولايات المتحدة اليوم ٢٥ مليون عامل صناعي ، وان في مجموع البلدان الرأسمالية المتطورة ما يزيد على ٨٥ مليون عامل صناعي ، أدركنا ان ماركس قد استطاع حقا ان يتنبأ بمجرى التاريخ ، او بتعبير أدق ان يكتشف قوانين تطوره الاساسية .

بيد ان قوة البروليتاريا لا تقاس بالتزايد الهائل السريع في تعدادها فحسب، بل تقاس ايضا بالتناقص المطلق والنسبي في تعداد طبقات المجتمع الاخرى . ولن نضرب على ذلك سوى مثال الطبقة الفلاحية . فلقد كان المزارعون يمثلون ٧٠ بالمئة من مجموع السكان العاملين في الولايات المتحدة الاميركية يوم صدور **البيان الشيوعي** . ولكن هذه النسبة تدنت الى ٣١ بالمئة في عام ١٩١٠ ثم الى أقل من ٨ بالمئة في ايامنا هذه .

والحق ان احد القوانين الاساسية لتطور الانتاج الرأسمالي يتمثل في «تبلتر» السكان ، اي التحول الدائم لأعداد متزايدة من السكان الى بروليتاريين . ويمارس هذا القانون عمله قبل كل شيء في الاوساط الدنيا من الطبقات المتوسطة. فبحكم تركز وسائل الانتاج وتناقص عدد ملاكها تسقط أعداد كبيرة من صغار الصناعيين والتجار وأصحاب الايرادات والحرفيين والفلاحين في عداد البروليتاريا . وبهذا المعنى فان البروليتاريا تمثل نتاج انحلال المجتمع القديم ، وكذلك الجديد لان شرائح محددة من الطبقة الصناعية تتدهور هي الاخرى، بحكم تطور الصناعة والمزاحمة الرأسمالية ، وتتحول من مالكة للرساميل الى مجرد قوة عمل معروضة للبيع ، اي الى بروليتاريا [1] .

---

١ ـ ان قانون تبلتر السكان الذي قال به ماركس يشكو من شيء من التعميم كما يلاحظ بعض النقاد المحدثين . فماركس قد خلط بين التبلتر وبين عموم نظام الاجر . صحيح ان أعدادا من الطبقات المتوسطة تسقط في عداد البروليتاريين ، ولكن أعدادا اخرى تسقط في عداد الاجراء من غير البروليتاريين . ومن الاجراء من هم مدراء للشركات .

والمصدر الثاني لقوة البروليتاريا ولثوريتها ، بعد قوتها العددية ، ينبع من حكم وضعها في الانتاج وارتباطها بمستقبل الانتاج والمجتمع لا بماضيهما . فتطور الصناعة الكبيرة الذي هو الاساس المادي لكل تطور الحضارة الحديثة ، لا يهدد وجود البروليتاريا كطبقة ، ولا يزعزع مواقعها في المجتمع ، بل يؤدي على العكس الى تزايدها عدديا والى نمو اهمية دورها في الحياة الاجتماعية .

صحيح ان البروليتاريا تعارض البورجوازية ، عامل تطور الانتاج والصناعة ، وتناصبها العداء ، ولكنها تعارضها على وجه التحديد من حيث انها لا تستطيع ان تلعب ، وحتى النهاية ، دور عامل تطور الانتاج والصناعة . وهنا بالضبط يكمن الفارق الكبير بين ثورية معارضة البروليتاريا للبورجوازية وبين رجعية معارضة طبقات المجتمع الاخرى للبورجوازية . فالطبقات المتوسطة من صغار أصحاب المعامل وتجار المفرق والصناع اليدويين والفلاحين تحارب البورجوازية لانها تهدد وجودها كطبقات متوسطة . فهي اذن طبقات محافظة بل رجعية تسعى للعودة بعجلة التاريخ الى الوراء . انها تعارضها لانها تنحط وتهلك مع تطور الصناعة الكبيرة . اما البروليتاريا ، التي هي النتاج الاكثر أصالة لهذه الصناعة، فان معارضتها للبورجوازية تسير على العكس باتجاه التطور التاريخي . انها تنظر اليها نظرتها الى الساحر الذي استطاع ان يطلق القوى الجهنمية من عقالها بتعاويذه وأمسى في الوقت نفسه عاجزا عن قمعها واخضاعها . وليس موضع اعتراض البروليتاريا على البورجوازية انها حررت قوى الانتاج وحققت لها قفزة تاريخية هائلة الى الامام ، وانما موضع اعتراضها عليها ان النظام البورجوازي اصبح أضيق من ان يستوعب الثروات وقوى الانتاج الناشئة في قلبه . ذلك ان نظام الملكية الخاصة الذي يقوم عليه وجود البورجوازية وسيطرتها اصبح عائقا في وجه تقدم قوى الانتاج . والمستوى الذي بلغته هذه القوى من التطور بات يتطلب تصفية الملكية الخاصة لوسائل الانتاج . وبما ان تصفية الملكية الخاصة هي الشرط الاول لتحرر البروليتاريا ، لذا فان هذه الطبقة تجسد فعلا التقدم التاريخي في ذاتها وتمثل الضمانة الاكيدة لتطور لا حدود له لقوى الانتاج ، وذلك بعكس الطبقات المتوسطة الرجعية التي تشدها مصالحها الى الماضي ، وبعكس البورجوازية ذاتها التي تجد نفسها مضطرة بالرغم من ثوريتها النسبية الى تدمير جزء من قوى الانتاج تفاديا للانفجار الكبير الذي يمكن ان ينشأ من تزايد ضغط تلك القوى على الاطار الضيق الذي تتطور في حدوده : الملكية الخاصة .

وبالاضافة الى هذا وذاك فان البروليتاريا ـ وهنا يكمن المصدر الثالث لقوتها وثوريتها ـ تملك من القدرة على وعي شروط حياتها وعلى تنظيم نفسها ما لم تملكه وما لا تملكه اي طبقة تاريخية اخرى .

ان الشروط الموضوعية ، الاقتصادية والاجتماعية ، لوجود البروليتاريا كطبقة هي التي تحدد الى درجة كبيرة رهافة وعيها الطبقي وشموليته . ولقد عرّف ماركس في **العائلة المقدسة** البروليتاريا بأنها «البؤس الواعي لبؤسه المعنوي والمادي» ، اللاانسانية الواعية للاانسانيتها ، وبالتالي المتطلعة الى تجاوز

نفسها . والبروليتاريا لا تصبح هي البروليتاريا الا في اللحظة التي لا يعود يظهر في بؤسها البؤس نفسه وانما الوعي الثوري لهذا البؤس ، اي الوعي الذي سيطيح بالمجتمع القديم .

ان البروليتاريا تجد نفسها بالضرورة مدفوعة الى وعي ذاتها وبالتالي الى الثورة «بحكم التناقض القائم بين طبيعتها الانسانية وبين وضعها الذي يشكل النفي الصريح المطلق الشامل لهذه الطبيعة» .

وثمة عوامل موضوعية عدة تسهم في سيرورة الوعي الطبقي البروليتاري وتكونه . وفي طليعة هذه العوامل ان الصناعة الكبيرة تحتاج ، اكثر من اي نمط آخر من أنماط الانتاج ، الى عامل مثقف . وقدرة الطبقة العاملة على تمثل تصور متقدم للعالم ، تصور علمي ، تكمن قبل كل شيء في تعاملها اليومي مع الآلة ، مع التكنولوجيا ، مع أحدث منجزات العقل البشري .

يحدد **البيان الشيوعي** بعض الشروط الموضوعية الاخرى لتطور وعي البروليتاريا . فالمصادمات التي تقع في قلب المجتمع القديم تساعد بشتى الصور على تطور وعي البروليتاريا . فالبورجوازية تعيش في حالة حرب مستمرة ، اولا ضد الارستقراطية ، ثم ضد تلك الشرائح البورجوازية التي تتناقض مصالحها مع رقي الصناعة ، وأخيرا ضد بورجوازية البلدان الاجنبية . وفي جميع ميادين النضال هذه تجد البورجوازية نفسها مضطرة الى الاستنجاد بالبروليتاريا والى طلب مساعدتها ، فتجرها بذلك الى معمعة الحياة السياسية . وهكذا تقدم البورجوازية بيديها الى البروليتاريين عناصر تربيتهم السياسية ، اي الاسلحة التي سيحاربونها بها .

أضف الى ذلك ان شرائح كاملة من الطبقة السائدة تسقط كما رأينا في عداد البروليتاريا بحكم تقدم الصناعة وتركز وسائل الانتاج . وبذلك تحمل الى البروليتاريا عناصر تربوية جمة .

وأخيرا ، عندما يقترب صراع الطبقات من الساعة الفاصلة ، يتخذ انحلال الطبقة السائدة والمجتمع القديم بأسره طابعا بالغ الحدة والعنف الى درجة ان جزءا صغيرا من الطبقة السائدة ينفصل عنها وينضم الى الطبقة الثورية ، الطبقة التي تحمل في ذاتها المستقبل . وكما انتقل جزء من النبلاء فيما مضى الى البورجوازية ، كذلك ينتقل في ايامنا هذه جزء من البورجوازية الى البروليتاريا ، ولاسيما ذلك الجزء من الايديولوجيين البورجوازيين الذين ارتفعوا الى مستوى الفهم النظري لمجمل الحركة التاريخية .

ولكن كل هذه المساعدات «الخارجية» ان صح التعبير ، يجب الا تنسي البروليتاريا ان «تحرر الطبقة العاملة سيكون من صنع الطبقة العاملة نفسها» .
ولقد أنحى ماركس في أواخر حياته باللائمة والسخرية على البرنشتاينيين وغيرهم من الانتهازيين في صفوف الحركة الاشتراكية الالمانية الذين صورت لهم أوهامهم البورجوازية الصغيرة ان الحزب الاشتراكي ــ الديموقراطي يجب الا يكون

«مجرد حزب عمالي» ، وان من واجبه ان يعمل لا على الاطاحة بالبورجوازية وانما على كسبها عن طريق الدعاية واجتذاب نخبة عناصرها المثقفة ، وان هذه العناصر المثقفة البورجوازية هي وحدها التي تملك الوقت والامكانية لمعرفة حاجات البروليتاريا الحقيقية وصياغتها نظريا . ولم يكتف ماركس في رده على هؤلاء الانتهازيين بالتوكيد على ان الهدف ليس كسب البورجوازية بالدعاية وانما الاطاحة بها في مجرى الصراع الطبقي ، ولا بالتوكيد على ان تحرر البروليتاريا يجب ان يكون من صنع البروليتاريا نفسها ، وانما اضاف ملاحظة بالغة الاهمية حول دور العناصر المثقفة البورجوازية في تنمية وعي البروليتاريا الطبقي . فالشرط الاول والمسبق لقبول البروليتاريا بالمثقفين الساقطين من البورجوازية او المنفصلين عنها هو ألا يحملوا اليها معهم اي تلوث من عالمهم البورجوازي او البورجوازي الصغير ، وأن يكونوا قد تحرروا — نهائيا عند الضرورة — من الافكار البورجوازية والبورجوازية الصغيرة التي قامت عليها كل تربيتهم السابقة. اما اذا اتى هؤلاء المثقفون الى البروليتاريا كما هم ، وبكل آرائهم المسبقة وأفكارهم المشوشة ، فانهم لن يساعدوا البتة على تقدم حركة البروليتاريا بل سيكونون على العكس عامل بلبلة وعرقلة .

والمسألة بالنسبة الى البروليتاريا ليست مسألة وعي فحسب ، بل هي ايضا مسألة تنظيم . ذلك ان تنظيمها الذاتي هو شرط تحررها الذاتي . والبروليتاريا لا ترقى أصلا الى مصاف الطبقة التي تحمل رسالة تاريخية شمولية الا اذا نظمت نفسها . وانتظام البروليتاريا في طبقة يعني انتظامها في حزب سياسي . هذا على الاقل ما أكده ماركس في عام ١٨٤٨ في **البيان الشيوعي** . وحول هذه النقطة على وجه التحديد ستتركز المساهمة الكبرى للينينية . ومع ذلك فان ماركس سيتراجع قليلا عن هذا التصور في مرحلة لاحقة من حياته ، وعلى وجه التحديد في الستينات من القرن الماضي . ففي عام ١٨٦٦ نراه يؤكد ان النقابات العمالية ، لا الاحزاب السياسية ، هي «المواطن التنظيمية للطبقة العاملة» ، وان مواطن تنظيم البروليتاريا هذهليست ضرورية لانتزاع النصر في المناوشات اليومية بين الرأسمال والعمل وفي النضالات المحلية والجزئية لتحسين شروط حياة العمال فحسب ، بل هي ضرورية ايضا بوصفها ادوات منظمة لانتزاع النصر الاكبر المتمثل في التحرر الشامل للبروليتاريا وفي الاطاحة النهائية بنظام الاستغلال الطبقي . وفي عام ١٨٦٩ نراه يؤكد ان «النقابات هي مدارس الاشتراكية» وانه انما في اطارها يتلقى العمال تربيتهم السياسية ويصبحون اشتراكيين . وهو لا يكتفي بالقول بأن «من واجب النقابات ألا ترتبط ابدا بتنظيم سياسي او تصبح تابعة له» ، بل يضيف بأن «الاحزاب السياسية جميعا ، ومهما أمكنها أن تكون ، وبدون استثناء ، لا تثير حماسة جماهير العمال الا لفترة زمنية محدودة مؤقتة . وبالمقابل فان النقابات تستقطب الجماهير بشكل دائم ، وهي وحدها القادرة على ان تمثل حزبا عماليا حقيقيا وعلى ان تعارض قوة الرأسمال بسد منيع» .

وعلى كل ، وبغض النظر عن الاهمية الحاسمة لمسألة شكل تنظيم الطبقة العاملة ، فان النقطة المركزية في تصورات ماركس عن شروط تحرر البروليتاريا الذاتي تكمن في ايمانه بضرورة الوحدة العمالية الطبقية : «ان اتحاد العمال هو الشرط الاول لانتصارهم» . والشعار الذي ينتهي به **البيان الشيوعي** يلخص كل الاستراتيجية الماركسية الثورية : «يا عمال العالم اتحدوا !» .

وشعار «يا عمال العالم اتحدوا» يمثل بحق الجدل الخلاّق بين الشروط الموضوعية والشروط الذاتية للثورة . وهذا الشعار ينفي عن الماركسية اتهامات النزعة الحتمية التي الصقت بها . فماركس الذي نذر جل جهوده ومعظم كتاباته ليؤكد ان الشروط المادية ، والاقتصادية ، والاجتماعية ، لعملية الانتاج الرأسمالية هي التي تخلق البروليتاريا ووحدة البروليتاريا كطبقة ، يؤكد ايضا مع شعار «يا عمال العالم اتحدوا» الحاجة الى تكريس ذاتي لتلك الوحدة الموضوعية .

ان شعار «يا عمال العالم اتحدوا» يعني ان العمال متحدون وغير متحدين في آن واحد . انهم ، اذا جاز القول ، وحدة مطالبة بأن تجدد اتحادها باستمرار ، وبأن تدعم اتحادها باستمرار . انهم متحدون بحكم الشروط الموضوعية لوجودهم الاقتصادي ـ الاجتماعي .

فالصناعة الحديثة وما تستلزمه من وجود مناطق او شبكات صناعية كثيفة اتاحت لاول مرة في التاريخ امكانية تمركز هائل لقوى الانتاج بما فيها القوى البشرية . والمنتجون الذين كانوا في الماضي ، قبل الثورة الصناعية ، عبارة عن جزيئات مبعثرة مشتتة في أقاصي الدنيا وأدانيها ، اصبحوا اليوم يشكلون كتلة متراصة كتيمة تفتح الباب على مصراعيه امام ولادة الروح الجماعية ، وذلك بعكس روح الانعزال والخصوصية التي كانت قدر ولعنة الطبقات المنتجة الكادحة الاخرى في التاريخ . وعلاوة على ذلك فان التطور الهائل في وسائل المواصلات يتيح للطبقة العاملة ان تتوصل في مدى شهور معدودات الى أشكال من الاتحاد ما كانت تتوصل اليها الطبقات التاريخية السالفة الا عبر قرون وقرون . وصحيح بعد ذلك ان انتظام العمال في طبقة واحدة يعرقله باستمرار تزاحمهم فيما بينهم ، ولكن «هذا الانتظام لا يختفي حتى يعود فيولد من جديد وهو دائما أشد قوة وأكثر صلابة وأقوى بأسا» .

ولكن على البروليتاريا الا تكتفي بوحدتها الموضوعية ، «السالبة» هذه ، التي هي بنت الشروط الاقتصادية ـ الاجتماعية لوجودها كطبقة . وانما عليها ان تريد هذه الوحدة ايضا . فوحدتها الموضوعية ان هي الا وحدة أغلالها وقيودها . اما وحدتها الذاتية ، المرادة ، فهي الشرط الاول لتحطيم هذه الاغلال والقيود . والبروليتاريا لن ترتفع الى مستوى رسالتها التاريخية ، الا اذا أسست وكرست وحدة الشروط الموضوعية لوجودها في وحدة الارادة الرامية الى التبديل الثوري لهذه الشروط . فآنذاك فقط يكون البؤس قد تحول الى وعي البؤس .

تلكم هي جملة الشروط التي جعلت ماركس يرى في البروليتاريا أمل خلاص الانسانية وعامل الثورة الاجتماعية الشاملة . وماركس في نظريته عن الرسالة التاريخية للبروليتاريا يرتفع الى مستوى الرؤى الشمولية للتاريخ ويحتل مكانه بين اولئك الفلاسفة والمفكرين القلائل الذين منحوا الانسانية قاطبة مثلا عليا تحرك فيها ارادة العمل والنضال على مدى أجيال متعاقبة . ومع ذلك ، وكما سبق ان ذكرنا ، فان ميزة ماركس على سائر المفكرين الذين ارتقوا الى مستوى الرؤيا الشمولية للتاريخ ، تكمن في انه استخلص تلك المثل العليا من حركة المجتمع الواقعية ولم يتركها معلقة في سماء التصورات المجردة : «ان الشيوعية ليست في نظرنا حالة ينبغي ان تخلق ، ليست مثلا أعلى ينبغي ان يتعدل الواقع تبعا له ، انما الشيوعية اسم نطلقه على الحركة الواقعية التي تلغي الحالة الراهنة . وشروط هذه الحركة تنبع من أسس موجودة حاليا» .

البروليتاريا وبداية الامبريالية

ان حركة المجتمع الواقعية هي اذن الاساس الموضوعي لنظرية المادية التاريخية. ولقد عاش ماركس في عصر كانت كل حركته الواقعية تشير الى ان عذابات البروليتاريا ستأخذ طابعا شموليا وجذريا اكثر فأكثر ، وبالتالي الى ان الطابع الشمولي والجذري لرسالتها التاريخية لن يني يتوكد ويتعمق اكثر فأكثر . فالبروليتاري بدلا من ان يرتفع ويرتقي مع رقي الصناعة لا ينفك يهوي في الانحطاط حتى الى ما دون مستوى شروط حياة طبقته التي هي اصلا في غاية التدني والانحطاط . ولا يكفيه ان يسقط في مهاوي الفاقة ، بل ان فقره واملاقه يتفاقمان بسرعة تفوق سرعة ازدياد السكان ونمو الثروة . ووقوع البروليتاريا في براثن الإفقار المطلق والنسبي يأخذ أبعادا بالغة الحدة الى درجة تضطر معها البورجوازية الى ان تطعم العامل بدلا من ان تطعم نفسها بواسطته . وعندما تصبح الطبقة السائدة عاجزة عن ان تضمن لعبيدها الحد الادنى من شروط الحياة ، فهذا يعني انها اصبحت عاجزة عن ان تسود وتحكم ، وهذا يعني ايضا انه لم يبق لاولئك العبيد من اختيار غير التمرد والثورة .

ولكن ماذا يحدث اذا تمكنت الطبقة السائدة ، وهي هنا البورجوازية ، لا من ضمان شروط الحياة لعبيدها ، وهم هنا البروليتاريون ، فحسب ، بل ايضا من ضمان تطور نسبي مطرد لمستواهم المعاشي ؟ ماذا يحدث اذا لم تعد البروليتاريا تلك الطبقة التي تتمثل فيها شمولية عذابات الانسان وجذرية قيوده؟

ان ماركس لم يجد نفسه مضطرا الى الاجابة على هذه الاسئلة لانه عاش كما قلنا في عصر لم يكن فيه من مجال لطرحها . وكل النظرية الماركسية عن فضل القيمة تؤكد السمة الاساسية للعصر الذي عاش فيه . ان البروليتاريا هي الطبقة التي تعاني من شمولية الاضطهاد لانها هي الطبقة التي تخلق فضل القيمة . ولن تنطرح على الماركسية مسألة التبدل في شروط حياة البروليتاريا وفي مستواها

المعاشي الا بعد سنوات عدة من تحوّل البورجوازية الليبيرالية الى بورجوازية احتكارية وامبريالية . فمع هذا التحول الذي كفت فيه البروليتاريا عن ان تكون المصدر الوحيد لفضل القيمة والذي برزت فيه المستعمرات كمصدر اضافي وأساسي لفضل القيمة ، انطرحت على الحركة الاشتراكية العالمية لا مسألة تبرجز البروليتاريا (الارتفاع المطرد في مستوى حياة الارستقراطية العمالية) فحسب ، بل ايضا مسألة مساهمتها ومشاركتها المنكرة للبورجوازية المتروبولية في نهب المستعمرات .

وصحيح انه كان لا بد للماركسية ان تنتظر مجيء لينين حتى تجد حلا لتلك المعضلة المستعصية ، معضلة الطبقة الثورية التي ضاق الافق الشمولي لثوريتها بنتيجة تقلص شمولية اضطهادها وعذابها ، ولكن ماركس الذي امتد به العمر حتى ادرك تخوم التحوّل الامبريالي للعصر الرأسمالي قد واجه هو الآخر ، وفي اواخر الستينات ، نموذجا مصغرا وأوليا لأزمة التقلص في ثورية البروليتاريين خلال مثال انكلترا .

لقد تنبأ ماركس منذ عام ١٨٥٣ بأن الجزيرة البريطانية ، التي سبقت كل بلدان البر الاوروبي على طريق التطور الرأسمالي ، مهيأة اكثر من اي قطر اوروبي آخر للثورة الاجتماعية . وقد قال : «ان سماء البر الاوروبي تخددها البروق ، ولكن الارض هي نفسها التي ترعد بزلزالها في انكلترا . فانكلترا هي القطر الذي بدأت فيه ثورة المجتمع الحديث الحقيقية» .

وفي عام ١٨٧٠ اضاف : «صحيح انه من المحتمل ان تنطلق المبادهة الثورية من فرنسا ، ولكن انكلترا هي وحدها التي تستطيع ان تكون بمثابة عتلة لثورة اقتصادية جدية . فهي القطر الوحيد الذي لم يعد فيه **فلاحون** ، والذي تركزت فيه الملكية العقارية في عدد ضئيل من الايدي . القطر الوحيد الذي هيمن فيه **الشكل الرأسمالي** على الانتاج برمته تقريبا . القطر الوحيد الذي يشكل فيه **العمال المأجورون غالبية السكان الساحقة** . القطر الوحيد الذي أدرك فيه الصراع الطبقي والتنظيم النقابي للطبقة العاملة درجة معينة من النضج والشمول بسبب هيمنته على سوق العالم . القطر الوحيد الذي تنعكس فورا على العالم قاطبة آثار كل ثورة فيه في مضمار الوقائع الاقتصادية . واذا كانت الرأسمالية وملكية النبلاء العقارية قد وجدتا في هذا القطر بؤرتهما الكلاسيكية ، فان الشروط المادية **لدمارهما** ناضجة فيه اكثر من اي قطر آخر ...» .

وفي رسالة الى سيغفريد مير وأوغست فوغت في ٩ نيسان ١٨٧٠ يعود ماركس الى التوكيد بأن «انكلترا ، عاصمة الرأسمال والدولة المسيطرة الان على السوق العالمية ، هي في الوقت الحاضر أهم قطر بالنسبة الى الثورة العمالية والقطر الوحيد الذي ادركت فيه الشروط المادية لهذه الثورة درجة معينة من النضج » .

ومجرد حديث ماركس عن الشروط **المادية** للثورة العمالية في انكلترا يعني ان

هناك ايضا شروطا **غير مادية** . وبالفعل كان ماركس يردد بأنه «لـــدى الانكليز **كل المادة** الضرورية للثورة الاجتماعية . اما ما يفتقرون اليه فهو **روح التعميـــم والحماسة الثورية** » .

ولكن ما السر في هذا الانفصال ، هذا التنافر ، هذا التناقض بين الوضع المادي والثوري وبين انعدام الروح الثورية وارادة التغيير الثوري ؟ ولمَ هـــذا «الكسل الثوري» الذي يميز بروليتاريا اكثر أقطار اوروبا نضجا ثوريا بالمقاييس المادية الخالصة ؟

ان السر كله يكمن في ان انكلترا هي «عاصمة الرأسمال» و«الدولة المهيمنة على السوق العالمية» . والهيمنة على السوق العالمية تعني اول ما تعني ان جزءا من فضل القيمة ، جزءا من التراكم الرأسمالي الضروري لتطور الصناعة ، بات يأتي من خارج انكلترا ، من السوق العالمية . وماركس يذكرنا بنفسه ببعـــض الارقام : فمن عام ١٨١٨ الى عام ١٨٣٦ زادت صادرات الخيوط البريطانية الى الهند من معدل ١ الى ٥٢٠٠ ، وفي حين لم تكن صادرات الموسلين الانكليزي الى الهند تتجاوز مليون يرد في عام ١٨٢٤ ارتفعت الى اكثر من ٦٤ مليون يرد في عام ١٨٣٧ . ويقدر بعض المؤرخين ان حصيلة النهب البريطاني للهند تتراوح بين مئة وبين مئة وخمسين مليون جنيه ذهبي في الحقبة الممتدة بين عامي ١٧٥٠ و ١٨٠٠ . وهذا الرقم يعادل اجمالي الدخل القومي البريطاني السنوي في تلك الحقبة ، ويتجاوز من بعيد كل رؤوس الاموال الموظفة في الصناعة الانكليزيـــة آنـــذاك .

واحتكار الرأسمال الانكليزي للسوق العالمية ينعكس على الوضع المادي والمعنوي للطبقة العاملة الانكليزية . فهي من جهة اولى لا تعود المصدر الوحيد ولا حتى الرئيسي لفضل القيمة ، وتواجه من الجهة الثانية على صعيد الوعي الطبقـــي والحماسة الثورية خطر تميع حقيقي كفيل بإرجاء الثـــورة الاجتماعية الـــى أجل غير مسمى . ولقد استطاع ماركس ، من خلال دراسته للمسألة الارلندية ، ان يستخلص كل الاضرار التي يمكن ان تلحق بالشروط **الذاتية** ، الارادية للثورة نتيجة العلاقات الاستعمارية . وقد بيَّن ماركس بما لا يدع مجالا لالتباس ان تورط الطبقة العاملة الانكليزية في علاقات استعمارية مع الشعب الارلندي قد شل فاعليتها الثورية ، وأن تلك الطبقة لن تستطيع ان تفعل شيئا البتة في انكلترا ما لم تقطع صلاتها بصورة نهائية بالسياسة الارلندية للبورجوازية الانكليزية .

وقد أتيح لانجلز الذي عمَّر اكثر من ماركس وشهد تسارع سيرورة التحول الامبريالي للرأسمالية ان يعمم المثال الارلندي وأن يؤكد ان الطبقة العاملـــة الانكليزية لن تستعيد ثوريتها الا يوم يسقط **الاحتكار** الصناعي الانكليزي للســـوق العالمية . وقد أكد انجلز بالحرف الواحد في مقال نشره في عام ١٨٨٥ وأعاد نشره في عام ١٨٩٢ انه «ما دام الاحتكار الصناعي الانكليزي قائما ، فان الطبقة العاملة الانكليزية ستشارك الى حد معين في فوائد هذا الاحتكار . ولقد وزعت هـــذه الفوائد توزيعا شديد التفاوت بين اعضائها . فالاقلية المحظوظة منهم فازت بحصة

الاسد ، ولكن باقي اعضاء الطبقة نالوا هم ايضا نصيبهم ، على الاقل بين الحين والآخر ولمرحلة محددة . وانما لهذا السبب تبخرت الاشتراكية من انكلترا منذ هوت الأوينية . ومع انهيار ذلك الاحتكار ستفقد الطبقة العاملة الانكليزية وضعها الممتاز ذاك ، وسترى نفسها ذات يوم ـ بما في ذلك الاقلية السائدة والمحظوظة ـ وقد انحطت الى مستوى عمال الاقطار الاجنبية ، وانما لهذا السبب ستعاود الاشتراكية ظهورها في انكلترا» .

وبالرغم من ان التطور التاريخي أثبت ان تفاؤل انجلز (وماركس) بالمستقبل الثوري للطبقة العاملة الانكليزية لم يكن في محله ، فان الاستنتاجات التي استخلصاها عن تأثير الاحتكارات الرأسمالية والارباح الامبريالية على ثورية البروليتاريا تكتسب اهمية فائقة بالنسبة الى المصائر التاريخية لرسالة البروليتاريا كطبقة ثورية شمولية ، ولاسيما ان التطور التاريخي اللاحق قد أثبت ايضا ان مشاركة الطبقة العاملة المتروبولية في فتات أرباح المستعمرات ليست بالظاهرة العارضة التي يمكن عقد الآمال على زوالها لبعث الاشتراكية في المتروبولات من جديد . وهنا ايضا كان لا بد للماركسية ان تنتظر مجيء لينين حتى تسد هذه الثغرة في بنائها وحتى تعيد صياغة نظرية الرسالة التاريخية للبروليتاريا في عصر الامبريالية .

الاستراتيجية الطبقية للبروليتاريا

ان الاستراتيجية الطبقية للثورة الاشتراكية كما حددها ماركس من خلال نظريته عن الرسالة التاريخية للبروليتاريا ، وكما عرضناها في خطوطها العريضة، نظل ناقصة ومبتورة اذا لم نحدد ايضا موقف ماركس من سائر طبقات المجتمع .

لئن كان **البيان الشيوعي** قد أكد ان «البروليتاريا هي وحدها الطبقة الثورية حقا من بين جميع الطبقات التي تجابه البورجوازية» ، فان هناك اغراء كبيرا في ان نعطي لمضمون هذه الاطروحة صيغة جديدة ونقول : ان جميع طبقات المجتمع الاخرى تشكل كتلة رجعية واحدة ازاء الطبقة العاملة . ولكن مثل هذا الاغراء ، بطابعه الأحادي الجانب العاجز عن معانقة جدل الحركة الاجتماعية ، هو أبعد ما يكون عن روح الماركسية ، وقد سفهه ماركس بنفسه تسفيها شديدا في نقده لبرنامج حزب العمال الالماني المعروف باسم برنامج غوتا . وقد اتهم ماركس واضعي البرنامج من اللاساليين بمحاولة تشويه **البيان الشيوعي** عندما اقتطفوا منه العبارة الآنفة الذكر حول معارضة البروليتاريا الثورية للبورجوازية وصاغوها بشكل محرف سمحوا لانفسهم معه بالتوكيد بأن «جميع الطبقات الاخرى لا تشكل سوى كتلة رجعية في وجه البروليتاريا» . وهذا التحريف ، بل هذا التزوير لا يخدم في حقيقة الامر الا البسماركيين والاقطاعيين وأنصار الحكم المطلق الذين لم يتورع اللاساليون عن التحالف معهم باسم محاربة البورجوازية .

ان ما تجاهله واضعو برنامج غوتا من اللاساليين ان معارضة البورجوازية ليست هي مقياس الثورية ، وقد تكون على العكس مقياسا للرجعية . فالبورجوازية هي نفسها طبقة ثورية ، وقد أقر لها **البيان الشيوعي** بهذه الصفة باعتبارها الطبقة التي أوجدت الصناعة الكبيرة وأخذت على عاتقها محاربة النظام الاقطاعي . وعلى هذا فان الاقطاعيين لا يشكلون مع البورجوازية كتلة رجعية واحدة ، وانما يشكلون في حد ذاتهم طبقة مغرقة في رجعيتها على وجه التحديد لانهم يناصبون البورجوازية العداء .

اما الطبقات المتوسطة من صغار الصناعيين والعمال اليدويين والحرفيين والفلاحين فهي ذات طابع مزدوج : انها من جهة اولى رجعية وذلك بمقدار ما تعارض التطور الرأسمالي وتتمسك بالمواقع الاجتماعية الناشئة عن أنماط الانتاج القديمة البالية ، وهي من الجهة الثانية ثورية وذلك بمقدار ما يقضي عليها التطور الرأسمالي بالسقوط الى مصاف البروليتاريا ، او بالتبلتر على حد ما رأينا آنفا . وبديهي ان الحزب العمالي لا يستطيع ان يتجاهل الطابع المزدوج لهذه الطبقات ، وهو سيقترف غلطة فادحة اذا ما اعتبرها طبقات رجعية بصورة نهائية لانه سيدفعها بذلك حتما ونهائيا الى معسكر الرجعيين والاقطاعيين . وهذه هي بالضبط الخدمة التي يؤديها اللاساليون لهؤلاء عندما يتشدقون بحماقات فظة كتلك الحماقة التي تزعم أن «جميع الطبقات تشكل كتلة رجعية واحدة في وجه البروليتاريا » .

ان قطبي الصراع الطبقي في المجتمع الرأسمالي هما بالتأكيد البورجوازية والبروليتاريا . ولكن الصراع بينهما ليس هو الصراع الطبقي الوحيد في ذلك المجتمع ، كما ان استقطابهما للصراع الطبقي لا يعني ان وجود الطبقات الاخرى او دورها قد انتهى . ولا تستطيع البروليتاريا اصلا ان تخوض نضالها الطبقي بنجاح الا اذا اخذت بعين الاعتبار وجود الطبقات الاخرى وتفهمت الأبعاد التاريخية لأدوارها ورسمت لنفسها استراتيجية مرنة متحركة تقوم على التحالفات والتحالفات المضادة وتضمن لها اوسع مدى ممكن من التأييد الاجتماعي والجماهيري في كل مراحل نضالها .

والاستراتيجية البروليتارية هذه تحدد نفسها من خلال تحديد الموقف من ثلاث طبقات او فئات اجتماعية : ١ ــ البورجوازية ، ٢ ــ البورجوازية الصغيرة ، ٣ ــ الفلاحين .

الثورة الديموقراطية البورجوازية

١ ــ البورجوازية : ان للبورجوازية دورا ثوريا رفيعا في التاريخ ، فهي حافرة قبر الاقطاعية وبانية الصناعة الكبيرة. والبروليتاريا اذ تناصب البورجوازية العداء وتسعى للاطاحة بسيطرتها الطبقية لا يمكن ان تنسى في الوقت نفسه مآثرها التاريخية ، تلك المآثر التي خصها **البيان الشيوعي** بأروع صفحاته والتي

اقرد وأبرز منها تلك المأثرة الكبرى المتمثلة في خلق البروليتاريا نفسها .

والا تنسى البروليتاريا المآثر التاريخية للبورجوازية فهذا معناه انها تمحضها تأييدها في كل مرة تكون مطروحة فيها على جدول اعمال التاريخ مسألة الثورة الديموقراطية البورجوازية . صحيح ان هذه الثورة ليست هدف البروليتاريا ، ولكنها الشرط المسبق للثورة البروليتارية . وماركس لا يمل من تكرار هذه الفكرة في شتى مؤلفاته . ان تطور البروليتاريا ، حافرة قبر البورجوازية ، مرهون بتطور هذه الاخيرة . والنصوص في ذلك تكاد لا تحصى :

ـ «ان العمال الالمان يعلمون جيد العلم ان النظام الملكي لن يتردد ابدا ولا يمكن ان يتردد في وضع نفسه في خدمة البورجوازية مع كل ما يملكه من مدافع وسياط . فما حاجتهم اذن الى تفضيل جور ووحشية الحكومة وبطانتها نصف الاقطاعية على هيمنة البورجوازية المباشرة ؟ ان العمال يعلمون جيد العلم ان البورجوازية لن تقدم لهم من التنازلات السياسية اكثر مما تقدمه الملكية المطلقة فحسب ، وانما ستخلق ايضا بالرغم منها ولخدمة تجارتها وصناعتها الشروط المناسبة لاتحاد الطبقة العاملة . والحال ان اتحاد العمال هو الشرط الاول لانتصارهم . ان العمال يعلمون ان الغاء الشروط البورجوازية للملكية لا يمكن ان يتم ما بقيت الشروط الاقطاعية للملكية قائمة . انهم يعلمون ان الحركة الثورية للبورجوازية ضد الطوائف الاقطاعية والحكم الملكي المطلق لا يمكن الا ان تعجل بحركتهم الثورية الخاصة . ويعلمون ان صراعهم الخاص مع البورجوازية لا يمكن ان ينفجر الا يوم تنتصر البورجوازية ... وانه لفي استطاعتهم ومن واجبهم ان يقبلوا بالثورة البورجوازية كشرط للثورة العمالية ، وان كانوا لا يستطيعون في اي لحظة من اللحظات اعتبارها هدفهم النهائي» (**النقد الاخلاقي والاخلاقية النقدية**، ١٨٤٧) .

ـ «كلما نمت البورجوازية ، اي الرأسمال ، تطورت ايضا البروليتاريا .. وتطور الصناعة لا يزيد عدد البروليتاريين فحسب ، بل يركزهم ايضا في جماهير اوسع واعظم» (**البيان الشيوعي** ، ١٨٤٨) .

ـ «ان الشرط العام لتطور البروليتاريا الصناعية يكمن في تطور البورجوازية الصناعية ، وانما في ظل هيمنة هذه الاخيرة يأخذ وجود البروليتاريا أبعادا قومية تتيح لها ان ترتفع بثورتها الى مصاف الثورة القومية ... وهيمنة البورجوازية الصناعية هي وحدها التي تستأصل الجذور المادية للمجتمع الاقطاعي وتمهد الميدان الاوحد الممكن للثورة البروليتارية» (**الصراعات الطبقية في فرنسا**، ١٨٥٠).

ـ «ان الطبقة العاملة الالمانية متأخرة في تطورها الاجتماعي والسياسي عن الطبقة العاملة الفرنسية او الانكليزية بمقدار تأخر البورجوازية الالمانية عن بورجوازية فرنسا وانكلترا . فكما يكون السيد ، يكون الخادم . ان تطور شروط وجود بروليتاريا عديدة ، قوية ، مركزة ، ذكية ، مرتبط بتطور شروط وجود بورجوازية عديدة ، غنية ، مركزة ، قوية . وتطور الطبقة العاملة لا يكتسب ابدا

صفة مستقلة ولا يصبح ابدا ذا طابع بروليتاري صرف ، ما لم تستول شتى أجنحة البورجوازية ولاسيما جناح الصناعيين الاكثر تقدما على السلطة السياسية وما لم تحول الدولة وفقا لحاجاتها وتبعا لها ...» (**الثورة والثورة المضادة في المانيا** (١) ، ١٨٥١) .

وهذه النصوص لا تترك مجالا لتأويل او التباس : ان الثورة الديموقراطية البورجوازية هي اولا مرحلة تاريخية ضرورية لا يمكن القفز من فوقها او «حرقها» على حد تعبير المصطلحات الحديثة، والبروليتاريا ثانيا لا تؤيد الثورة الديموقراطية البورجوازية كهدف نهائي وانما كهدف مرحلي على طريق الثورة العمالية .

وثمة خطآن فادحان يمكن ان تقع فيهما البروليتاريا في موقفها من الثورة الديموقراطية البورجوازية : الاول ان ترفضها بصورة قبلية وترفع بدلا منها شعار الثورة العمالية الاشتراكية ، والثاني ان تقبلها بصورة غير مشروطة وأن تضيع في متاهات الهدف المرحلي عن الهدف النهائي . وفي الحالة الاولى ستكون قد حكمت على نفسها بالعزلة وبالنزعة اليسارية التآمرية التي لا تقيم اعتبارا لحقائق الواقع ومقتضياته والتي لا يمكن ان تفضي الا الى كارثة حمقاء ترتد نتائجها السلبية مباشرة على قوى البروليتاريا الناشئة النامية . وستكون في الحالة الثانية قد حكمت على نفسها بأن تكون مجرد استطالة تافهة ، لا شخصية لها ، للبورجوازية ، زائدة دودية لا ينتظرها من مصير غير القطع والبتر .

وقد جاءت أحداث عام ١٨٤٨ ، عام ربيع الشعوب ، لتكون محكا لاستراتيجية ماركس هذه عن المراحل الثورية .

لقد بدأت ثورات ١٨٤٨ في أواخر عام ١٨٤٧ في الواقع . اندلعت شرارتها في سويسرا اولا وامتدت الى جنوبي ايطاليا ، ثم تحولت الى حريق حقيقي في فرنسا حيث تمكنت الجماهير الساخطة في ٢٤ شباط ١٨٤٨ من اسقاط ملكية لوي فيليب واعلان الجمهورية . وقد كان لهذه الاحداث أصداؤها في مختلف العواصم الاوروبية : فيينا ، روما ، بروكسل ، براغ ، بودابست ، الخ ، حيث اقيمت في كل مكان المتاريس ورفعت الاعلام الحمر .

وكانت هذه الاحداث الفرصة الذهبية للديموقراطيين الالمان بوجه خاص . فالامة الالمانية ، التي كانت تتطلع بنفاد صبر الى عام ١٧٨٩ خاص بها ، كانت عاقدة آمالها على البورجوازية الليبرالية لتحقق وحدتها القومية اخيرا ولتسقط قلاع الاقطاع والحكم الملكي المطلق ولتقيم الجمهورية الحرة والديموقراطية . وتداعى الاشتراكيون والديموقراطيون الالمان ، المنفيون في شتى أصقاع القارة الاوروبية الى تشكيل كتيبة خاصة لتحرير المانيا . ولكن ماركس الذي كان يقيم آنذاك في باريس رفض نداء النفير هذا ، وحذر من العواقب الوخيمة لمثل تلك المغامرة . وانهال عليه الديموقراطيون الالمان باتهامات «الخيانة» و«الجبن» .

---

١ ـ الواقع ان انجلز هو الذي كتب هذا المقال في حين ان ماركس هو الذي مهره بامضائه .

ولكن الاحداث اللاحقة أكدت بعد نظره . ف «كتيبة التحرير» أبيدت عند اللقاء الاول مع جيوش الامراء الالمان ، واستطاع الرجعيون ان يستغلوا مغامرتها المجنونة ليبثوا الذعر في قلوب المواطنين الالمان من كل ما يصف نفسه بالجمهورية والديموقراطية والاشتراكية . اما ماركس فقد آثر ان يعود سرا ، مع سائر الاعضاء الالمان في «رابطة الشيوعيين» الى المانيا ليصدر في كولونيا مع انجلز **الصحيفة الرينانية الجديدة** وليعمل على تأسيس جبهة موحدة لليبراليين والديموقراطيين والشيوعيين ضد العدو المشترك : سلطة الامراء الاقطاعية والعسكرية .

كانت خطة ماركس في كولونيا واضحة لا يشوبها اي غموض : ان الثورة القادمة هي ثورة ديموقراطية بورجوازية ، وعلى البروليتاريا ان تكون فيها حليفة البورجوازية الليبرالية في المعركة المشتركة ضد الاقطاع والحكم الملكي المطلق . وهذا ما عبر عنه في احدى مقالاته في **الصحيفة الرينانية الجديدة** التي كانت تسمي نفسها «صحيفة الديموقراطية» : «ان على البروليتاريا ان تسير مع الجيش الديموقراطي الكبير ، وفي الطرف الاقصى لجناحه اليساري ، مع التحفظ من انقطاع الصلة بينها وبين غالبية ذلك الجيش . وما دام الباستيل قائما فان على الديموقراطيين ان يبقوا متحدين . فليس من حق البروليتاريا ان تنعزل بنفسها، وانما من واجبها ان ترد كل ما يمكن ان يفصلها عن حلفائها ...» .

لم يكن هذا مجرد انشاء نظري عام . فقد كانت هناك فعلا في اوساط الحركة الشيوعية والعمالية اصوات تنادي بأن تستقل البروليتاريا بنفسها وأن تطرح مطالبها الثورية الخاصة وأن تستولي على السلطة السياسية فورا وضد الاقطاعيين والليبراليين معا . وكان زعيم هؤلاء اليساريين المتطرفين غوتشالك الذي كان قد أسس «الرابطة العمالية» التي بلغ عدد اعضائها ثمانية آلاف . وقد حمل غوتشالك حملة عنيفة على ماركس وسخر بشدة من نظريته «العلمية» عن تعدد المراحل الثورية وادعى ان «بؤس العامل وجوع الفقير» ليسا في نظر ماركس سوى مادة للانشاءات النظرية الضبابية التي لا تتصور من امكانية للنجاة من «جحيم القرون الوسطى» عن غير طريق المرور ب «المطهر الرأسمالي» .

ولم يكن رد ماركس أقل عنفا وسخرية . فاليساريون المتطرفون لا يقيمون اعتبارا لضعف البروليتاريا ولا لعدم توفر الشروط الموضوعية للثورة البروليتارية، ويتصورون ان بالامكان ارتجال الثورة ارتجالا من دون ان تتوفر شروطها . انهم أشبه بالكيميائيين القدامى الذين كانت أوهامهم تصور لهم انه يكفي الانسان ان يملك الرغبة في تحويل المعادن البخسة الى معادن ثمينة حتى ينقلب الحديد ذهبا ، وأنه يكفي ان نريد الثورة حتى تصبح الثورة امرا واقعا !

ولكن اذا كان من واجب البروليتاريا ألا تنفصل عن حلفائها الليبراليين ، فهل هذا معناه ان من واجبها ايضا ان تندمج بهم ؟ ان **البيان الشيوعي** هو الذي اجاب على هذا السؤال عندما حدد على نحو عبقري دور البروليتاريا في مرحلة

الثورة الديموقراطية البورجوازية : «في هذه المرحلة لا يحارب البروليتاريون اعداءهم الحقيقيين ، بل اعداء أعدائهم ، اي بقايا الحكم الملكي المطلق من ملاك عقاريين وبورجوازيين غير صناعيين وبورجوازيين صغار» . وواضح من هذا التحديد ان البروليتاريا اذ تأخذ على عاتقها محاربة **أعداء أعدائها** ، فهذا معناه انها لم تنسَ ان عليها بعد ذلك ان تواجه **أعداءها الحقيقيين** ، وأن تصفية حساب اعداء اعدائها هي الشرط الاول والمسبق لتصفية الحساب التالية ، الاصعب والأشق ، مع اعدائها المباشرين . وهذا معناه ايضا ان على البروليتاريا ألا تذهل في اي لحظة من اللحظات ، وطوال مشاركتها الايجابية في الثورة الديموقراطية البورجوازية ، عن هَويتها الحقيقية وعن هوية عدوها الحقيقي . ومعرفتها بأنها تقاتل عدو عدوها تعني ضمنا انها تتهيأ لمقاتلة عدوها . وتحالفها مع عدوها في سبيل الاطاحة بعدوهما المشترك لا يمكن ان يصل ابدا الى حدود الاندماج . بل على العكس من ذلك تماما . فالتحالف مع **العدو** هو دوما تحالف مؤقت **ونسبي ومشروط** . تحالف مكتوب له ان يتحول في المستقبل القريب الى عداء مكشوف وضارٍ وشرس . وبقدر ما يحتم حاضر هذا التحالف على البروليتاريا ان تنبذ كل ما يمكن ان يفصلها عن حلفائها ، يحتم عليها مستقبله ان تحرص على استقلالها الذاتي وعلى تمايز هويتها الطبقية .

وليس للبروليتاريا اصلا من خيار . فأول ما ستفعله البورجوازية بعد استيلائها على السلطة السياسية هو تحويل سلاحها ، مدعوما بكل قوة جهاز الدولة المستولى عليه ، الى صدور العمال ، حلفائها بالامس . بل ان البورجوازية اذا ما شعرت بأن رفاق الطريق من البروليتاريين قد اصبحوا يشكلون قوة يحسب حسابها ، قوة تعي هويتها واستقلالها الطبقيين وتطرح نفسها كبديل ثوري تاريخي ، فانها ، اي البورجوازية ، لن تحجم حتى عن التحالف مع اعداء الامس من الاقطاعيين والبيروقراطيين العسكريين والملكيين لتنجو ب «جلدها الثمين» ولتقمع صبوات التحرر في البروليتاريا .

لقد اثبتت أحداث عام ١٨٤٨ ان نذالة البورجوازية وجبنها لا يقفان عند هذه الحدود . فهي على استعداد لا للتحالف مع الرجعيين فحسب ، بل ايضا لبيع نفسها لهم . وهذا بالضبط ما فعلته البورجوازية الالمانية الليبرالية التي دفعها الذعر ، لا من البروليتاريا الالمانية وانما مما يمكن ان تكونه (١) ، الى طلب النجدة من الرجعيين والاقطاعيين والى تقديم شتى انواع التنازلات لهم ، بما في ذلك تخليها لهم عن السلطة السياسية التي لم تنقض اشهر على استيلائها عليها .

---

١ ـ الواقع ان البروليتاريا الالمانية كانت كالبورجوازية الالمانية ضعيفة . والبروليتاريا الفرنسية بتمردها في حزيران ١٨٤٨ على حلفائها من البورجوازيين الليبيراليين في ثورة ٢٤ شباط ١٨٤٨ هي التي كشفت للبورجوازية الالمانية عما يمكن ان تؤول اليه البروليتاريا الالمانية مستقبلا .

ولقد اخذ تحالف البورجوازية الليبيرالية الالمانية مع الحزب الرجعي في أواخر عام ١٨٤٨ شكل مساومة رخيصة وخيانة صريحة لمبادىء الثورة الديموقراطية البورجوازية . فمقابل تأييد البيروقراطية الرجعية للبورجوازية في صراعها مع البروليتاريا ، ومقابل ضمان الشروط **الاقتصادية** لتطور الرأسمالية ، لم تحجم البورجوازية الليبرالية عن التخلي عن دورها السياسي وعن تسليم سلطة الدولة لنفس الطبقة الرجعية التي انتزعتها منها بالامس .

والواقع ان خيانة البورجوازية الليبيرالية الالمانية لقضية الثورة الديموقراطية كانت متوقعة الى حد بعيد . فالبورجوازية الليبيرالية الالمانية بضعفها الاقتصادي وظهورها المتأخرَ على المسرح السياسي (بأكثر من نصف قرن بالنسبة الى البورجوازية الفرنسية) هي بالتأكيد بورجوازية عاجزة عن انجاز المهام **السياسية** للثورة الديموقراطية ، وليبيراليتها الاقتصادية لا تستدعي بالضرورة ليبيرالية سياسية مقابلة . وهنا يكمن الفارق الاساسي بينها وبين البورجوازية الفرنسية على سنبيل المثال . ففي حين ان التطور السياسي للمجتمع كان بالنسبة الى هذه الاخيرة شرط تطورها الاقتصادي اللاحق ، ولهذا قامت بثورة ١٧٨٩ الكبرى ، فان التطور الاقتصادي للبورجوازية الالمانية كان مترافقا بمرحلة الأفول البورجوازي على الصعيد السياسي ، ولهذا امكن لها ان تضمن مصالح تطورها الاقتصادي من خلال التحالف السياسي مع الحزب الرجعي .

وبديهي ان خيانة البورجوازية لقضية الثورة الديموقراطية لا يعني شطب هذه الثورة من جدول اعمال التاريخ ، وانما يعني ان المهام السياسية لهذه الثورة قد اصبحت مهام بروليتارية . ذلك ان الحرية السياسية ، التي لم تعد شرط التطور الاقتصادي للبورجوازية ، تظل شرط التطور الطبقي للبروليتاريا . ومن هنا ، وإزاء خيانة البورجوازيين الليبيراليين ، فانه يصبح من الواجب على البروليتاريا ان تلعب دور الجناح اليساري المتطرف من البورجوازية وأن تأخذ قضية الثورة الديموقراطية السياسية على عاتقها وأن تناضل في سبيل تحقيقها رغم أنف البورجوازية ، وضدها عند اللزوم . وفي هذه المرحلة لا يكون شعار البروليتاريا جمهورية اشتراكية او شيوعية بل «جمهورية اجتماعية» ، اي جمهورية تضمن المطالب والحقوق الديموقراطية الاساسية : الانتخابات العامة ، حرية الصحافة والاجتماع ، تحطيم الآلة البيروقراطية ، الاقطاعية ، تحرير الفلاحين ، توفير شروط تطور الصناعة .

واذا كان ماركس قد حذر في مرحلة التحالف مع البورجوازية الليبيرالية من كل ما يمكن ان يفصل البروليتاريا عن حلفائها ، فانه قد شدد اللهجة ، بعد خيانة البورجوازية الليبيرالية ، على ضرورة تمايز البروليتاريا الطبقي وتنظيم نفسها في حزب طبقي مستقل . وهذا هو اصلا الهدف الرئيسي من رفع البروليتاريا للراية الديموقراطية ، تلك الراية التي تخلى عنها الليبيراليون بجبن والتي اصبح بالامكان بالتالي توكيد لونها البروليتاري .

واذا كان انضواء البروليتاريا تحت الراية الديموقراطية في المرحلة الاولى من الثورة الديموقراطية البورجوازية يعني تسليمها الاكيد بأن البورجوازية الليبيرالية هي قائدة تلك الثورة ، فان رفعها لنفس تلك الراية بعد خيانة البورجوازية الليبيرالية يعني ارتفاعها الى مستوى قيادة الثورة الديموقراطية السياسية . وهذا يعني تبدلا حاسما في محاور التحالفات . فبعد ان كانت البورجوازية هي محور الحلف الديموقراطي ، يصبح من واجب البروليتاريا ان تستقطب من حولها كل القوى الديموقراطية المتبقية . وبالفعل ، واذا كان المضمون الاساسي لخيانة قضية الثورة الديموقراطية من قبل البورجوازية هو تحالف هذه الاخيرة مع الرجعيين والاقطاعيين وبيروقراطيي انظمة الحكم الملكي المطلق ، فان المضمون الاساسي لقيادة البروليتاريا للثورة الديموقراطية يكمن في تحالفها مع الطبقات التي ما يزال لها مصلحة في انجاز التحولات الديموقراطية ، وأعني البورجوازية الصغيرة والفلاحين .

ذبذبة البورجوازية الصغيرة

٢ ــ **البورجوازية الصغيرة** : ان البورجوازية الصغيرة هي التجسيد الحي للتذبذب الطبقي . فهي تضع كل آمالها في الارتفاع الى مستوى البورجوازية الكبيرة ، وتنصبّ كل مخاوفها في هلعها من التدهور الى مصاف البروليتاريا . وبين الخوف والامل على حد تعبير انجلز تنجو بجلدها إبان المعركة ، لتنضم بعد انتهائها الى معسكر المنتصر . ومن هنا فانها حليف للبروليتاريا لا يؤمن جانبه الا بعد الانتصار ، وهي في احيان اخرى عدو خطر لا يحجم عن التآمر مع البورجوازية وعن القتال معها جنبا الى جنب ضد البروليتاريا كما أثبتت ذلك احداث نيسان ــ حزيران ١٨٤٨ في فرنسا .

ولا بد ، عند تحديد موقف البروليتاريا من البورجوازية الصغيرة ، من التمييز بين مرحلتين : المرحلة التي تنطع فيها البورجوازية الليبيرالية لقيادة الثورة الديموقراطية ، والمرحلة التي تنتقل فيها الى معسكر الثورة المضادة . ففي المرحلة الاولى يتوجبّ على البروليتاريا ، من خلال تحالفها مع البورجوازية الليبيرالية ، ان تقاوم الجناح الرجعي المتخلف من البورجوازية الصغيرة اي الجناح الذي يعارض الثورة الديموقراطية البورجوازية في محاولة يائسة للابقاء على نمط الانتاج القديم والعلاقات الاجتماعية البالية . وفي المرحلة الثانية يتوجب على البروليتاريا ان تحاول اكتساب الجناح الديموقراطي من البورجوازية الصغيرة اي الجناح الذي خيبت البورجوازية الليبيرالية آماله بانتقالها الى معسكر الثورة المضادة وبتحالفها مع الرجعية الاقطاعية والبيروقراطية العسكرية .

وقد حدد ماركس بعبقرية مدهشة في **رسالته الى اللجنة المركزية لرابطة الشيوعيين** في آذار ١٨٥٠ ماهية التحالف البروليتاري مع البورجوازية الصغيرة وشروطه ومحاذيره : انه اولا تحالف نسبي ومؤقت ، وهو ثانيا تحالف مع النقد،

وهو ثالثا وأخيرا تحالف مع التمايز .

انه اولا تحالف **مؤقت** يشبه الى حد بعيد التحالف في المرحلة السالفة مع البورجوازية الليبيرالية . فالبورجوازية الصغيرة الديموقراطية تتصور انها هي المرشحة تاريخيا لوراثة البورجوازية الليبيرالية ، وتصورها هذا صحيح ولكن بمعنى معاكس . فصحيح ان الديموقراطيين البورجوازيين الصغار يحتلون في صفوف المعارضة نفس المكان الذي كان يحتله البورجوازيون الليبيراليون قبل عام ١٨٤٨ ، ولكن من الصحيح ايضا ــ وهذا ما يحاولون تجاهله مؤقتا ــ انهم سيلعبون بالضرورة نفس الدور الخبيث والماكر الذي لعبته البورجوازية الليبيرالية في عام ١٨٤٨ . اي ان اول ما سيفعلونه في حال استيلائهم على السلطة السياسية هو ان يحاولوا احتكارها وأن يحرموا البروليتاريا من ثمار النصر المشترك وأن يتحالفوا عند الضرورة مع الحزب الرجعي المقهور ليقمعوا صبوات البروليتاريا . والحزب الديموقراطي البورجوازي الصغير هو ، من اكثر من وجهة نظر واحدة ، أشد خطرا على العمال من الحزب الليبيرالي القديم . ومن هنا كانت الريبة الحيطة والحذر والاستعداد للمواجهة الحتمية بعد النصر ضرورة مطلقة بالنسبة الى البروليتاريا في تحالفها مع الديموقراطيين البورجوازيين الصغار .

وبما ان ضيق الافق هو ميزة شبه دائمة للبورجوازية الصغيرة ، فلا مفر ، ثانيا ، من ان يكون تحالف البروليتاريا معها تحالفا **نقديا** . فالبورجوازية الصغيرة تتصور ان في خلاصها خلاص العالم ، وان الشروط الخاصة لتحررها هي الشروط العامة لتحرر المجتمع بأسره . والحال ان مطالب الحزب الديموقراطي لا يمكن بأي صورة من الصور ان تكون كافية بالنسبة الى الحزب البروليتاري . فالحزب الديموقراطي على سبيل المثال لا يريد الغاء الملكية بل تحويلها وتحسين شروطها ؛ لا يريد الغاء الطبقات بل تخفيف حدة الصراع الطبقي وتمويهه ؛ لا يريد بناء مجتمع جديد بل تحسين المجتمع القائم ؛ لا يريد مصادرة الرأسمال الكبير بل الحيلولة دون ابتلاعه للرأسمال الصغير ؛ لا يريد تحرير العمال من نظام الاجر بل زيادة أجورهم وضمان شروط حياة افضل لهم ؛ وهذا لا حبا بهم وعطفا عليهم بل رغبة منه في تحطيم عزيمتهم الثورية بالتفضل عليهم بصدقات تجعل الحياة محتملة بالنسبة اليهم .

وبديهي ان الحزب البروليتاري لا يستطيع ان يرفض برنامج الديموقراطيين الاصلاحي رفضا مسبقا مطلقا ، كما انه لا يستطيع في **بداية الحركة** ان يقترح تدابير اشتراكية مباشرة . انما عليه ههنا ايضا ان يقوم بوظيفة الجناح اليساري المتطرف من الديموقراطية البورجوازية الصغيرة . فاذا ما اقترح الديموقراطيون تأميم المصانع الكبرى والسكك الحديدية عن طريق شرائها ، طالب هو بمصادرتها بلا تعويض . واذا ما اقترح الديموقراطيون الضريبة النسبية ، طالب هو بالضريبة التصاعدية . واذا ما اقترح الديموقراطيون هم انفسهم ضريبة تصاعدية معتدلة ، طالب هو بضريبة تصاعدية متشددة . وهكذا دواليك .

هذا في بداية الحركة ، اي على الصعيد التكتيكي وفي المدى القريب . اما

استراتيجيا وعلى المدى البعيد ، فان ما يميز البروليتاريا عن الديموقراطية البورجوازية الصغيرة هو رفعها راية «الثورة الدائمة» . ففي حين ان الديموقراطيين البورجوازيين الصغار يريدون ان ينهوا الثورة بأسرع ما يمكن وعلى اساس برنامجهم الاصلاحي المحدود ، فان من مصلحة الحزب البروليتاري ومن واجبه ان يجعل **الثورة دائمة** الى ان يتم ابعاد جميع الطبقات المالكة عن السلطة والى ان تستولي البروليتاريا على الحكم وتركز بين يديها قوى الانتاج لا في قطر واحد وانما في العالم قاطبة . ومقابل الجمل الانشائية المرائية للديموقراطيين البورجوازيين الصغار ، يجب ان تكون صيحة العمال الواعين الذين لا يرضون عن النصر النهائي بديلا هي : الثورة على الدوام !

وقد عاد ماركس في كتابه **الصراعات الطبقية في فرنسا** الى توكيد موضوعة الثورة الدائمة كعلامة مميزة للاشتراكية البروليتارية عن شتى أنواع ومذاهب الاشتراكية البورجوازية الصغيرة . ففي الوقت الذي تتصور فيه الديموقراطية البورجوازية الصغيرة ان النضال الاشتراكي ينتهي مع تحقيق هذا المطلب الاجتماعي او ذاك (تنظيم ميزانية الدولة ، حرية الصحافة والاجتماع ، التعليم العام ، وحتى اعفاء اللحوم والحبوب من الرسوم الجمركية !) ، فان البروليتاريا لا تضع لنضالها من حدود غير الاشتراكية الثورية ، الشيوعية التي هي «اعلان الثورة الدائمة ودكتاتورية البروليتاريا الطبقية كنقطة انتقال ضرورية نحو الغاء الفروق الطبقية بصورة عامة ونحو الغاء جميع علاقات الانتاج التي تقوم عليها تلك الفروق ونحو الغاء جميع العلاقات الاجتماعية المطابقة لعلاقات الانتاج تلك ونحو الاطاحة بجميع الافكار المنبثقة عن هذه العلاقات الاجتماعية» (١) .

والمدلول العملي – ثالثا – لهذا التحالف المرحلي والنقدي مع البورجوازية الصغيرة الديموقراطية هو تنظيم البروليتاريا نفسها في حزب طبقي متمايز . فالاستقلال التنظيمي للطبقة العاملة هو الشرط الضروري المسبق لعدم وقوعها تحت سيطرة وقيادة الديموقراطيين البورجوازيين الصغار ولأدائها دورها كقوة ثورية حاسمة .

ان الديموقراطيين البورجوازيين الصغار يدعون البروليتاريا، ما داموا يمثلون فئة اجتماعية مضطهَدة ، الى المصالحة والاتحاد ويمدون اليها أيديهم لتشكيل حزب معارضة كبير يمثل مختلف التيارات الديموقراطية . وهذه الدعوة تعني في

---

١ – من طرائف الامور ان الايديولوجيين الستالينيين الذين يكنون كرها عميقا لمبدأ «الثورة الدائمة» لارتباطه تاريخيا باسم تروتسكي لم يجدوا من علة يفسرون بها تبني ماركس لموضوعة «الثورة الدائمة» غير ان يقولوا ان ماركس قد اخطأ بصدد هذه النقطة المحددة وان خطأه هذا يعود الى تنازلاته في عام ١٨٥٠ لدعاة اليسارية المتطرفة . ومن الذين «خطّأوا» ماركس هنري لوفيفر في مرحلته الستالينية وفي كتابه «فكر كارل ماركس» . ولكنه تراجع عن هذه التخطئة فيما بعد عندما ثبت في «المختارات» نص ماركس عن الثورة الدائمة .

الواقع نصب الشباك للبروليتاريا للايقاع بها في فخ تنظيم حزبي تهيمن عليه اللفظية الديموقراطية العامة التي تخفي تحت ستارها المصالح البورجوازية الصغيرة الخاصة وتحول في الوقت نفسه دون التعبير عن مطالب البروليتاريا الخاصة حرصا على سلامة ما يسمى ب «التفاهم العام الطيب» . ومثل هذا الاتحاد هو في صالح البورجوازية الصغيرة المطلق وفي طالح البروليتاريا المطلق ، وستخسر البروليتاريا ، اذا ما ارتضت به ، استقلالها الذي دفعت ثمنه غاليا وستنحط لتصبح مجرد استطالة حقيرة للديموقراطية البورجوازية الرسمية . اذن فمن واجب البروليتاريا لا ان ترفض مثل ذلك الاتحاد فحسب ، بل عليها ايضا ان تعمل على تأسيس تنظيم متمايز ، سري وعلني ، للحزب العمالي يعبر عن مصالح البروليتاريا المستقلة بمعزل عن التأثيرات البورجوازية . والحقيقة ان **الكفاح ضد خصم مشترك لا يستلزم البتة اتحادا خاصا** . وعندما تنطرح مسألة الكفاح المباشر ضد خصم مشترك ، فان مصالح الحزبين تلتقي بصورة مؤقتة ويتحقق التحالف من تلقاء نفسه . وبديهي ان العمال هم الذين يحققون ، في المعارك الدامية ، النصر بفضل جرأتهم وتصميمهم واستعدادهم للتضحية . اما البورجوازيون الصغار فلن يكون لهم من موقف بوجه عام اثناء الصراع غير التردد وعدم التصميم وعدم الفعالية . ومع ذلك ، وما ان تأزف ساعة النصر حتى يدعوه لانفسهم ويهيبوا بالعمال ان يلتزموا جانب الهدوء وأن ينصرفوا الى اعمالهم اليومية . وبكلمة واحدة ، يعملون كل ما في وسعهم لحرمان البروليتاريا من جني ثمار النصر . وطبيعي انه ليس في مكنة العمال ان يمنعوا الديموقراطيين البورجوازيين الصغار من سلوك هذا المسلك ، ولكن في استطاعتهم ان يضعوا العراقيل في وجه صعود مد الديموقراطيين هذا وأن يملوا عليهم بقوة سلاحهم الشروط التي تجعل سيطرة الديموقراطيين البورجوازيين مشتملة من الاساس على جرثومة انهيارها والتي تسهل سلفا حلول سيطرة البروليتاريين محلها . وهذا يتطلب من الحزب العمالي ان يحول دون خمود الهيجان الثوري بعد النصر وأن يبقي شعلته متأججة أطول فترة ممكنة ، كما يوجب على العمال ان يطرحوا اثناء الصراع وبعده مطالبهم الخاصة الى جانب مطالب الديموقراطيين ، وأن يطلبوا الضمانات لتحقيقها ، وأن ينتزعوا هذه الضمانات بقوة السلاح عند الضرورة. والى جانب الحكومات الرسمية الجديدة يتوجب على العمال ان ينشئوا حكوماتهم الثورية المحلية الخاصة ، بحيث يشعر الحكام الديموقراطيون البورجوازيون من البداية انهم تحت رقابة وتهديد الطبقة العاملة بأسرها . وبكلمة واحدة ، ان ريبة البروليتاريا يجب ان تنصب بعد النصر لا على الحزب الرجعي المقهور وانما على حلفائها القدامى ، على الحزب الذي يريد الانفراد بثمار النصر المشترك .

ولكن حتى يستطيع العمال ان يواجهوا هذا الحزب الذي سيبدأ بخيانتهم من اللحظات الاولى للنصر ، لا يكفي ان يكونوا منظمين بل يجب ايضا ان يكونوا

مسلحين ، متدربين على استعمال السلاح ، منظمين في شكل كتائب من الحرس البروليتاري . وعلاوة على هذا وذاك ، يجب ان يكون تنظيمهم مركزيا ، اي موجها من مركز واحد .

ولعل اول مسألة سيقع الصدام حولها بين الديموقراطية البورجوازية الصغيرة وبين البروليتاريا هي المسألة الزراعية بوصفها المسألة المحورية على طريق الغاء النظام الاقطاعي . ولكن قبل تحديد طبيعة النزاع حول هذه المسألة لا بد أولا من تحديد الموقف الاستراتيجي العام للبروليتاريا من الفلاحين كطبقة .

هجاء الفلاحين

٣ ــ الفلاحون : كان حكم ماركس على الفلاحين على وجه العموم وطيلة مراحل حياته **قاسيا** . فالفلاحون هم «الطبقة التي تمثل الهمجية في قلب المدنية» ، «اللغز الهيروغليفي الذي أعجز عقول الناس المتحضرين» ، «الطبقة الاكثر جمودا» و«الاكثر محافظة وسكونية» . وإحدى المآثر التاريخية الكبرى للبورجوازية انها حررت قسما كبيرا من السكان من «بلادة الحياة الريفية» وأخضعت الريف للمدينة وشعوب الفلاحين لشعوب البورجوازيين والشرق للغرب . والفلاحون هم «الطبقة المدعوة للانقراض» ، وانقراضها هو احد شروط النضج الثوري للمجتمع : أفلم نرَ مع ماركس ان انكلترا مهيأة اكثر من اي بلد آخر للثورة لانها القطر الذي لم يعد فيه فلاحون ؟ والتعارض بين المدينة والريف هو في الواقع بمثابة «انتقال من الهمجية الى المدنية ، من النظام القبلي الى الدولة ، من المحلة الى الامة» . وفي حين تمثل المدينة «تركز السكان وأدوات الانتاج والرأسمال والمتع والحاجات» يمثل الريف على العكس من ذلك «الانعزال والانفصال» . وبكلمة واحدة ، ان تاريخ المدينة هو تاريخ الحرية ، بينما تاريخ الريف هو تاريخ العبودية .

ومفهوم في هذه الحال ان تكون «الرسالة التاريخية» للطبقة الفلاحية هي الانقراض . ولقد أكد ماركس هذه «الرسالة» في عصرٍ كانت فيه اوروبا ، باستثناء انكلترا ، بمثابة مزرعة واسعة تتناثر فيها هنا وهناك بعض المراكز المدينية الادارية والتجارية ، وكانت نسبة ضئيلة للغاية من السكان تعمل في الصناعة . ولكن مئة سنة من التطور اللاحق أكدت صحة توقعات ماركس ، وهذا لا في اوروبا وحدها مهد الصناعة الحديثة وانما ايضا في «أرياف» العالم التي لم تدخل عصر الثورة الصناعية الا منذ عهد قريب . وبالرغم من التطور الهائل الذي طرأ على التقنيات الزراعية والذي أدى في بعض الحالات الى مضاعفة المردود الفردي خمس عشرة مرة ، فان حصة الزراعة من اجمالي الدخل القومي في جميع البلدان الصناعية ونسبة العاملين فيها ما تني في تناقص مستمر . ولقد رأينا ان نسبة العاملين في الزراعة في الولايات المتحدة قد تدهورت في مدى قرن واحد من ٧٠ بالمئة الى ٨ بالمئة . وفي حين انه لم يكن في العالم كله في عام ١٨٦٥ سوى ٥ مدن يتجاوز تعداد سكانها المليون ، بلغ

عدد هذه المدن ٥٥ في عام ١٩٥١ ، وتعداد بعض هذه المدن (طوكيو ، نيويورك ، لندن) يعادل أمما متوسطة بأسرها .

وهنا على وجه التحديد يكمن الفارق الاساسي بين العمال والفلاحين . ففي حين ان القانون العام للانتاج الرأسمالي (الصناعي) يعمل على انقراض الفلاحين ، فان البروليتاريا الصناعية تجد نفسها بحكم ذلك القانون في تزايد وتركز مستمرين . وليس هذا فحسب ، بل ان الشريان الاكبر الحيوي الذي يغذي جيش البروليتاريا ويرفده بلا انقطاع يتمثل في سكان الريف . وقد عبر ماركس عن هذا التحول المصيري بهذه الكلمات في مقال له في صحيفة «نيويورك ديلي تريبيون» في عام ١٨٥٣ : «ثمة ثورة صامتة تفعل فعلها في المجتمع ، ثورة لا مفر من الانصياع لها ولا تبالي بالحيوات الانسانية التي تضحي بها اكثر مما تبالي الزلازل الارضية بالمنازل التي تهدمها . والطبقات والعروق الاضعف من ان تسيطر على شروط الحياة الجديدة لا مهرب لها من الهلاك ... وتطبيق المناهج العلمية على الانتاج يطرد الرجال من الريف ويركزهم في المدن الصناعية ... وفي حين ينقرض الفلاحون الذين يمثلون العنصر الاكثر ثباتا ومحافظة في المجتمع الحديث ، فان البروليتاريا الصناعية تتراكم في المراكز الكبرى بحكم النمط الجديد في الانتاج على وجه التحديد» .

وثورية العمال تتمثل في ارتباطهم بمستقبل الانتاج والحضارة بقدر ما تتمثل رجعية الفلاحين في ارتباطهم بماضيهما . ووضع العمال في الانتاج الحديث (تركزهم ، تعاملهم مع أحدث انجازات العقل البشري) يرشحهم للارتفاع الى مستوى الفهم التاريخي لرسالتهم والوعي الطبقي لوجودهم ، في حين أن وضع الفلاحين في الانتاج يرشحهم على العكس للبلادة والعزلة والتشتت .

فالفلاحون ، ولاسيما اولئك الذين يملكون الارض التي يزرعونها ، يشكلون «كتلة ضخمة يعيش أفرادها في وضع واحد من غير ان تربطهم بعضهم ببعض علاقات متنوعة . ونمط انتاجهم يعزلهم بعضهم عن بعض بدلا من ان يدفع بهم الى علاقات متبادلة» . ونمط حياتهم **طبيعي** اكثر منه **اجتماعيا** . فكل اسرة فلاحية تكفي نفسها بنفسها وتنتج بنفسها الجزء الاكبر مما تستهلكه و«تحصل على موارد رزقها من خلال التبادل مع الطبيعة اكثر مما تحصل عليها من خلال التبادل مع المجتمع»[1] .

وكثرة الفلاحين هي كفلتهم : مجرد رقم احصائي مؤلف من وحدات متشابهة متماثلة عاجزة عن التفرد وعن الاندماج معا ، لا تملك من القلة امتياز التفرد ولا من الكثرة امتياز التكتل[1] .

ان الفلاحين عاجزون اولا عن التفرد لان نمط استغلالهم لقطعة الارض الصغيرة التي يملكونها «لا يسمح بأي تقسيم للعمل ، ولا بأي استخدام للطرائق العلمية ، ولا بالتالي بأي تنوع في التطور او بأي اختلاف في المواهب او بأي غنى في العلاقات الاجتماعية» . وهم ثانيا عاجزون عن التكتل وعن الارتفاع الى مستوى الشعور الجماعي لانهم مشتتون مبعثرون ولانهم متماثلون : «قطعة

الارض الصغيرة والفلاح وأسرته ، ثم الى جانب ذلك قطعة ارض صغيرة اخرى وفلاح آخر وأسرة اخرى» . انهم اذن مجرد أعداد متراكمة ، مصطفة جنبا الى جنب كما ان «الكيس المملوء بالبطاطا يشكل كيسا مملوءا بالبطاطا» .

فهل يمكن بعد هذا القول بأن الفلاحين ـ ونخص هنا الفلاحين الصغار المالكين للارض التي يعملون بها ـ يشكلون طبقة ؟

بديهي اننا اذا ما اخذنا بالتعريف الوضعي للطبقة بمعنى ان الافراد الذين يعيشون في شروط حياتية واحدة يشكلون طبقة ، فان الفلاحين هم بلا ادنى ريب طبقة . ولكن اذا لم تكن الطبقة شيئا جاهزا ، واقعة سكونية معطاة ، ظاهرة سالبة منفعلة ، واذا كانت الطبقة على العكس واقعا ديناميكيا متحركا ، رابطة حية فاعلة ، علاقة متبادلة واعية لنفسها بهذا القدر او ذاك ، كلية تاريخية تكوّن أجزاءها وأفرادها بقدر ما يكوّنونها ، فان الفلاحين في هذه الحال لا يشكلون طبقة . وبالمصطلحات الفلسفية الحديثة ، **انهم** طبقة ولكنهم **لا يشكلون** طبقة . والطبقية هي **صفة لهم** اكثر منها **فعلهم** . وبكلمة واحدة ، انهم قد يكونون طبقة **في ذاتها** ، ولكنهم لا يستطيعون البتة ان يكونوا طبقة **لذاتها** . ولقد كان تحديد ماركس لهم ، من وجهة النظر الطبقية ، عبقريا . فهم يؤلفون ولا يؤلفون في آن واحد طبقة : «بقدر ما تحيا ملايين الاسر الفلاحية في شروط اقتصادية تفصلها بعضها عن بعض وتجعل نمط حياتها ومصالحها وثقافتها متعارضة مع نمط حياة الطبقات الاخرى ومصالحها وثقافتها ، فانها تشكل طبقة . ولكنها لا تؤلف طبقة وذلك بمقدار ما لا يوجد بين الفلاحين الصغار غير رابطة محلية وبمقدار ما لا يخلق بينهم تماثل مصالحهم اي وحدة او اي تضامن قومي او اي تنظيم سياسي» .

ولكن ليس المهم مع ذلك ، وبالدرجة الاولى ، ان الفلاحين يؤلفون او لا يؤلفون طبقة ، وانما المهم انهم عاجزون عن وعي انفسهم طبقيا ، عاجزون عن توكيد انفسهم كقوة تاريخية خلاقة ، عاجزون عن اداء دور مستقل في التاريخ. وماركس في حكمه هنا قاطع صارم : «ان الفلاحين عاجزون عن الدفاع عن مصالحهم الطبقية بالاصالة عن انفسهم . انهم لا يستطيعون ان يمثلوا انفسهم ، وبحاجة الى من يمثلهم . ولا بد في الوقت نفسه ان يظهر لهم ممثلوهم على انهم سادتهم ، على انهم سلطة عليا ، قوة حاكمة مطلقة ترد عنهم كيد الطبقات الاخرى ويكون لها الامر والنهي» . ومن هنا فان وجودهم يستدعي وجود المركزة البيروقراطية مثلما «يستدعي الفراغ الغاز» . ولقد كانوا على مر التاريخ ، هم الغرباء عن التاريخ ، «الدعامة الراسخة للاستبداد الشرقي» ، ووجدوا على الدوام «تعبيرهم الامثل في خضوع المجتمع للسلطة التنفيذية» .

ولكن ـ ولكن هذه بالغة الاهمية ـ لا بد من الاشارة هنا الى ان الفلاح الذي أتيح لماركس ان يدرسه ويتكلم عنه هو الفلاح الاوروبي ، وعلى وجه التحديد الفلاح الفرنسي الذي حررته ثورة ١٧٨٩ الكبرى وجعلت منه مالكا عقاريا «حرا» اذ أعتقته من جور النبلاء الاقطاعيين وملكته قطعة ارضه الصغيرة التي تقيم أوده وأود عياله .

وقد انصب كل الحقد الذي كان ماركس يكنه للامبراطور لويس نابليون ، جلاد الديموقراطية الاوروبية وحليف قياصرة روسيا ، على الفلاح الفرنسي الصغير لان هذا الفلاح كان بونابرتي النزعة .

كان الفلاح الفرنسي بونابرتي النزعة لان نابليون الاول كان يجسد في نظره كل عظمة ثورة ١٧٨٩ ومكاسبها ، ولان القوانين التي سنّها نابليون كرست ودعمت وضع الفلاح الصغير كمالك عقاري حر ، ولان الحروب التي شنها نابليون توجت هام الفلاح الفرنسي بأكاليل المجد والغار وجعلت منه في نظر نفسه ونظر الآخرين بطلا حمل مبادىء الثورة الى العالم قاطبة . والاسطورة النابليونية هي أحب الاساطير الى قلب الفلاح الفرنسي لانها الاسطورة التي اتاحت له ان يتجاوز حدود عالمه الضيق وأن ينسى ان ضيق الافق هو صفته الازلية . فمع نابليون اصبح الزي العسكري هو زي الدولة الرسمي بالنسبة الى الفلاح الفرنسي ، وأصبحت الحرب مهبط إلهامه الشعري ، وغدت قطعة ارضه الصغيرة هي الوطن ، وأضحت الوطنية الشكل المثالي لحس الملكية .

ولكن الاهم من هذا كله ان نابليون كرسه مالكا للارض بالمجان ، ثم وجد نفسه بعد أفول نجم نابليون مضطرا الى دفع ثمن ارضه ضرائب وسخرة وريعا عقاريا . ولهذا راح ينتظر على أحر من الجمر ان تتجسد الاسطورة النابليونية من جديد لتحرره من وضعه الذي اصبح من جديد لا يطاق . وعندما ظهر على خشبة المسرح السياسي في أعقاب ثورة ١٨٤٨ لويس نابليون ، ابن اخي نابليون الاول ، تحيط به كل هالة أسطورة السلالة البونابرتية ، بادرت جماهير الفلاحين الفرنسيين ، اي غالبية الامة الفرنسية ، الى حمله الى سدة رئاسة الجمهورية. وفي ذلك يقول ماركس بسخرية ومرارة : «لقد ولدت التقاليد التاريخية في عقول الفلاحين الفرنسيين ايمانا عجائبيا بأن رجلا يحمل اسم نابليون سيعيد اليهم كل عظمتهم . ولقد وجد بالفعل شخص ادعى انه ذلك الرجل لانه كان يدعى نابليون ... وهكذا وبعد عشرين سنة من التشرد وسلسلة من المغامرات الفليظة تحققت الاسطورة وأصبح الرجل امبراطور الفرنسيين . ولقد تحققت فكرة ابن الاخ الثابتة لانها كانت تتفق والفكرة الثابتة لأكثر طبقات الشعب الفرنسي تعدادا » .

ولكن ما غاب عن ضيق الافق الفلاحي ان التاريخ لا يكرر نفسه او على الاقل لا يكرر نفسه بالصورة ذاتها . فما كان في المرة الاولى تراجيديا نبيلة عريقة يلبس في المرة الثانية ثوب مهزلة مبتذلة منحطة . وهكذا كان شأن «ابن الاخ» ، نابليون الثالث ، الصورة الكاريكاتورية لنابليون الاول ، المهرج الذي اغتصب السلطة ونصب نفسه امبراطورا على الفرنسيين وفرض عليهم حكما بيروقراطيا عسكريا إكليريكيا وخيم كشبح النحس على عواصم اوروبا قاطبة وطارد كأحقر الدرك الديموقراطيين والاشتراكيين في كل مكان ، وذلك كله بحجة انه السليل النابليوني والمنقذ الذي طالما انتظرته الكتلة الغالبة من الشعب ، اي الفلاحون .

وهذا ما لم يغفره ماركس قط للفلاحين الفرنسيين . وما آلم ماركس اكثر من اي شيء ان الفلاحين الفرنسيين لبثوا على اخلاصهم لنابليون الثالث حتى بعد ان تكشف لهم انه ليس رجل القدر الذي كانوا ينتظرونه . والواقع ان نابليون الثالث أضر بالمصالح المباشرة للفلاحين الصغار اكثر من اي حاكم آخر . وقد قدم لهم ، في يوم الاحتفال بالذكرى السنوية الاولى لتسنمه رئاسة الجمهورية، هدية رائعة : اعادة العمل بضريبة المشروبات ! والحال انه خير لك ان تذكر امام الفلاح الفرنسي الشيطان من ان تذكر ضريبة المشروبات . ففي فرنسا ١٢ مليون فلاح يزرعون الكرمة ، والضريبة على الخمور هي طعنة مباشرة لمصالحهم . وقد صرح نابليون الاول نفسه في منفاه بجزيرة سانت ـ هيلين ان اعادة العمل بضريبة المشروبات ، وان بصورة معدلة ، أسهمت اكثر من اي شيء آخر في سقوطه لانها ألبت عليه فلاحي جنوبي فرنسا . ومدرسة التاريخ هي التي علمت الفلاحين الفرنسيين ، أبا عن جد ، ان كل حكومة تعد بإلغاء ضريبة المشروبات ما دامت تريد خداعهم ، وانها تبقي عليها او تعيد العمل بها بعد ان تكون قد خدعتهم . ولقد كان حريا بالفلاحين الفرنسيين ، يوم أعيد فرض ضريبة المشروبات ، ان يعلموا ان لويس بونابرت هو حاكم كالآخرين . وبالفعل رفعوا الى «ابن الاخ» عرائض احتجاج تحمل ملايين التواقيع . ولكن لويس بونابرت لم يكن كالآخرين ، بل كان من اختراع الفلاحين . وبالرغم من ان السنوات الثلاث الاولى من حكمه حررت قسما من الفلاحين من الاوهام النابليونية ، ولكن لم يكن من الممكن بسهولة ان يتخلوا نهائيا عن اختراعهم ، بل آثروا على العكس ان يصوروا لانفسهم ان لويس بونابرت كان يريد صالحهم لكن الجمعية الوطنية هي التي حالت بينه وبين تحقيق ذلك . ولهذا ، وعندما قام لويس بونابرت بانقلابه في كانون الاول ١٨٥١ وأطاح بالجمعية الوطنية ، كانت اصوات الفلاحين هي التي كرست شرعية انقلابه في الاستفتاء الذي جرى بعد اسبوع واحد . والواقع ان الفلاحين اعتبروا يوم ١٨ برومير نصرا مؤزرا لهم ، لانه اليوم الذي انتقموا فيه اخيرا من سكان المدن ، اليوم الذي اعلنت فيه الامبراطورية من جديد رغم أنف سكان المدن ـ والامبراطورية هي دولة الفلاحين المفضلة لانه لا سلطة فيها غير السلطة التنفيذية ولانهم في ظلها اكتسوا بهالة المجد والبطولة في ايام «العم» الطيب الذكر ، **الامبراطور** نابليون الاول .

ان أقسى حكم أصدره ماركس على الفلاحين يتجلى في قوله : «ان السلالة البونابرتية هي سلالة الفلاحين» . ولكن ماركس سرعان ما يضيف هو نفسه : «لنكن على بيّنة من امرنا . فسلالة آل بونابرت لا تمثل الفلاح الثوري ، وانما الفلاح المحافظ . لا الفلاح الذي يريد التحرر من شروط وجوده الاجتماعية المتمثلة في قطعة الارض الصغيرة ، وانما الفلاح الذي يريد على العكس تدعيمها. لا شعب الارياف الذي يريد بقوته وطاقته ان يطيح بالمجتمع القديم بالتعاون الوثيق مع المدن ، وانما على العكس شعب الارياف المنكمش على نفسه في هذا النظام القديم والراغب في ان ينقذه شبح الامبراطورية هو وقطعة ارضه الصغيرة . ان

سلالة آل بونابرت لا تمثل تقدم الفلاح بل تعلقه بالخرافات ، لا حكمه بل رأيه المسبق ، لا مستقبله بل ماضيه. انها لا تمثل سيفين بالنسبة اليه بل فانديه»(١).

ونحن نعلم من هو الفلاح الثوري في نظر ماركس : انه ذاك الذي يقضي عليه تطور الرأسمالية والصناعة الكبيرة بأن يهوي الى مصاف البروليتاريا . ولكن مأساة الفلاح الصغير وسر تخبطه وشقائه ـ وشقاء المجتمع به ـ انه يريد مهما يكن الثمن ان يتجنب ذلك المصير ، يريد ان يبقى مالكا لقطعة ارضه الصغيرة ولو على حساب عرقه ودمه وعرق عياله ودمهم ، يريد ان يبقى مالكا حتى ولو لم يكن له من الملكية غير وهمها ، لقبها ، الحق فيها . والحال ان القانون العام لتطور الرأسمالية ، لم يترك من مآل للفلاح الصغير غير الدمار . وكل المحاولات السيزيفية التي يقوم بها الفلاح الصغير لينجو بنفسه من شباك ذلك القانون الخانقة لن تزيده الا اختناقا ، وهي لا تعدو أن تكون على كل الاحوال هلوسات انسان يحتضر ، تخبطات يائسة لنوع من الكائنات هو في سبيله المحتوم الى الانقراض .

ان تاريخ قطعة الارض الصغيرة هو تاريخ صعود الفلاح وسقوطه . فلقد لعبت قطعة الارض الصغيرة دورا ثوريا في التاريخ . فباسمها وبأمل امتلاكها تحركت جيوش الفلاحين التي لا حصر لها لتكون رأس الحربة التي اسقطت بها البورجوازية قلاع النظام الاقطاعي . وطبقة الفلاحين الذين حولتهم الثورة البورجوازية الديموقراطية من أنصاف أقنان الى ملاك عقاريين صغار ولكن أحرار انتصبت سدا منيعا في وجه كل محاولة لاعادة نظام الاقطاع الذي تم اسقاطه . والجذور التي رسختها الملكية العقارية الفلاحية الصغيرة في الارض قطعت نهائيا شرايين الاقطاع المغذية . ولكن هذا الشكل من الملكية «النابليونية» الذي كان الشرط الضروري لانعتاق سكان الريف ولاغتنائهم اصبح بعد جيل او جيلين السبب الرئيسي لعبوديتهم وفقرهم . والشروط المادية التي جعلت من الفلاح القن فلاحا مالكا ومن نابليون امبراطورا هي نفسها التي حكمت على الفلاح في مدى نصف قرن بالدمار : انها قطعة الارض الصغيرة ، تجزئة الارض ، شكل الملكية الذي ارادت به البورجوازية ان تجعل من الفلاحين بورجوازيين على صورتها .

لقد كان جيل واحد او جيلان كافيا ليدرك الفلاح المالك «الحر» انه ما يزال قنا : في الماضي قنا للاقطاعي ، وفي الحاضر قنا للرأسمالي . ذلك ان مرابي المدينة حل محل الاقطاعي ، ورهن الارض محل السخرة ، والرأسمال البورجوازي محل الملكية العقارية الارستقراطية . وقطعة الارض الصغيرة لم تعد سوى ذريعة

---

١ ـ سيفين مقاطعة فرنسية وقع فيها تمرد فلاحي واسع النطاق ضد الاقطاع في مطلع القرن الثامن عشر . وفانديه مقاطعة اخرى ولكن محافظة ، ومنها قدمت جيوش الفلاحين المتأخرين للقضاء على التمرد الفلاحي في سيفين .

تسمح للرأسمالي بأن يستدر من الارض الربح والفائدة والريع وبأن يترك للفلاح نفسه مشقة تدبير أجره وقوت يومه . وفرنسا القرن التاسع عشر تقدم مثالا صارخا على مدى الانحطاط الذي يمكن ان تفضي اليه الملكية الصغيرة في ظل الرأسمالية . فقد تحول جل الامة الفرنسية الى سكان مغر وكهوف . ان ستة عشر مليونا من الفلاحين يعيشون في كهوف ليس لها في غالب الاحيان سوى فتحة واحدة ، وفي بعض الاحوال فتحتان ، وفي احسن الاحوال وأندرها ثلاث فتحات . والحال ان «النوافذ للمنزل هي كالحواس الخمس للرأس» . وجهاز الدولة البورجوازي الذي كانت مهمته بالامس الدفاع عن قطعة الارض الصغيرة المفرزة حديثا والمتوجة بأكاليل الغار أمسى اليوم غولا يمص دمها ونخاعها ويلقي بهما في قدر الرأسمالي التي لا تشبع مهما قدم اليها من طعام . واذا كان الربا والرهن هما الشكل الفردي لاستغلال الفلاح من قبل الرأسمالي ، فان ضريبة الدولة هي الشكل الجماعي لاستغلال طبقة الفلاحين من قبل طبقة الرأسماليين. والضريبة هي مصدر حياة البيروقراطية والجيش والكنيسة والبلاط ، وبتعبير آخر ، مصدر حياة كل جهاز السلطة التنفيذية . والملكية الصغيرة تقدم ، من حيث طبيعتها بالذات ، اساسا متينا لبيروقراطية فولاذية وأخطبوطية ، وتتيح للسلطة التنفيذية المركزية ان تتدخل في كل مكان وأن تمارس في مختلف أرجاء البلاد ضغطا مباشرا متماثلا نظرا للتساوي شبه المطلق بين الاوضاع والاشخاص وللتكرار اللامتناهي للوحدات المتماثلة : أرض وفلاح وأسرة ، ثم ارض وفلاح وأسرة . وبكلمة واحدة ، ان الملكية الصغيرة تخلق رعايا لا مواطنين .

وجيلا بعد جيل لا يني وضع الفلاح الصغير يتفاقم ، وديونه تتراكم ، والرهون على ارضه تتكدس ، والفوائد يأكل بعضها بعضا . وكلما تزايد عدد السكان ، تزايد تقسيم الارض وتصاعد ثمنها . وكلما تصاعد الثمن الذي يتوجب على الفلاح دفعه مقابل «امتلاكه» الارض ، تصاعدت ديونه ورهونه . وكلما ازداد تقسيم الارض ، استحال اكثر فأكثر استخدام الطرائق الحديثة في الزراعة ، وتزايدت في الوقت نفسه تكاليف الزراعة الكاذبة . وكلما تزايدت هذه التكاليف، تناقص الرأسمال الموظف فيالارض وتراجع بالتالي مردودها وتضاءلت خصوبتها. وما كان معلولا يصبح بدوره علة . فكل جيل يترك الجيل التالي اكثر غرقا في الديون ، وكل جيل جديد يبدأ من شروط أقسى وأصعب دوما .

وفي الوقت الذي تستمر فيه هذه الدورة الجهنمية ، يستمر الفلاح في عناده ويزداد اكثر فأكثر تعلقا بوهم الملكية . وبدلا من ان يكتشف سر شقائه في وهم الملكية «الحرة» هذا ، في قطعة ارضه الصغيرة بالذات ، تراه يبدد قواه في مصارعة أشباح لا سبيل اصلا الى الانتصار عليها . ووهم الملكية ليس هو التعويذة التي سحره بها الرأسمال حتى الان فحسب ، بل هو ايضا الذريعة التي ألبه بها على البروليتاريا الصناعية . فالبروليتاريا الصناعية تعلم ان طريق خلاص الفلاح هو سقوط الرأسمال وإلغاء الملكية الخاصة . وهي لا تقول للفلاح الصغير انها تريد مصادرة ارضه ، بل تقول له ان هذه الارض قد صودرت فعلا

من قبل الرأسمال ، وان طريق الخلاص بالتالي ليس الدفاع اليائس عن الحق في ملكية قطعة الارض الصغيرة بل اقتحام قلاع الرأسمال والاطاحة بالملكية الخاصة الى الابد . وما دام الفلاح الصغير متشبثا بأوهامه ومصرا على ان يصطنع لنفسه طريقا كاذبا للخلاص ، فانه لن يتحرر من هيمنة المشعوذين من أمثال «ابن اخي العم» وسائر أفراد السلالة البونابرتية ، وسيكون رديفا في كثير من الحالات للثورة المضادة .

وإنجلز صريح حول هذه النقطة : «ان فلاحنا الصغير ، شأنه شأن كل مخلفات نمط الانتاج البالي ، محكوم عليه بالدمار بصورة لا مهرب منها . انه بروليتاري مستقبلا . ومفروض فيه ، بموجب صفته هذه ، ان يكون كله آذانا صاغية للدعاية الاشتراكية . ولكن حس الملكية ، المتأصل فيه ، ما يزال يحول بينه وبين ذلك . وكلما كان مضطرا الى النضال بمزيد من الضراوة للحفاظ على قطعة ارضه الصغيرة ، وكلما دفع به اليأس الى التشبث بها بعناد أشد ، بدا له الاشتراكي الديموقراطي الذي يتكلم عن نقل الملكية العقارية الى المجتمع عدوا لا يقل خطرا عن المرابي والمحامي» .

والحال ان البروليتاريا كما يقول ماركس لا تستطيع في البلدان التي ما تزال غالبية سكانها من الفلاحين «ان تخطو خطوة واحدة الى الامام وأن تمس شعرة واحدة من النظام البورجوازي ، قبل ان تكون جمهرة الامة الواقعة بين البروليتاريا والبورجوازية ، اي طبقة الفلاحين والبورجوازية الصغيرة ، قد اضطرتها مسيرة الثورة الى الانحياز الى البروليتاريين بوصفهم طليعتها» . ويضيف انجلز بدوره : «لا يستطيع الحزب الاشتراكي الاستيلاء على السلطة السياسية الا اذا انتقل اولا من المدينة الى الحقول وأصبح يشكل قوة في الريف» .

والريف الاوروبي هو قبل كل شيء ريف الفلاح الصغير . فكيف تستطيع البروليتاريا ، التي تؤمن عميق الايمان بأن هذا الفلاح هو الى زوال اكيد ، ان تكتسبه ؟

ان ما يجب ان تضعه البروليتاريا نصب عينيها هو انها لا تستطيع اكتساب الفلاح الصغير بين عشية وضحاها . ولا يمكن اصلا اكتساب ثقته بين عشية وضحاها الا اذا قدمت اليه وعود لا يمكن الوفاء بها . فالفلاح الصغير على استعداد لان يمنح ثقته الفورية لكل من يعده بحماية ملكيته الصغيرة ضد القوى الاقتصادية التي تحاصرها . ولكن ليس في وسع احد ان يعده بمثل هذه الوعود الا اذا كان يريد خداعه . والحزب البروليتاري لا يستطيع بأي حال من الاحوال ان يخدع صغار الفلاحين وأن يقول لهم انه سيحمي ملكيتهم الفردية ضد التفوق الساحق للانتاج الرأسمالي . وانجلز هنا ايضا صريح : «ان الفلاح الذي يسألنا الحفاظ على ملكيته الصغيرة لا نستطيع ابدا ان نجعل منه رفيقا» .

ان البروليتاريا ليس امامها اذن سوى طريق واحد ، وهو ــ كما حدده انجلز ــ إفهام الفلاحين الصغار بأنه من غير الممكن انقاذ ملكيتهم الا بتحويلها الى

ملكية تعاونية . وبديهي ان هذا لا يعني مصادرة ملكية صغار الفلاحين بالقوة في حال استلام البروليتاريا للسلطة . ولكن في وسع الفلاحين من الان ، اي في ظل النظام الرأسمالي ، ان يشرعوا بتنظيم انفسهم تعاونيا . فمثل هذا التنظيم التعاوني هو وحده الكفيل بحمايتهم من براثن الراسماليين ، كما ان هذا التنظيم سيوفر الكثير من تكاليف اعادة التنظيم الاجتماعي مستقبلا . فكلما امكن انقاذ عدد اكبر من الفلاحين من التدهور الى مصاف البروليتاريا ، امكن انجاز التحويل الاشتراكي مستقبلا بصورة أسهل وأسرع وأقل كلفة .

ان من واجب الحزب البروليتاري ان يبذل كل ما في وسعه لتخفيف أعباء الحياة عن الفلاح الصغير ولتسهيل انتقاله الى التنظيم التعاوني . ولكن من واجبه قبل كل شيء ان يصارحه بالحقيقة . وأسوأ خدمة يمكن ان يؤديها الحزب البروليتاري لنفسه ولصغار الفلاحين هي ان يصدر تصريحات توحي ولو من بعيد بأن في نيته الابقاء بصورة دائمة على الملكية الفردية الصغيرة ، لانه لو فعل ذلك لسد الطريق على تحرر الفلاحين بالذات . ان واجب الحزب البروليتاري على العكس هو «ان يشرح باستمرار للفلاحين وضعهم الذي هو وضع ميئوس منه ما دامت الرأسمالية قابضة على زمام السلطة ، وان يبين لهم أنه من المستحيل الحفاظ على ملكيتهم الصغيرة كما هي ، وانه من المؤكد ان الانتاج الرأسمالي الكبير سيمر على استثمارتهم الصغيرة البالية العاجزة ، كما يمر القطار الحديدي على عربة اليد ويسحقها» . واذا فعل الحزب البروليتاري ذلك فان عمله يأتي باتجاه التطور الاقتصادي المحتوم ، وهذا التطور هو الذي سيثبت للفلاحين الصغار صحة كلام حزب البروليتاريا .

«ان الفلاح الذي يسألنا الحفاظ على ملكيته الصغيرة لا نستطيع ابدا ان نجعل منه رفيقا» : هذه هي خلاصة حكم الماركسية الكلاسيكية على الفلاح الصغير . وهذا الحكم غير قابل للاستئناف الا بمقدار ما يتخلى الفلاح عن تشبثه بوهم الملكية ، اي عندما يفقد ارضه ويتحول الى عامل زراعي مأجور غير مستقر ويسقط في عداد البروليتاريا . ولقد أكد ماركس وانجلز في مناسبات لا تحصى ان الحليف الطبيعي للبروليتاريا الصناعية هو البروليتاريا الريفية . فماركس يرى انه «كما يتحالف الديموقراطيون البورجوازيون الصغار مع الفلاحين الصغار، يتوجب على العمال ان يتحالفوا مع البروليتاريا الريفية» . ويقدر انجلز من جهته ان «اكتساب البروليتاريا الزراعية اهم بكثير من اكتساب الفلاحين الصغار او الفلاحين المتوسطين» .

ذلك ان البروليتاريا الزراعية ، التي حررها الاستثمار الرأسمالي من جميع الاوهام وقبل كل شيء من وهم الملكية ، تعي بالضرورة انه لا امل لها بالخلاص الا عن طريق الاطاحة بمجمل النظام الرأسمالي والالغاء النهائي والشامل للملكية الخاصة ، وذلك بعكس الفلاحين الصغار الذين قد لا يحجمون عن مناصبة البروليتاريا الصناعية العداء لمجرد انها ترى في الملكية الخاصة سر شقائهم وشقائها هي في آن واحد .

ومن وجهة نظر الثورة الدائمة ، فان البروليتاريا الزراعية هي وحدها التي تستطيع ان تسير الى آخر الشوط جنبا الى جنب مع البروليتاريا الصناعية . اما صغار الفلاحين فانهم يرون في الثورة الديموقراطية البورجوازية غاية امانيهم ، فهذه الثورة هي التي تنصِّبهم ملاكا للارض . وعندما تبدأ هذه الثورة بالانحطاط بالنسبة اليهم ، اي عندما تبدأ العلاقـــات الرأسمالية بغزو الريـــف وتشرع البورجوازية بسلب الفلاحين الارض التي ملكتهم اياها بالامس ، فانهم لا يتطلعون الى مرحلة ثورية اعلى ، لا يمدون ايديهم الى البروليتاريا الصناعية التي هـي الطبقة الثورية الوحيدة التي تعارض البورجوازية من غير ان تعاكس اتجاه التقدم التاريخي ، بل يلتفتون على العكس الى الوراء ويسعون الى التحالف مع القـوى التي تعارض البورجوازية من وجهة نظر الماضي، اي القوى الرجعية والبيروقراطية والاستبدادية التي يمثلها نابليون الثالث ، «امبراطور الفلاحين» ، أصـــدق تمثيل . او هم يتحالفون ، في احسن الاحوال ، مع البورجوازية الصغيرة التي تقدم لهم وعودا مستحيلة بالحفاظ على ملكيتهم الصغيرة وتجعلهم في صـــف المعسكر المعادي للثورة الدائمة بتملقها حس الملكية الفردية فيهم .

واذا كان للحزب البروليتاري من امل في انحياز الفلاحين الصغار الـــى معسكر الثورة الاشتراكية فهذا الامل معقود على الخيبة التي سيمنى بها هؤلاء الفلاحون المرة تلو الاخرى في محاولاتهم انقاذ ملكيتهم الصغيرة من براثن الجشع الرأسمالي . ويوم يفهم الفلاحون ان البروليتاريا الصناعية هي حليفهم الصادق الوحيد ، فان الثورة الاشتراكية ستكون قد اصبحت وشيكة ونتائجها مضمونـة حتى ولو كانت البروليتاريا ما تزال بعيدة عن ان تمثل غالبية الامة الساحقة .

تلكم هي الخطوط العريضة للاستراتيجية الطبقية للثورة كما وضعتها النظرية الماركسية الكلاسيكية . وسوف نحاول في الفصول التالية ان ننظر في المصائر التاريخية لهذه الاستراتيجية على ضوء الظروف القومية لكل تجربة .

لينين
تحالف العمال والفلاحين

كان اللقاء بين روسيا وبين الماركسية لقاء غريبا من نوعه ، وعلى كل الاحوال غير متوقع . فالماركسية هي بنت الغرب والثورة الصناعية ، وروسيا هي أم الشرق وأحدث بلدان اوروبا عهدا بالثورة الصناعية . واذا كانت الماركسية هي ايديولوجيا الرسالة التاريخية للطبقة العاملة ، فان البروليتاريا لم يكن لها من وجود في روسيا يوم بدأت الماركسية تتسرب اليها في الستينات من القرن الماضي .

كانت بنية الاقتصاد الروسي بنية اقطاعية عريقة : نصف مليون من ملاك الاراضي ، وثمانون مليونا من الفلاحين الاقنان او أشباه الاقنان . اما بنية روسيا السياسية فكانت صورة مثالية للاستبداد الشرقي . فقد كان القيصر حاكما مطلقا ، مفوضا من العناية الالهية ، لا حدود لسلطته غير ارادته . واذا ما خطر له ان يتخاذل او يتسامح ، فقد كان هناك دوما ، في قمة الهرم البيروقراطي ، من يذكره بواجباته الاوتوقراطية . ألم تكتب الكسندرا الى زوجها نيقولا الثاني ، آخر قياصرة آل رومانوف : «لا تنسَ ابدا انك امبراطور اوتوقراطي وان من واجبك ان تبقى كذلك» ؟ ألم تكن تذكره باستمرار بأن «روسيا تحب الملاطفة بالسوط » ؟

وعلى الصعيد الثقافي كانت سياسة التجهيل سياسة مقدسة ، متوارثة ، لم يتحرر من قيدها حتى أكثر القياصرة انفتاح فكر . ألم تقل كاترين الثانية ، صديقة الفلاسفة وحامية فولتير ، الى حاكم موسكو : «في اليوم الذي ستأخذ

فيه فلاحينا الرغبة في التعلم ، فاننا لن نبقى لا انت ولا انا في أماكننا» ؟ وحتى بداية القرن الثامن عشر لم يكن في روسيا العريضة الطويلة كلها مدرسة ابتدائية واحدة . وبعد اصلاحات بطرس الاكبر وكاترين الثانية ، بلغ عدد طلاب المعاهد الثانوية والجامعات حوالي تسعة آلاف ، ولكن المدارس الابتدائية ظلت نادرة في المدن ، وعديمة الوجود في الارياف . ولم يكن التشجيع النسبي للتعليم الثانوي والجامعي سوى التعبير عن الحاجة الموضوعية الى تخريج الموظفين الجدد الذين يتطلبهم جهاز الدولة البيروقراطي الاداري والعسكري . وبالمقابل فان الطبقات الشعبية ظلت محرومة ، وعن سابق تخطيط ، من كل معرفة . وقد جاء في مرسوم اصدره وزير التعليم العام في عام ١٨٨٢ ان «اولاد الحوذيين والخادمات والطباخات والغسالات وأصحاب الحوانيت الصغيرة وما شاكل ذلك ينبغي الا يُشجعوا على الارتفاع فوق المستوى الذي ولدوا فيه» . ولئن كان التعليم قد بقي وقفا على اولاد النبلاء ، فان المسؤولين عن السياسة الثقافية قد بذلوا قصارى جهودهم لكي لا يكون العلم ذلك النور الذي يفترض فيه ان يكونه . فطوال حكم كاترين الثانية الذي دام ٣٤ عاما لم تمنح جامعة موسكو سوى شهادة دكتوراه واحدة في الطب . ولم تكتف السلطات الاوتوقراطية بحصر مهمة التعليم برجال الاكليروس ، بل عملت ايضا جاهدة على سد كل الآفاق التي يمكن ان يفتحها . وهكذا حظرت دراسة الاعضاء (غير المحتشمة) في التشريح والفيزيولوجيا ، ودراسة الفلسفة والحقوق الدستورية الاوروبية ، ولم تعد تسمح للمدارس الثانوية ابتداء من عام ١٧٧٢ بغير تدريس الدين والرياضيات واللغات الميتة .

وبديهي ان هذه الصورة القاتمة لروسيا القياصرة لا تساعدنا كثيرا ، بل هي تزيد على العكس في صعوبة محاولة الاجابة على السؤال المتعلق بمعرفة الظروف التي اتاحت امكانية اللقاء بين الماركسية وبين بلاد السهوب . والواقع ان الاجابة على هذا السؤال غير ممكنة الا اذا جعلنا نقطة انطلاقنا الوجه الآخر لروسيا ، الوجه المشرق ، وجه روسيا الثوريين .

الانتلجانسيا الروسية

ان التاريخ الثوري لروسيا هو الذي يفسر ظروف اللقاء بين القطر الاكثر رجعية بين اقطار العالم وبين الصيغة الاكثر ثورية بين ايديولوجيات الثورات .

ان التاريخ الثوري لروسيا يبدأ في عام ١٨٢٥ على وجه التحديد . ففي كانون الاول من ذلك العام قام عدد من الضباط الشباب ، ممن تلقوا دروسهم في الاكاديميات الاوروبية ، بمحاولة انقلاب فاشلة . ولم تكن محاولتهم هذه سوى واحدة في السلسلة اللامتناهية لثورات القصر التي يعج بها تاريخ روسيا الاوتوقراطية . والواقع انها كانت ثورة قصر لان القائمين بها كانوا من ابناء الطبقة النبيلة التي بيدها الحل والربط . ولكنها لم تكن ايضا مجرد ثورة قصر ، لانها لم تكن تستهدف كغيرها من المؤامرات التي سبقتها الى استبدال عاهل

بعاهل ، بل كانت تتطلع الى تبديل نظام الحكم : منح البلاد دستورا على الطريقة الاوروبية . كانت في حقيقتها ترجيعا لأصداء الثورة الفرنسية الكبرى ، وكان الفشل محتما عليها في الوقت نفسه لانه لم يكن في روسيا آنذاك اثر او ظل من اثر لتلك القوة الاجتماعية التي امكن لها ان تفجر ثورة ١٧٨٩ ، أعني الطبقة البورجوازية الصاعدة . وقد عبر بستل ، احد قادة الكانونيين ، عن هذا المأزق عندما قال اثناء استجوابه : «ان غلطتي الكبرى هي انني اردت ان أجني الحصاد قبل البذار» . وصحيح ان هذه الكلمة يمكن ان يقولها كل متمرد فاشل ، وصحيح انها قابلة للانطباق على كل جيل الثوار الذين انتجتهم روسيا القيصرية باستثناء لينين ، ولكنها تشير بطريقة غير مباشرة الى السؤال الذي لا بد لكل ثوري ان يطرحه على نفسه من اللحظة التي يختار فيها الثورة : ما القوة ، وبتعبير أدق ، ما الطبقة الاجتماعية المؤهلة لان ترفع لواء الثورة وتعقد له الظفر ؟

والحقيقة ان تاريخ روسيا الثوري ، الدامي والمليء بالفواجع ، لم يكن الا محاولة للاجابة على هذا السؤال . والحقيقة ايضا ان هذا التاريخ لم يكف عن ان يكون فاجعا الا من اللحظة التي امكن فيها للصيغة الثورية المناسبة ان توجد اخيرا على يد لينين . ولكن المسار من بستل الى لينين طويل وشائك ، ولا بد من الالمام به ولو بصورة خاطفة .

ان الطبقة الاجتماعية الوحيدة التي كان يمكن ان تساند الكانونيين في مشروعهم هي الطبقة المتوسطة . ولكن هذه الطبقة لم يكن لها وجود في روسيا التي كانت تتألف من طبقتين اثنتين لا وسيط بينهما : النبلاء والفلاحين ، والتي لم تكن مدنها بالذات سوى قرى كبيرة . ولم يكن الفلاح الروسي (الموجيك) يمثل اي طاقة ثورية ، بل كان بنزعته المحافظة وتعلقه العميق بالطقوس الدينية وخموله الدهري خير دعامة للاستبداد الاوتوقراطي . ولم يكن هناك من امل في ان يستيقظ ويصحو من تلقاء نفسه . وكانت اوروبا الثورية والديموقراطية ترتعد فرائصها منه ، وإليه ستوكل بالفعل مهمة سحق الثورات الديموقراطية التي شهدها الربيع الاوروبي في منتصف القرن التاسع عشر .

ان النوافذ التي فتحها بطرس الاكبر وكاترين على الغرب كان لا بد ان تهب منها رياح الحرية والديموقراطية . ولكن هذه الرياح ما كانت حارة بما فيه الكفاية لتذويب صقيع الجمود الروسي . والحق ان النوافذ وحدها لا تكفي . ولا بد ، مع النوافذ ، من صدع او شرخ في اساس المجتمع بالذات . ولئن كانت الطبقات المتوسطة في اوروبا هي التي جسدت هذا الصدع في القرنين الثاني عشر والتاسع عشر ، فان روسيا قد انتظرت الاربعينات من القرن الماضي حتى يحدث اول تصدع في بنائها الاجتماعي ، وذلك عندما ظهرت فيها ، على اثر اصلاحات بطرس الاكبر وكاترين الثانية ، طبقة او شريحة اجتماعية جديدة هي طبقة المثقفين او الانتلجانسيا على حد التعبير الروسي .

والواقع ان الانتلجانسيا لم تكن طبقة اجتماعية بالمعنى الدقيق للكلمة ، ولم

تكن تتحكم في تكوينها روابط اقتصادية واضحة محددة ، وانما كان الانتماء اليها على اساس من رابطة ايديولوجية ، من رؤيا مشتركة للعالم ، من رفض مشترك للاضطهاد الاوتوقراطي . وقد استوحت الانتلجانسيا الروسية مصادر إلهامها من الليبيرالية الفرنسية والرومانسية الالمانية . وقد ظهر تأثير هاتين المدرستين واضحا في انقسام الانتلجانسيا الروسية الى تيارين متضادين : الغربيين والسلافيين . فقد رأى الاوائل الخلاص في تقليد الغرب ، والاواخر في العودة الى التقاليد القومية . وكانت الطريق امام الغربيين ، المتأثرين بفلسفة الانوار وبالموسوعيين الفرنسيين ، واضحة موثوقة : الايمان بحضارة قائمة على فكرة التقدم وعلى احترام الشخص الانساني . أما أنصار النزعة السلافية ، المأخوذون بالرومانسية الالمانية ، فكانوا يعارضون الاوائل بسلاح شبه مفلول : الحلم بشعب روسي أفضل وأصفى وأنقى من الشعوب الغربية . ومن هنا كانت معارضتهم لاصلاحات بطرس الاكبر . وبذلك كانوا اقرب الى جان جاك روسو الذي ندد بتلك الاصلاحات منهم الى فولتير الذي هلل لها . ويمكن تلخيص مذهبهم في تلك الكلمة المأثورة لروسو التي جعلوا منها شعارا لهم : «ان القيصر بطرس لم يكن عبقريا حقا . فقد اراد اولا ان يخلق ألمانا وانكليزا في الوقت الذي كان عليه فيه ان يبدأ بأن يخلق روسيا . لقد حال بين رعاياه وبين ان يصبحوا ما كان يمكن ان يكونوا عليه ، وذلك عندما أقنعهم بأنهم غير ما هم كائنون عليه» .

ومن السهولة بمكان ان نقول ان الغربيين كانوا ثوريين بقدر ما كان السلافيون محافظين . ولكننا لا نكون قد قلنا الا نصف الحقيقة . والواقع انه ينبغي ان نضيف بأن السلافيين كانوا بالمقابل اكثر التصاقا بالواقع الروسي او على الاقل بما يسمى ب «الروح الروسية» . فقد كانوا أنصارا متحمسين لروسيا وللشعب الروسي . وكان العنصر الديني ، الارثوذكسي ، المتطهر من كل التأثيرات التاريخية ومن مفاسد الحكم المطلق ، معدن الشعب الروسي وجوهره الاصيل في نظرهم . وكانوا يعتبرون السلطة مفسدة وخطيئة . واذا كانوا من أنصار الملكية مع ذلك ، فهذا بحجة انه من الافضل ان يتحمل وزر هذه الخطيئة فرد واحد بدلا من ان يتحملها الشعب قاطبة . ذلك ان قدر هذا الشعب في نظرهم ليس الحكم الدنيوي وانما الدعوة الربانية . والسلافيون من وجهة النظر هذه رواد المذهب الشعبي بالرغم من ان الغربيين هم الذين أرسوا أسسه . فقد كان ايمان السلافيين عميقا لامتناهيا بالموجيك ، الفلاح الروسي ، حارس الدين وأشكال الحياة القومية ، وكان احتقارهم للملكية الرومانية او البورجوازية الغربية لا يقل عمقا . وبتعبير آخر كانوا شيوعيين على طريقتهم . فقد راحوا يدافعون بحرارة عن المشاعة القروية الروسية ، وينظرون اليها على انها تعبير أصيل عن روح الفلاح الروسي الذي لم تفسده الحضارة الغربية ومفاهيمها الرومانية عن الملكية الخاصة . وكان انتقادهم لواقع المجتمع الروسي في الاربعينات من القرن الماضي لا يقل لذعا وصرامة عن انتقاد الغربيين . ولكنهم في نقدهم هذا كانوا يتطلعون الى ماض مثالي تصوره لهم ايضا خيالاتهم . ومن خلال هذا التطلع الى

الماضي او المستقبل ، التقى الغربيون والسلافيون على ارض مشتركة .. رفض الحاضر . وقد انتبه هرزن نفسه ، زعيم الغربيين ، الى هذه الحقيقة عندما قال: «اننا أشبه ما نكون بالإله جانوس ذي الوجهين ، فقلوبنا لا يعمرها سوى حب واحد لروسيا ، ولكن لهذا الحب مظهرين» .

لقد كانت روسيا بالنسبة الى السلافيين أمًا ، وكانت بالنسبة الى الغربيين ولدا ، على حد تعبير بردائيف . وكان الايمان بأن لروسيا رسالة تاريخية تخصها دون سائر أمم الارض عامرا في قلوب الطرفين . فقد كان هرزن يقول : « ان العرق السلافي سيأخذ على عاتقه المبادهة الى بعث الانسانية»، كما كان بييلنسكي، زعيم العقلانيين بين الغربيين يجاهر بأن «لروسيا رسالة انسانية . ودعوة روسيا هي ان تتمثل لا جميع عناصر اوروبا فحسب ، بل العالم قاطبة ، وأن تعيد تركيبها» . وبالمقابل كان خومياكوف ، منظّر السلافيين ، ينادي روسيا : (الفحي بلهيب حبك الشعوب قاطبة ، أخبريها عن سر الحرية ، صبي فيها نور ايمانك) .

وبديهي ان الصراع بين الغربيين والسلافيين كان يعكس صراعا اجتماعيا محددا ، ولكنه كان بالدرجة الاولى **صراع أفكار** . وكانت حلبة هذا الصراع الاندية والصالونات الادبية . وعلى هذا فقد كان بريئا من وجهة النظر السياسية. ومع ذلك فقد لقي الجانبان العنت الشديد من السلطة . وقد داهمت شرطة نيقولا الاول مرة احدى هذه الحلقات الادبية واعتقلت المتناقشين ، وصدر عليهم الحكم بالاعدام ــ وكان من بينهم دوستويفسكي ــ بحجة الاشتراك في «مؤامرة فكرية» . وهذه التهمة تحمل على الابتسام حقا اذا ما اعتبرت حجة للحكم بالاعدام ، ولكنها تصف اكثر من اي جملة غيرها طبيعة نشاط الانتلجانسيا الروسية وحدوده في الاربعينيات من القرن التاسع عشر : نشاط فكري محض يأخذ في غالب الاحيان صفة النزاع الحاد ، وذلك بقدر ما تمثل الانتلجانسيا شريحة متخلعة اجتماعيا ومقطوعة الجذور طبقيا . واذا كانت المناظرة بين الغربيين والسلافيين قد اخذت ذلك الطابع الحاد ، المتعصب ، المزمن ، فهذا على وجه التحديد لانه لم تكن لها من مرتكزات اجتماعية عميقة ، ولأن صراع الافكار قد نصب نفسه بديلا عن صراع القوى الاجتماعية .

وخلاصة القول ان ظهور الانتلجانسيا الروسية على مسرح الاحداث في الاربعينيات لا يعني ان الصيغة الثورية الملائمة التي تفتقر اليها روسيا قد وجدت اخيرا ، وانما يعني فقط ان المسيرة نحو هذه الصيغة قد بدأت . وكل مأساة الجيل التالي من الثوريين الروس تكمن في هذا الخلط المبدئي . الرغبة في جني الحصاد قبل البذار . فالانتلجانسيا ، بحكم كونها الشريحة المثقفة ، هي المؤهلة لصياغة المعادلة الثورية ، ولكن ان تكن الانتلجانسيا عقل الثورة ، فانها لم تكن قط ، في حد ذاتها ، عاملها وأداتها المنفذة . والحركة العدمية والارهابية التي ظهرت في النصف الثاني من القرن التاسع عشر لم تكن الا تعبيرا عن ازمة الانتلجانسيا ، تلك الازمة الناشئة عن تصور الانتلجانسيا لنفسها انها واضعة

معادلة الثورة ومنفذتها في آن واحد .

لقد قطعت الانتلجانسيا الروسية شوطا من المسيرة التي بدأها بستل ورفاقه. ولكن لم يكن من الممكن لها في ظروف العصر التاريخية ان تقطع اكثر من شوط واحد . فانتلجانسيا منتصف القرن التاسع عشر تريد «ثورة ثورية» مقابل «ثورة بستل غير الثورية» . ولكن ما تناسته هو ان الثورة لا يمكن ان تكون ثورية الا اذا توفرت لها قوة اجتماعية ثورية او تتطلب مصالحها الثورة . والحال ان مثل هذه القوة لم يكن لها وجود في روسيا منتصف القرن . وهذه الحقيقة هي التي تفسر مأزق الجيل التالي من الثوار الروس : الشعبيين .

ان الكسندر هرزن ، احد رواد حركة الاربعينيات ، هو ايضا مؤسس «الحركة الشعبية» التي اعلنت عن نفسها في عام ١٨٦١ ، عام تحرير الاقنان . ففي ذلك العام وجه القيصر «المحرر» ، الكسندر الثاني ، ضربات بوليسية قاصمة الى الجامعات التي كانت قد شهدت نشاطا تحريضيا واسعا . وفي لندن حيث كان هرزن منفيا وجهت صحيفة «الجرس» التي كان يصدرها نداء الى الطلاب المفصولين من الجامعات : «اذهبوا إلى الشعب ! فهناك محلكم ، يا منفيي العلم ، يا جنود الشعب الروسي !» . وكان هذا النداء بمثابة الاشارة الى بدء ذلك الزحف الهائل ، زحف المثقفين نحو الشعب ، «المسيرة نحو الشعب» .

وقد حاول الطلاب في البداية الاتصال بعمال الورشات في المدن . ولكن محاولتهم قوبلت بالصد والنفور . وعند ذلك فكروا بأن يذهبوا الى «الشعب الحقيقي» اي الى الفلاحين . وكانت مجاعة هائلة قد حلت بالارياف ولفتت الانظار اليها في عام ١٨٧٣ ـ ١٨٧٤ . وفي ربيع ١٨٧٤ تحرك ثلاثة آلاف من ممثلي الانتلجانسيا نحو القرى ، بصفة معلمين ومهندسين زراعيين وأطباء بيطريين وبشريين الخ . ولكن رد فعل «الشعب الحقيقي» لم يكن بأفضل من رد فعل «الشعب غير الحقيقي» . فالفلاح الروسي لم يرَ في مسيرة المثقفين نحوه سوى نزوة من نزوات اولاد النبلاء ، وعلاوة على ذلك نزوة قد تخلق له المتاعب مع الشرطة القيصرية . وعلى هذا فقد بادر احيانا من تلقاء نفسه الى الوشاية الى هذه الشرطة بأولئك «المأفونين» وهكذا اعتقل الآلاف من النخبة الثورية ، وقضى المئات منهم نحبهم في السجون او ذهب التعذيب بعقولهم .

والواقع ان المسيرة نحو الشعب لم تكن نزوة عارضة ، بل كانت نزوة «موضوعية» ان جاز القول . فقد كانت الفئة المثقفة تشعر بأنها معلقة في الفراغ ، معزولة عن الشعب ، مقضي عليها بالثرثرة الفارغة في الصالونات . وكانت تشكو علاوة على ذلك من عقدة الشعور بالذنب . فالثقافة التي أتيحت لها انما أتيحت على حساب كدح الفلاحين وكدهم . وعلى هذا فهي دَين في رقبتها لهم ، وعليها ان تسدده لهم بأن تعيدها اليهم . ومما أدى الى تفاقم هذا الشعور بالذنب الحنين الى الوطن الذي كان يشعر به المنفيون من المثقفين . ومثال هرزن هنا هو مثال نموذجي . فقد هاجر هرزن من روسيا الى باريس في عام ١٨٤٧ ، تحدوه رغبة عارمة في ان ينهل من نبع الحضارة الغربية التي طالما

تغنى بها . وقد قال عن باريس ، مدينة احلامه : «لقد دخلتها يحدوني شعور بالإجلال ، كما كان الناس يدخلون القدس وروما» . ولكن الصدمة التي كانت تنتظره كانت كبيرة . فقد شهد بأم عينه العمال يذبحون عند متاريس باريس في ثورة ١٨٤٨ . وصدمته بعد ذلك الروح التجارية السوقية للبورجوازية الاوروبية. وقد قال فيما بعد متحسرا على عظمة الروح السلافية وسموها ان روح الاوروبي هي «روح عطار» وان الحضارة الاوروبية الغربية هي «قرحة زهرية تلوث دم المجتمع وعظامه» . وقد اقام هرزن في المنفى ما يزيد على عشرين عاما تفاقمت خلالها مرارته على نحو مفجع وترسخت قناعته بأن الرأسمالية سممت مدنية الغرب كلها . ومن هنا تحول بالروح نحو روسيا من جديد ، وغرق في دوامة الاحلام التي تقول ان النور سيأتي هذه المرة من الشرق . واذا كانت النظريات الاشتراكية الغربية تخص البروليتاريا الصناعية بالدور الثوري التحريري ، فانه لم يبق امام هرزن الا ان يعلن ان هذا الدور سيقوم به في روسيا الفلاحون . وبالفعل ، جاء اليوم الذي قرر فيه هرزن ان «رجل الغد في روسيا هو الفلاح». وردد باكونين أصداء فكرته هذه فقال ان الفلاحين الروس «اشتراكيون بالفطرة». وبذلك أرسيت أسس المذهب الشعبي الذي ذهب الى القول بأنه ليس من الضروري ان تقوم الاشتراكية على أسس من التصنيع والتكتل في المدن ، بل يمكن ان تقوم بصورة افضل بكثير على الزراعة المتقدمة تقنيا في ظل نظام المشاعة القروية المعروفة في روسيا باسم «المير». وهذه الاشتراكية الزراعية ، التي كان **البيان الشيوعي** قد ندد بها بشدة ، كانت تقوم على موضوعتين : اولا ، من الممكن ان تتجنب روسيا المرحلة الصناعية البورجوازية بكل أنانيتها وخستها ، والطبقة الفلاحية ، ثانيا ، هي الطبقة القائدة للثورة الاجتماعية وليس طبقة عمال المدن الذين لوثتهم الحضارة الصناعية بسمومها. وقد لخص بيير لافروف وجهة النظر المشتركة لجميع النارودنيين (الشعبيين) فقال : «ان ثورتنا الاجتماعية ستأتي لا من المدن ، وانما من الريف» .

وهنا لا بد ان نعود قليلا الى الخصومة بين الغربيين والسلافيين ، تلك الخصومة التي وسمت بميسمها كل تطور روسيا الحديث . فلقد رأينا ان النزعة السلافية كانت تبدو محافظة بالمقارنة مع العقيدة الغربية ، ولكنها كانت اوسع نفوذا وأعمق تأثيرا نظرا الى دغدغتها لروح الكرامة القومية . ولئن كان لا مفر من ان تكتب الغلبة في تلك الخصومة للغربيين لانهم كانوا يقفون في صف الثورة والتقدم حقا ، فان السلافيين قد انتصروا هم ايضا على طريقتهم اذ مارسوا تأثيرهم على الغربيين انفسهم وأورثوهم جملة من العقائد . وبالفعل ، ان تصفية السلافية كتيار مستقل لم تعن انتصار المعسكر الغربي بل انقسامه الى تيار ليبرالي وتيار اشتراكي ـ شعبي . فالتيار الليبرالي ظل متمسكا بالنهج الغربي القديم داعيا روسيا الى السير على طرق الغرب المطروقة . اما التيار الاشتراكي ـ الشعبي فقد اخذ عن الغرب المذاهب الاشتراكية وطعمها بجملة من

عقائد السلافيين: أصالة الفلاح الروسي الذي تحول الى قائد للثورة الاجتماعية، والمشاعة القروية التي باتت تعني انه في وسع روسيا ان تتقدم الى الاشتراكية بطرق مختصرة وأقل ايلاما . وبكلمة واحدة ، ان المذهب الشعبي ان هو الا العقيدة الغربية وقد تزيت بالزي السلافي .

ماركس وروسيا

لنتوقف هنا قليلا عند علاقات الماركسية بالشعبية . ولعل اول ما يلفت النظر في هذا المجال ان «روسيا كانت اول أمة اجنبية تقوم بترجمة «الرأسمال» على حد تعبير ماركس . وقد كتب كوجلمان بدوره الى ماركس يقول : «انه لأمر له دلالته ان يكون عملك قد عُرف اول ما عرف في روسيا بالضبط» . والواقع ان ماركس لم يكن يحب روسيا كثيرا . فقد كان يرى فيها وطن الاستبداد الشرقي ومعقل الرجعية الاول في اوروبا وسيف ديموقليس المسلط على رقاب جميع الديموقراطيين الغربيين . واذا كانت روسيا هي بالتعريف بلاد فلاحين ، فهي بالضرورة ايضا بلاد همج . ولا يحجم مفكر كبرديائيف عن اتهام ماركس بأن موقفه من روسيا كان موقفا جرمانياً عنصريا . وفي هذا الاتهام الشيء الكثير من الافتراء . ولئن كان ماركس قد أبدى كراهية وازدراء تجاه ثوري كباكونين يزعم ان الموجيك الروسي «شيوعي بالفطرة» او تجاه مفكر كهرزن أنكر الحضارة الغربية وندد بها ، فان ماركس نفسه كان يبدي اعجابه بمفكر كتشيرنشفسكي ويعتبر صمته «خسارة لا بالنسبة الى روسيا وحدها ، بل ايضا بالنسبة الى القارة الاوروبية قاطبة» ، وماركس نفسه هو الذي انكب في الخمسين من عمره على تعلم اللغة الروسية لتتاح له امكانية قراءة اعمال المفكرين الروس بلغتها الاصلية ، اولئك المفكرين الذين جاهر بتقديره لهم لان «خيوطا لامرئية تربطهم بجسم الشعب» . والواقع ان موقف ماركس من روسيا قد تبدل كثيرا في العقدين الاخيرين من حياته ، وهذا التبدل لا يعود الى انقلاب في مزاجه وانما الى انقلاب الاوضاع في روسيا نفسها التي اخذت تظهر للعالم وجهها الثوري المشرق بعد ان كان الوجه الوحيد المعروف لها وجهها الرجعي القاتم .

ومهما يكن من امر ، فقد كان من المستحيل ألا يمتد تأثير الماركسية ، عقيدة العصر الثورية ، الى المثقفين الروس ، ولاسيما الى اتباع المذهب الشعبي منهم . والظروف التي حتمت تلاقي الماركسية والشعبية هي ظروف البحث عن صيغة ثورية ملائمة لروسيا . وقد صدرت محاولة التلاقي الاولى عن بيوتر تكاتشيف ، الاشتراكي ــ الشعبي الروسي الذي كان يطبع في المنفى جريدة «ناقوس الخطر»، والذي كتب في عام ١٨٧٤ «رسالة مفتوحة الى فريدريك انجلز» يتهمه فيها بأنه يدلل على جهل مطبق بالاوضاع الحقيقية في روسيا ، ويعلن له بكل كبرياء الروح الروسية ان روسيا ستكون سباقة الى الثورة الاشتراكية لأن الروس بفطرتهم اشتراكيون : «ان شعبنا في غالبيته الكبرى ... مفعم بمبادىء الملكية

المشاعية . وهو ، اذا جاز التعبير ، شيوعي بالفطرة ، بالوراثة . وفكرة الملكية الجماعية متأصلة في رؤيته للعالم بعمق كبير الى حد ان ... الحكومة تجهد ... لتلقينه فكرة الملكية الخاصة بواسطة الحربة والسوط . ومن هنا يتضح ان شعبنا ، بالرغم من جهله ، أقرب الى الاشتراكية بكثير من شعوب أوروبا الغربية بالرغم من انها اكثر تعلما منه» .

ويأتي رد انجلز في المقال الذي كتبه تحت عنوان **حول العلاقات الاجتماعية في روسيا** كلاسيكيا من وجهة النظر الماركسية الى حد بعيد . فإنجلز يلاحظ اول ما يلاحظ ان الثورة الاشتراكية انما تعني اعادة تنظيم المجتمع من خلال انتصار البروليتاريا على البورجوازية . وعلى هذا فان شرط الثورة الاشتراكية ليس وجود البروليتاريا فحسب ، بل وجود البورجوازية ايضا . ومحاولة تكاتشيف اختصار الطريق الى الاشتراكية انما تدل على جهله بألف باء الاشتراكية. فتكاتشيف يقر بأنه لا وجود في روسيا لبروليتاريا مدينية ، ولكن ليضيف ايضا بأنه لا وجود فيها للبورجوازية كذلك . وهذا معناه في نظر تكاتشيف ان الثورة الاشتراكية ستكون في روسيا أسهل منها في الغرب ، لأن الاشتراكيين الروس لن يكون عليهم ان يواجهوا غير السلطة السياسية وحدها ، في حين ان على اشتراكيي اوروبا ان يواجهوا بالاضافة اليها قوة الرأسمال . والحال ان النضال ضد السلطة السياسية أسهل بكثير منه ضد قوة الرأسمال . ولكن ما يتناساه تكاتشيف هنا ان تطور القوى الانتاجية شرط أولي للثورة الاشتراكية ، وان هذا التطور لا يبلغ مداه المطلوب الا بين يدي البورجوازية . وعلى هذا فان عدم وجود البورجوازية لا يعني سهولة الاشتراكية ، بل يعني على العكس استحالتها لانه يعني بكل بساطة ان القوى الانتاجية لم تتطور بعد الى الحد الكافي لإنضاج الثورة الاشتراكية .

اما استشهاد تكاتشيف بالمشاعة القروية الروسية كطريق مختصر الى الاشتراكية فهو حجة عليه لا له .. فالملكية المشاعية للارض مؤسسة موجودة لدى الكثير من الشعوب في مرحلة دنيا من تطور القوى الانتاجية . وهي احدى الدعامات التي يقوم عليها نظام الاستبداد الشرقي . والتطور الحديث لروسيا يقضي عليها بالتفسخ والانحلال ، وسوف تنتفي تدريجيا مع التطور البورجوازي دونما حاجة الى «الحربة والسوط» .

واذا كانت المشاعة الروسية مدعوة الى الانحلال ، فهذا لا يعني انه من المستحيل الحفاظ عليها وتطويرها الى شكل اعلى من الملكية التعاونية . ولكن هذا بشرط واحد وهو ان تقوم في اوروبا الغربية ، قبل الانحلال النهائي للمشاعة الروسية ، ثورة بروليتارية مظفرة تقدم للفلاح الروسي الوسائل المادية الضرورية للانتقال بالمشاعة الراهنة الى مستوى اعلى . وهذا يترتب عليه انعكاس المعادلة التي يقدمها تكاتشيف . فالواقع ان الفلاحين الروس ليسوا اقرب الى الشيوعية من عمال اوروبا الغربية كما يزعم تكاتشيف ، بل ان الشيء الوحيد الذي يمكن ان ينقذ المشاعة الروسية ويوفر لها شروط الانتقال الى مستوى اعلى

قابل للحياة هو ثورة بروليتارية في اوروبا الغربية .

هذه هي الخطوط العريضة لرد انجلز على تكاتشيف . ومن الواجب هنا ان نطرح سؤالا اساسيا فنقول : هل استطاع هذا الرد ان يسهم ايجابيا في ايجاد الصيغة الثورية المناسبة لروسيا ؟

الواقع اننا لا نستطيع ان ننكر انه قدم مساهمة من هذا القبيل ، وذلك بمقدار ما بدد الاوهام الطوباوية البورجوازية الصغيرة حول حيوية المشاعة الروسية وشيوعية الفلاحين الروس الفطرية . ولكنه بالمقابل ضرب نطاقا من البلبلة والالتباس حول تلك الصيغة الثورية المنشودة . فالمشكلة الاساسية التي يطرحها تكاتشيف وغيره من الاشتراكيين ـ الشعبيين ليست حيوية المشاعة الروسية ، بل امكانية ايجاد طريق روسي الى الاشتراكية ، طريق مختصر . ولو اكتفى انجلز بأن يقول بأن التمسك بالمشاعة القروية ليس هو ذلك الطريق المختصر لما كان لنا من تعليق . ولكن انجلز ينفي اصلا امكانية وجود طريق مختصر . فهو لا يكتفي بالقول بأن وجود البورجوازية هو شرط الثورة الاشتراكية ، بل يضيف بأنه لا بد ايضا لهذه البورجوازية ان تركز قوى الانتاج بين يديها لان مثل هذا التركز هو وحده الذي يقدم الدليل على ان الشروط الموضوعية للثورة الاشتراكية قد نضجت . وهذا معناه ، بالنسبة الى روسيا ، ان الانتظار ضروري وأن الثورة الاشتراكية ما تزال في عالم الغيب . وليس من الصعب ان ندرك ان انجلز يسقط هنا في ما يمكن ان نسميه بالنزعة الماركسية الميكانيكية والوضعية الملتزمة بمخطط حتمية مراحل التطور . وصحيح ان انجلز يخالف ظاهرا هذا المخطط عندما يقول بأن قيام ثورة بروليتارية في الغرب يمكن ان يوفر على روسيا المرحلة البورجوازية ، ولكنه في الواقع يتقيد به لانه يشرط الاستثناء ، أي امكانية حرق المراحل ، بعوامل خارجية (ثورة بروليتارية في الغرب) .

والحق ان عناد الشعبيين الروس في رفض هذا المخطط الماركسي له ما يبرره ، لانه في واقع الامر دعوة الى الإرجاء الى أجل غير مسمى : انتظار نضج الشروط الموضوعية للثورة الاشتراكية داخل روسيا او انتظار ثورة بروليتارية اوروبية . وفي كلتا الحالتين يكون العامل الذاتي للثورة قد أسقط من الحساب، ويكون الحكم قد صدر سلفا بلا جدوى كل النشاط النظري والعملي للثوريين الروس . ولو اردنا هنا ان نحاكم موقف انجلز من منظور التطورات اللاحقة لقلنا انه كان موقفا منشفيا قلبا وقالبا .

والنقطة الحساسة التي أهملها انجلز والتي نوه بها تكاتشيف هي ان الثورة الاشتراكية في روسيا قد تكون بالفعل أسهل منها في الغرب ، نظرا على وجه التحديد الى ضعف البورجوازية الروسية وخورها . وهذه النقطة هي التي سيبني عليها لينين ضد المناشفة (الانجلزيين) نظريته عن الحلقة الضعيفة في السلسلة وسوف نعود الى هذه النظرية فيما بعد ، مكتفين الان بالاشارة الى ان انجلز لم يبدل موقفه بصدد امكانية اختصار الطريق الى الاشتراكية في روسيا

حتى اللحظة الاخيرة من حياته . فقد كتب في عام ١٨٩٤ ، اي قبيل وفاته بقليل ، يؤكد ان «المبادهة الى تحويل المشاعة الروسية لا يمكن ان تنطلق البتة من هذه المشاعة ذاتها ، وانما فقط من بروليتاريا الغرب الصناعية . ان انتصار بروليتاريا اوروبا الغربية على البورجوازية واستبدال الانتاج الرأسمالي بالانتاج الاشتراكي الموجه ... هما الشرط الضروري المسبق للارتفاع بالمشاعة الروسية الى ذلك المستوى» .

ويمكن القول ان موقف ماركس لم يكن يختلف جذريا عن موقف انجلز . ولكنه كان على كل الاحوال أقل جزما منه وأكثر ترددا وأشد حرصا على عدم سد الطريق في وجه كل امكانية لاختصار الطريق . فقد لاحظ ماركس منذ عام ١٨٧٧ في رده على الشعبي الروسي ميخائيلوفسكي ان روسيا اذا ما تابعت مسيرتها في طريق التطور الرأسمالي الذي كانت قد بدأته منذ عام ١٨٦١ فستخسر «أجمل فرصة أتاحها التاريخ لشعب قط» وستجد نفسها مضطرة الى الخضوع لقوانين النظام الرأسمالي والى المعاناة من تقلباته ومآسيه . وواضح ان ماركس لا يختلف هنا عن انجلز في اللهجة وحدها ، بل ايضا في التقييم والتوقع. فحديث ماركس عن «الفرصة الجميلة» التي ستضيعها روسيا اذا ما استمرت في طريق التطور الرأسمالي يعني ، اول ما يعني ، ان ماركس كان أبعد ما يكون عن التقيد بحتمية المراحل ، ويعني ثانيا ان امكانية اختصار الطريق الى الاشتراكية كانت متاحة لروسيا ، ويعني ثالثا وأخيرا ان ماركس كان قريبا من الشعبيين في اعتقادهم بأن لروسيا «قدرا» خاصا بها لانه كان يقر معهم بأن الفرصة التي اتاحها التاريخ لروسيا لم تتح لاي شعب آخر قط .

وفي رسالته في عام ١٨٨١ الى فيرا زاسوليتش ، احدى رائدات الجيل الماركسي الروسي الاول ، يبدو ماركس اكثر تفاؤلا بمستقبل المشاعة الروسية، ويؤكد لفيرا ان دراساته حول هذا الموضوع قد أقنعته بأن «تلك المشاعة هي نقطة انطلاق البعث الاجتماعي في روسيا» وان انقاذها هو رهن بقيام ثورة روسية ، وان هذه الثورة اذا ما قامت في الوقت المناسب وضمنت للمشاعة شروط الحياة والتطور ، فان هذه المشاعة ستكون نقطة تفوق لروسيا على البلدان التي يستعبدها النظام الرأسمالي .

وفي مقدمة الطبعة الروسية الثانية لـ **البيان الشيوعي** في عام ١٨٨٢ يؤكد ماركس وانجلز على حد سواء ان روسيا باتت تقف الان «في طليعة الحركة الثورية الاوروبية» ، وانه ليس هناك من حتمية تاريخية مسبقة تقضي على المشاعة الروسية بالانحلال كما حدث في الغرب الرأسمالي ، وان هناك امكانية فعلية لانتقال المشاعة الروسية بصورة مباشرة (اي بدون المرور بالمرحلة البورجوازية) الى التنظيم الشيوعي لملكية الارض ، وان تحقق هذه الامكانية اخيرا رهن بقيام ثورة روسية تكون نقطة انطلاق لثورة بروليتارية في الغرب .

ان ماركس اذن لم يسد الافق ولم يلجم امكانية المبادرات الثورية ، وذلك بعكس ما فعل انجلز . ويظهر ذلك واضحا في تردده في اصدار أحكامه ، فقد

كتب اربع مسودات مطولة قبل ان يحرر رسالته النهائية الى فيرا زاسوليتش .
وزبدة الكلام ان انجلز لم يترك للماركسيين الروس من خيار غير المذهب المنشفي،
اما ماركس فقد ترك الباب مفتوحا ــ من غير ان يرفض المذهب الاول ــ لظهور
المذهب البلشفي .

مأزق الشعبيين

ان كل هذه المناقشات في صفوف الشعبيين اولا، وبين الشعبيين والماركسيين
ثانيا ، بقيت حبرا على ورق . فالشعب ــ شعب الفلاحين ــ كان سادرا في
عالمه البعيد كل البعد ، الغريب كل الغربة عن عالم الانتلجانسيا . وهنا على وجه
التحديد كان يكمن مأزق المذهب الشعبي . فهذا المذهب استمد اسمه لا من
تأييد الشعب وانما من «الهجرة الى الشعب» . ويوم قال هرزن لطلاب الجامعات:
اذهبوا الى الشعب ، كان يعني حقا ما يقول . فهذه الهجرة كانت ضرورية ، لان
اولئك المثقفين كانوا من عالم غير عالم الشعب . ولعل ما من عبارة تعبر عن
الانفصال بين هذين العالمين وعن مقدار عدم شعبية الشعبيين كهذه العبارة التي
قالها الشعبوي المتأخر ميخائيلوفسكي : «اذا ما اقتحم الشعب الثائر غرفتي بنية
تحطيم بيلنسكي وهدم مكتبتي ، فانني سأقاتل حتى القطرة الاخيرة من دمي» .
اذن فقد كان من حق الشعب ان يرتاب في اولئك المثقفين الذين هاجروا
اليه ، بالرغم من نبل مشاعرهم ونياتهم . ولقد كان يرتاب بالاساس بالاطباء الذين
جاءوا الى الريف ليطهروه من وباء الكوليرا (١) ، فكيف لا يرتاب في اولئك المثقفين
المتحدرين من اصلاب النبلاء ؟

وقد تحسست المنظمات الثورية الاولى عمق هذا الانفصال وحاولت تدارك
هذا النقص . وهكذا وضعت «الارض والحرية» ، اولى المنظمات الشعبية الثورية
لعموم روسيا ، خطة عمل طويل النفَس للدعاية والتحريض بين الفلاحين .
وبالرغم من دقة تنظيم هذه الحركة وانضباطها الحديدي وسريتها المطلقة ومركزيتها
الشديدة ، فانها لم تعمر اكثر من سنوات معدودات . ولئن كانت قبضة
الارهاب القيصري قد تمكنت من تحطيمها بسرعة ، فليس ذلك لان الشرطة
القيصرية كانت يقظة فحسب ، بل ايضا لان تلك الحركة لم تستطع ان ترسي
قواعدها في أعماق الشعب ولان الشعب لم يكن على استعداد لان يمحض المثقفين
ثقته . وهذا ما يفسر ان الحركة التي ورثتها ، «حرية الشعب» ، انصرفت عن
عمل الدعاية والتحريض الى العمل الارهابي المحض . ولم يكن النجاح النسبي
الذي حققته «حرية الشعب» في نشاطها الارهابي الا دليلا على عزلتها ولاجدوى

---

١ ــ في عام ١٨٩١ ــ ١٨٩٢ هاجمت جموع الفلاحين اللاجئين الى المدن المستشفيات
واعتدت على الاطباء متهمة اياهم بأنهم «مسممون» .

بطولاتها . فالارهاب هو بالتحديد سلاح الثوريين الذين لا جمهـــور لهم ، أو بالاحرى سلاح الثوريين الذين اقنعوا انفسهم بأن بطولاتهم وتضحياتهم الذاتيـة يمكن ان تكون بديلا عن نقص تطور الشروط الموضوعية للثورة .

هذه الحقيقة هي التي أدركها الجناح المنشق عن «الارض والحرية» الـــذي أطلق على نفسه اسم حركة «التوزيع الاسود» ثم «تحرير العمل» والذي ضـــم الفصيلة الاولى من الماركسيين الروس تحت قيادة جورج بليخانوف .

والحق ان انفصال جماعة «التوزيع الاسود» و«تحرير العمل» عن الحركـــة الاشتراكية ـ الشعبية لم يكن يعني مجرد رفـض لاسلوب العمل الارهابـــي والتآمري ، ولم يكن يعني تبني مواقف اكثر جذرية في المسألة الزراعية فحسب، ولا مجهودا جديدا لايجاد صلة امتن وأوثق بالجماهير الشعبية فحسب ، بل كان يعني اساسا ان استراتيجية جديدة للعمل الثوري قد باتت مطلوبة وان كل الصيغ الثورية السابقة قد أفلست وأن المجتمع الروسي قد دخل في مرحلة جديدة من التطور بات من الواجب معها البحث عن قوة اجتماعية جديدة تأخذ على عاتقها مهمة انجاز الثورة التي عجز المثقفون والفلاحون على حد سواء عن انجازها .

ولم تكن هذه القوة الاجتماعية الجديدة غير الطبقة العاملة . ذلك ان روسيا قد فوتت على نفسها ، في نظر ذلك الجيل الاول مـــن الماركسيين الروس ، الفرصة الذهبية التي أتاحها لها التاريخ ، وبات من المحتم عليها ان تمر بكل تقلبات النظام الرأسمالي ومآسيه .

«فلتتحقق ارادة المقادير» : بهذه الجملة ختم انجلز رسالته الى دانيلسون ، الشعبوي الروسي ، ليقنعه بأنه لا داعي للخوف من ان تسير روسيـــا في نفس الطريق الذي سار عليه الغرب ، ومن تلك الجملة ايضا كانت نقطة انطـــلاق الماركسيين الروس الاوائل .

لقد حاول الشعبويون بكل الوسائل ان يحرقوا المرحلة البورجوازية . ولكن جمود الموجيك الروسي وجفوته وسلبيته جعلت حلم الشعبويين في اشتراكية فلاحية مستحيلا . ولكن الشعبويين آثروا الحلم المستحيل على الحقيقة المرة . وهكذا أغمضوا أعينهم بعناد عما كان قد بدأ يطرأ على روسيا من تحول منذ عام ١٨٦١ . رفضوا ان يروا السكك الحديدية تمد والمصانع تقام والمناجم تشـــق والبورجوازية تنمو . رفضوا ان يروا روسيا تتغرب وتتبرجز وتتصنع . رفضوا ان يروا ممثل الروح الروسية الاصيلة ، الموجيك، يُنتزع من وراء محراثه ويُلقى به في بؤر البؤس والقذارة في المدن . وكما رفض أسلافهم السلافيون الاعتـــراف بإصلاحات بطرس الاكبر وكاترين الثانية الغربية ، رفضوا هم الاعتراف بمآثـــر البورجوازية الرأسمالية التي كان يحلو لهم ان يتخلصوا منها بجرة قلم لا اكثر ، زاعمين ان خستها وأنانيتها وروحها التجارية تتناقض مع اصالة الروح الروسية. وبكلمة واحدة ، أصروا على ان لروسيا قدرها الخاص في الوقت الذي كانت فيه روسيا قد بدأت تسير في طريق اكثر الاقدار عمومية .

ومن اللحظة التي شرع فيها الشعبيون بالانزلاق الى مواقـــف السلافيين

الخلّص ، اي من اللحظة التي شرعوا فيها بالتحــول الى طوباويين بورجوازيين صغار ورجعيين رافضين للتقدم الاجتماعي ، بات من المحتم ان يخلق تطــور روسيا الثوري بديلهم ، ولم يكن هذا البديل غير الماركسيين .

والحال ان الماركسية عقيدة غربية . وهكذا تتكرر في أواخر القرن التاسع عشر مناظرة الاربعينيات بين الغربيين والسلافيين ، بل المناظرة التـــي وسمت بميسمها روسيا منذ ان كانت روسيا ، المناظرة بين اولئك الذين بحثوا دوما عن الخلاص في النور الآتي من اوروبا وأولئك الذين كان رأيهم دوما ان روسيــا تستطيع ان تخلص نفسها بنفسها .

وكما انتصرت العقيدة الغربية على العقيدة الشرقية في الاربعينيات ، كذلك انتصرت الماركسية على الشعبية في التسعينيات ، ولكن كما انقسمت العقيــدة الغربية على نفسها في الستينيات، كذلك ستنقسم الماركسية على نفسها في العقد الاول من القرن العشرين . وكما ان عناصر هامة وأساسية من النزعة السلافية حافظت على نفسها من خلال انتشار النزعة الغربية وانقسامها ، كذلك فــان عناصر هامة وأساسية من الشعبية ستحافظ على نفسها من خلال انتصــار الماركسية وانقسامها .

قلنا ان الماركسية كانت عقيدة غربية . وليس ذلك لانها مستوردة مــن اوروبا فحسب ، بل ايضا لان مخططها هو مخطط اوروبي : الانقلاب الصناعــي ونتائجه الاجتماعية . وصحيح ان روسيا كانت قد بدات تطورها الصناعـــي والرأسمالي عندما اعلنت الماركسية عن نفسها عقيدة رسمية لاحد تيارات الحركة الثورية الروسية ، ولكن ذلك التطور لم يكن الا في بدايته . ولقد كانت المناظرة حول الماركسية في جوهرها مناظرة حول ذلك التطور . فقد كان القبول بالماركسية يعني الافتراض بأن خلاص روسيا سيكون نتيجة لهذا التطور ، في حين ان رفضها كان يعني على العكس الافتراض بأن خلاص روسيا يكمن في تجنيبها هذا التطور. ولهذا ، وفي مرحلة اولى على الاقل ، لم يكن الحوار بين الماركسيين والشعبيين حول الاشتراكية ، وانما كان حوارا حول الرأسمالية !

والواقع ان الرعيل الاول من الماركسيين الروس ، وعلى رأسهم بليخانوف، كان مسؤولا الى حد كبير عن ظهور الماركسية بمظهر العقيدة المستوردة . فقــد اخذ ذلك الرعيل من الماركسية جانبها العلموي ، الوضعي ، الحتمي النزعة ، الذي كان يؤكد ان الاشتراكية ستكون النتيجة المحتومة لتطور قوى الانتـــاج والصراع الطبقي . والحال ان هذا التصور كان يعني بالنسبة الى روسيــا ارجاء الثورة الاشتراكية الى اجل غير مسمى ، وكان يعني ان على روسيا ان تمر بجميع تقلبات النظام الرأسمالي ومآسيه بانتظـار ولادة البروليتاريا كطبقـــة محررة .

وبديهي ان مثل هذا التصور لم يكن يمثل الصيغة الثورية المنشودة بالنسبة الى روسيا . ففي مطلع القرن العشرين كما في السبعينيات من القرن السابق

كانت المشكلة المركزية وما تزال بالنسبة الى روسيا هي مشكلة ايجاد طريق مختصر الى الاشتراكية . والحال ان الماركسيين الروس الاوائل لم يفعلوا من شيء سوى انهم انكروا وجود مثل هذا الطريق .

وهنا على وجه التحديد تبرز عبقرية لينين . لينين الذي استطاع ان يوحد بين الماركسية وبين الصيغة الثورية المنشودة . لينين الذي قيض للماركسية على يديه ان تتجاوز صفة الاستيراد لتصبح ماركسية (روسية) ان جاز التعبير . لينين الذي حقق للماركسية ما تحقق للنزعة الغربية عندما دمجت بها العناصر التقدمية من النزعة السلافية . وبكلمة واحدة ، لينين الذي أوجد من خلال تطوير الماركسية الطريق الروسي الى الاشتراكية ، الطريق المختصر .

وهذا الطريق يتمثل في الاستراتيجية الطبقية التي وضعها لينين للثورة ، وهي بالطبع استراتيجية لم تولد دفعة واحدة وانما تكونت من خلال تطور الاحداث . ولا مناص لنا بدورنا من ان نتتبع بناء هذه الاستراتيجية لبنة لبنة .

تصفية حساب الاشتراكية الفلاحية

كان المذهب الشعبي هو المذهب السائد في اوساط الانتلجانسيا الروسية في العقود الاخيرة من القرن التاسع عشر . ولم يكن في وسع الماركسية ان تصبح الايديولوجيا الثورية السائدة ما لم تصفّ اولا حساب ذلك المذهب . ولقد بذل الماركسيون الاوائل من جماعة (تحرير العمل) جهودا مشكورة في هذا المضمار . ولا بد ان نذكر هنا كراسة بليخانوف المشهورة **خلافاتنا** التي حددت الرؤية الجديدة للعالم ، الرؤية الماركسية كبديل عن الرؤية الشعبية . وقد خصص لينين السنوات الاولى من حياته السياسية لتصفية الحساب مع المذهب الشعبي وكتب آلاف الصفحات لدحضه وفضح تناقضاته وأوهامه .

ولعل اول ما حرص عليه لينين في مناظرته مع الشعبيين هو ان يحرر النقاش من سيطرة المصطلحات الشعبية عليه . فمناخ المناظرة يجب ان يكون من الان فصاعدا مناخا ماركسيا وليس شعبيا . وكان هذا معناه عمليا انتقال الماركسية من مواقع الدفاع الى مواقع الهجوم . وهذا لا يعني بالطبع ان لينين لم يول اهتماما لمسألة تفنيد تهمة الاستيراد الموجهة الى الماركسية ، ولكن هذا الدفاع كان يأخذ دوما لدى لينين شكل توجيه تهم مضادة .

ان اول ما رفضه لينين ان تظل مصطلحات الشعبيين هي السائدة . فلينين لا ينكر ان مفاهيم النزعة الغربية او النزعة السلافية وأضرابهما هي مفاهيم ذات علاقة بموضوع المناظرة ، ولكنه راح يؤكد من البداية ان هذه المفاهيم لا تستوعب الحوار كله ، وانه لا بد بالتالي من اعتماد مفاهيم جديدة ، مفاهيم مستقاة بالطبع من الترسانة الايديولوجية للماركسية . وهكذا فان ماهية الشعبية لا تكمن في الايمان بالتطور الخاص والاصيل لروسيا ، وانما في تمثيلها لمصالح وأفكار المنتج الروسي الصغير . ومهمة الماركسية هي ان تكشف الستار عن

العلاقة بين المصالح الطبقية للمنتج الصغير وبين التعلل بأوهام التطور الخاص الاصيل ..

ان الشعبية ان هي الا محاولة يائسة للبحث عن طريق آخر للتطور ، طريق غير الطريق الرأسمالي . ذلك ان ما ينتظر المنتج الصغير في هذا الطريق الاخير هو الدمار اقتصاديا والتفكك طبقيا . فطريق الرأسمالية هو طريق يعج بالجثث، وقبل كل شيء جثث المنتِجين الصغار . ومن هنا كان حرص هؤلاء المنتجين الصغار طبقيا على البحث بعناد عن طريق آخر او عن امكانية طريق آخر . ولهذا أيضا كانت لغة الممثلين الايديولوجيين لهذه الطبقات هي لغة ارادية محضة ، لغة لا تتحدث الا عما هو ممكن او واجب ، ولا تعير اهتماما لما هو كائن وواقع حقا. فالشعبيون يحلو لهم دائما ان يطرحواتساؤلات كهذه : هل «يمكن» للرأسمالية ان تتطور في روسيا ؟ هل «يجب» ان تمر روسيا بالمرحلة الرأسمالية ؟ فلكأن ارادة فرد او أفراد هي التي تحدد طبيعة النظام الاقتصادي للمجتمع ولكأن المجتمع صفحة بيضاء يمكن لواضعي الايديولوجيات ان يخطوا عليها ما شاؤوا من كل ما هو ممكن او واجب .

وبقدر ما أن العالم الذي تشيده الشعبية هو عالم تصوري ، طوبائي ، فان العالم الذي تضعه الماركسية نصب عينيها هو العالم الواقعي ، الحقيقي . فالماركسية لا تتساءل : هل يمكن للرأسمالية ان تتطور في روسيا ، بل تلاحظ ان هذا التطور قد بدأ فعلا . ونقطة ارتكازها ليست هي العلاقات الاقتصادية والاجتماعية **الممكنة** ، وانما العلاقات **الواقعية** ؛ وليست مهمتها انشاء عوالم بديلة ، بل دراسة العالم القائم . ان الماركسية هي التحليل العيني للاوضاع العينية .

وما دامت الماركسية هي هذا التحليل ، فان تهمة الاستيراد تسقط من تلقاء نفسها . ذلك ان الماركسيين لا يمكن ان يقبلوا بالوقوع في براثن نفس المآخذ التي يأخذونها على الشعبيين . فتهمة الاستيراد تعني ضمنا ان الماركسيين الروس قد جعلوا من الغرب الرأسمالي مثالهم الاعلى ، وان كل ما يتمنونه هو ان تسير روسيا في طريق الغرب . والحال ان الماركسيين لا يريدون ولا يتمنون ولا يحلمون . وهم لم يقولوا قط ان الرأسمالية **يجب** أن توجد في روسيا لانها قد وجدت في الغرب . ولو قالوا شيئا من هذا القبيل ، لما كانوا اختلفوا عن **اصدقاء الشعب** . وعندما يوجه هؤلاء الاخيرون اليهم تهمة الاستيراد او تهمة الايمان بمخطط تاريخي مجرد ، فان كل قصدهم هو ان يقولوا ان الماركسيين لا يتميزون عن الشعبيين بطريقة فهمهم للواقع الروسي ، وانما بتصوراتهم عن المستقبل . فكأن موضوع النقاش ليس الواقع والحاضر ، بل المستقبل و**«المنظورات»** و **«الآفاق التاريخية»** .

ان المخطط التاريخي المجرد لا وجود له فيالماركسية ولا في أذهان الماركسيين الروس . ونظرية ماركس ليست البتة نظرية مطلقة ، فلسفة كونية للتاريخ ،

مخططا إلزاميا لجميع المجتمعات . فالماركسية ان هي الا تفسير لتكوين اقتصادي واجتماعي محدد . والماركسيون لا يشيدون تصوراتهم على ما يفترض بأنه نظرية فلسفية ـ تاريخية عامة ، وانما انطلاقا من الواقع التاريخي للعلاقات الاقتصادية والاجتماعية في قطر محدد . وهم عندما يعلنون عن تمسكهم بالاورثوذكسية الماركسية ، فهذا لا يعني البتة في نظرهم ان الاورثوذكسية هي مجرد شرح ماركس وترجمته . فالماركسية هي دليل للعمل لا تطبيق حرفي لمخطط مجرد على الواقع العيني . واذا وجد تلامذة أورثوذكسيون بين الماركسيين الروس مبهورون بحرف الماركسية لا بروحها ، فانهم وحدهم الذين يتحملون مسؤولية هذا الخطأ ، والمذهب منه براء .

ان الشعبيين يطلقون من قبيل الاستهزاء لقب «التلامذة» على الماركسيين الروس . والحال ان الماركسيين الروس فخورون بهذا اللقب ، فخورون بأن يكونوا تلامذة لماركس . ولكن «تتلمذهم» هذا لايعني البتة انهم يضربون بعرض الحائط الواقع الروسي وأنهم ينزلون الماركسية منزلة العقيدة الجامدة . انهم تلامذة ماركس وتلامذة الواقع الروسي في آن واحد . ومنهج ماركس ليس في نظرهم أداة للهرب من الواقع الروسي ، بل هو على وجه التحديد الاداة المثلى للاقتراب من هذا الواقع وفهمه . واذا كان من هم للماركسيين الروس ، في تلك المرحلة الاولى على الاقل ، فهو على وجه التحديد ان يفتحوا أعين الشعبيين والمخدوعين بهم على الواقع الروسي ، ان يجعلوهم يرونه على حقيقته ، كما هو ، بدون تنميق ولا أساطير .

وأول ما يميز هذا الواقع هو ان عجلة الرأسمالية قد مرت عليه ، بمدنه وأريافه على حد سواء . وقد يقر الشعبيون بأن الرأسمالية قد أرست لها بعض الاسس في المدن الروسية ، ولكن عنادهم لا حدود له في إنكار «تسرب» الرأسمالية الى الارياف . ومن هنا كان اتهامهم للماركسيين الروس بأنهم يتجاهلون مصالح الطبقة الفلاحية ويريدون ان «يجعلوا كل موجيك يمر ببوتقة المصنع» . وهنا ايضا لا بد من التكرار بأن الماركسيين لا «يريدون» شيئا من هذا القبيل ، وانما يلاحظون وجوده على صعيد الواقع المباشر . ولهذا فانهم يعاندون بدورهم في أن يظهروا الريف على حقيقته ، بعلاقاته الاقتصادية الواقعية . وبكلمة واحدة ، انهم يريدون استبدال **رؤيا** الشعبية **برؤية** الماركسية .

والواقع ان عناد الشعبيين في إنكار شمول العلاقات الرأسمالية للريف الروسي يهدف اول ما يهدف الى التوكيد لا بأن الاشتراكية الفلاحية ما تزال ممكنة فحسب ، بل بأنها الوحيدة الممكنة . ان الفلاح هو رجل الغد في نظر الشعبيين ، والحركة الفلاحية هي دحض باتر للماركسية لان هذه الحركة هي حركة اشتراكية أصيلة واشتراكية على نحو مباشر . والحال ان الماركسيين يؤكدون ان العامل هو رجل الغد في روسيا ، ويعارضون الاشتراكية الفلاحية الشعبية باشتراكية عمالية ، او بتعبير أدق بالاشتراكية العمالية . فالطبقة العاملة هي وحدها التي تستطيع ان تنظم نضالا طبقيا متماسكا حتى النهاية ضد

نظام العلاقات البورجوازية ، وهي المؤهلة اكثر من اي طبقة اخرى لحل التناقض بين الرأسمال والعمل . والبروليتاريا في نضالها من اجل الاطاحة بنظام الاستغلال البورجوازي تمثل حقا وبصورة طبيعية سائر الطبقات الكادحة . فهي الممثلة الطبيعية لسائر الطبقات الكادحة لان استغلال الكادحين هو في كل مكان استغلال رأسمالي في ماهيته ، وهذا بالرغم من ان روسيا ما تزال تشكو من مخلفات نظام القنانة والاقطاع . وماهية الاستغلال الرأسمالي هي التي تضفي على العامل صفته كممثل متقدم لجميع الطبقات الكادحة . فالاستغلال ما قبل الرأسمالي او الاستغلال الرأسمالي الضعيف استغلال محدود ، مجزأ ، مبعثر ، في حين أن استغلال البروليتاريا الصناعية استغلال واسع ، شمولي ، مركّز . وفي الحالة الاولى يكون الاستغلال مبطنا بأشكال وعلاقات حقوقية موروثة من العصور الوسطى ، مهمتها أن تحول بين الكادح والايديولوجي المتبني لقضيته وبين الرؤية الصحيحة لماهية النظام ولوسائل الخروج منه . اما في الحالة الثانية فان الاستغلال ، المتطور الى أقصى حد ممكن ، يتجلى بكل نقائه وسفوره وعريه ، وبلا شوائب جزئية مشوشة للرؤية . ان الفلاح ، والمنتج الصغير بشكل أعم ، يظل مفصولاً عن جوهر الاستغلال ومركزه باستثمارته الصغيرة . والارض الصغيرة التي يملكها الفلاح او ادوات العمل التي يملكها الصانع اليدوي تربطهما عمليا بنظام الاستغلال الذي يشكوان منه وتمنعهما من ادراك ماهيته العميقة . وحتى عندما يدركان ان سبب الاضطهاد ليس هذا الفرد او ذاك وانما النظام الاقتصادي بأسره، فان استثمارتهما الصغيرة التي تشدهما الى المحلة التي يقيمون فيها وتعزلهما ضمن عوالم صغيرة متكررة على نسق واحد الى ما لانهاية تقضي عليهما بالتشتت وبعدم وعي تضامنهما الطبقي . وعلى العكس من ذلك وضع العامل في ظل الصناعة الكبيرة . فالعامل لا يستطيع الا يرى ان ما يضطهده هو الرأسمال ، وأن النضال الذي يتوجب عليه ان يخوضه هو نضال ضد الطبقة البورجوازية . انه ليس نضالا ضد أفراد ، ضد هذا المالك العقاري او ذاك ، وانما هو نضال ضد طبقة . والاهم من ذلك ايضا انه نضال طبقة ضد طبقة . ذلك ان العمال لا يستطيعون ان يكتبوا النجاح حتى لمطالبهم الاقتصادية المحضة ما لم ينظموا انفسهم في طبقة . وبالفعل ، ان الرأسمالية تقطع نهائيا جميع الاواصر التي كانت تربط العمال بالمجتمع القديم وبهذه المحلة او تلك وبهذا المستغل او ذاك ، وتركزهم ، وتوحدهم ، وترغمهم على التوحد .

ولهذا كله فان الاشتراكية العمالية لا تعلق آمالها على توقف التطور البورجوازي للمجتمع الروسي وانما على اشتداده وتسارعه ، لان في اشتداده وتسارعه اشتدادا وتسارعا للصراع الطبقي ونقلا لهذا الصراع الى ميدان سافر مكشوف . وهنا على وجه التحديد تكمن الغلطة التي لا تغتفر للاشتراكية الفلاحية المزعومة والمستحيلة . فلقد كان من الممكن لهذه الاشتراكية ان تلعب دورا تقدميا ما دام الصراع الطبقي في المجتمع الروسي محصورا بين الفلاحين

والأوتوقراطية الاقطاعية . أما بعد ان اخذ هذا الصراع الطبقي شكلا ومضمونا اكثر تطورا من خلال الصدام بين البروليتاريا والبورجوازية ، فان الاشتراكية الفلاحية لا يبقي لها من دور غير التشويش على هذا الصراع وإلباسه في الريف أثوابا مزركشة منمقة . فهي عندما تتغنى بفضائل المنتج الصغير والاقتصاد الطبيعي والمشاعة القروية في الوقت الذي قضى فيه التطور الرأسمالي على كل هذه العلاقات بالزوال والفناء ، فانها لا تعود صرخة احتجاج ضد الاضطهاد ، وانما تمسي محاولة يائسة ورجعية للافلات من صلابة الواقع . ولا شك في ان التطور الرأسمالي مفجع ومؤلم ، ولكن الافجع منه والاشد ايلاما منه هو المحاولات الطوبائية والرجعية لعرقلته وإيقافه . وهذا بالتحديد الدور الذي اخذته الاشتراكية الفلاحية على عاتقها .

واذا كانت خطورة نظرية من النظريات تقاس بجمهورها ، فان نظرية الاشتراكية الفلاحية بالغة الخطورة وفادحة الضرر ، على وجه التحديد لانها تتوجه الى الفلاحين ، اي الى تلك الفئة من السكان التي حكمت عليها ظروفها بالخمول والبلادة والاستسلام الدهري للاقدار . واذا كان الفلاح الروسي الفقير فقيرا في وعيه السياسي بالدرجة الاولى ، فان نظرية الاشتراكية الفلاحية لن تسهم الا في المزيد من إفقاره .

وقد تحاول نظرية الاشتراكية الفلاحية الدفاع عن نفسها عن طريق اتهامها «التلامذة» بازدراء الفلاحين وبالافتخار بسيرورة التطور الرأسمالي التي حررت الملايين والملايين من «بلادة الحياة القروية» . ولكن «التلامذة» اذ يتبنون عبارة ماركس هذه فانهم لا يدللون الا على رغبتهم الحارة في وضع حد لتلك البلادة ، أما ازدراؤهم فانهم يخصون به **اصدقاء الشعب** الذين يخلدون البلادة الفلاحية بمحاولتهم البحث عن «طريق آخر» غير الطريق الفعلي للتحرر منها .

وتزعم نظرية الاشتراكية الفلاحية بعد هذا انها تريد انقاذ الفلاحين من الوقوع تحت رحى التطور الرأسمالي ، تريد انقاذ مشاعتهم واستثمارتهم من جشع الرأسماليين ونهمهم . ولكن ما تتجاهله ان استثمارة الفلاح وقطعة ارضه الصغيرة اصبحت هي العلة الرئيسية لشقائه وبؤسه بعد ان دخلت روسيا فعلا في مرحلة التطور الرأسمالي . ذلك ان مرور رحى الرأسمالية على الريف يعني أول ما يعني تراكم الديون والفوائد على قطعة الارض الصغيرة التي تصبح حجرا ثقيلا في عنق الفلاح . ولهذا فان محاولة الشعبيين انقاذ ملكية الفلاحين الصغار ليست انقاذا للطبقة الفلاحية ، وانما هي انقاذ للقيود التي تشد الفلاح الى بؤسه، على حد تعبير كاوتسكي .

ونظرية الاشتراكية الفلاحية تقيم فعلا الصعوبات والعراقيل في وجه تحطيم قيود الفلاح لان كل ما تفعله هو انها تجمّل وتنمق هذه القيود . لقد قال ماركس في **المساهمة في نقد فلسفة الحقوق عند هيغل** عبارة يجدر ب «اصدقاء الشعب» ان يتذكروها : «لقد نزع النقد عن الأغلال الازهار الخيالية التي كانت تجملها ، ولم يكن ذلك لكي تستمر الانسانية في حمل تلك القيود في شكلها العاري من كل

تنميق ومن كل فرح ، وانما لكي تنفض عنها أغلالها وتمد يدها نحو الزهرة الحية» . والواقع ان ما يريده «التلامذة» هو ان يستأصلوا من الريف الروسي الازهار الخيالية التي يجمله بها «اصدقاء الشعب» . وهم لا يفعلون ذلك كيما تبقى الطبقة الفلاحية سادرة في استعبادها واضطهادها وتبليدها ، وانما لكي تصحو على حقيقة امرها ولكي تستطيع البروليتاريا ان تشاهد بلا تزييف الأغلال التي تغل الكادحين في كل مكان من المدن والارياف . ويوم تسقط عن الاستغلال أزهاره الاصطناعية ويظهر على حقيقته عاريا ، فآنذاك فقط يمكن ان يسقط هو نفسه لتنفتح مكانه الزهرة الحية .

وماركس هو الذي قال ايضا ذات مرة ان الحركة الثورية لا تتقدم دوما على طريق تراكم المكتسبات الايجابية ، وانما تتقدم احيانا سلبيا من خلال تحررها من الاوهام الضارة . وهذا القول ينطبق تمام الانطباق على الحركة الثورية الروسية في مواجهتها لمذاهب الشعبيين . فلقد شوشت هذه المذاهب الرؤية الصحيحة الى درجة بات من الضروري معها للحركة الثورية الروسية ان تحدد نفسها اولا من خلال تصفية حساب الشعبيين والانفصال النهائي عنهم . وهذا النشاط ، السلبي في طبيعته ، هو الخطوة الايجابية الاولى التي خطاها الماركسيون الروس ، وعلى رأسهم لينين ، على طريق انشاء الصيغة الثورية المنشودة لروسيا . وعلينا الان ان نقتفي أثر الخطوات التالية .

فرز الشعب طبقيا

من «الشعب» استوحى الشعبيون تسميتهم العامة . وكانت تصفية حسابهم تستوجب بالضرورة تصفية مفهومهم عن الشعب . وبالفعل ، ان المصدر الحقيقي لإلهام الشعبيين لم يكن الشعب الواقعي ، الفعلي ، وانما مفهوم ، تصور معين عن الشعب . ولقد كان الشعبيون يجمعون تحت اسم الشعب طبقات وفئات اجتماعية متنافرة . ولهذا فقد وجدت الماركسية الروسية نفسها في البداية امام مهمة حرجة ، مهمة تحطيم وحدة الشعب المزعومة .

كانت مهمة حرجة لأن «الشعب» هو احد المصطلحات التي اكتسبت نوعا من القداسة منذ ان تصدرت البورجوازية الصاعدة مكانها على مسرح التاريخ . ولم يكن التصدي لمفهوم الشعب بأقل خطورة من التصدي لمفهوم الوطن . ولقد لاقت الماركسية من العنت الشديد ما لاقته لانها ارادت ان تنزع عن أمثال هذه المصطلحات طابعها المثالي ، الكلي القداسة والتبجيل . وكما ان التصدي لمفهوم الوطن قد أورث الماركسية تهمة اللاوطنية (وهي بالطبع تهمة كاذبة) ، كذلك فان التصدي لمفهوم الشعب قد عرضها لتهمة اللاشعبية واحتقار الشعب .

ولكن لم يكن في وسع الماركسية ان تضرب كشحا عن تلك المهمة الحرجة لانها كانت ستكف بكل بساطة عن ان تكون هي الماركسية . ولقد كان على

الماركسية ان تحارب على جبهتين : اولا ضد استغلال البورجوازية لكلمة الشعب، اي ضد محاولة تمويه التناقضات الطبقية داخل الشعب ، وثانيا ضد الماركسيين اليساريين الذين يتصورون بكل بساطة ان كلمة الشعب هي مصطلح بورجوازي محض . ولقد أدت الماركسية الروسية بنجاح هذه المهمة المزدوجة ، اولا عن طريق تحطيم مفهوم الشعبيين عن الشعب ، ذلك المفهوم الذي هو في جوهره مفهوم بورجوازي - ديموقراطي ، وثانيا عن طريق اعادة بناء وحدة الشعب من منظور طبقي ثوري جديد .

والتهمة الرئيسية التي وجهها لينين في هذا الصدد الى الشعبيين ، والى ورثتهم من الاشتراكيين - الثوريين ، هي تهمة نزعة المغامرة الثورية ، اي نزعة الخلط الطبقي التي تضع على مستوى واحد فئات وطبقات اجتماعية متمايزة ، متباينة ، متنافرة ، والتي لا تحدد استراتيجيتها الثورية انطلاقا من مواقع طبقية محددة . فقد كان الشعبيون يدرجون تحت اسم الشعب الانتلجانسيا والطبقة الفلاحية ، وأتبعهما ورثتهم ، الاشتراكيون - الثوريون ، بالبروليتاريا . وانما ضد هذا الثالوث المؤقنم ، الانتلجانسيا والبروليتاريا والطبقة الفلاحية ، قامت الماركسية الروسية بمحاولاتها الاولى لفرز المجتمع الروسي طبقيا .

١ - الانتلجانسيا : ان الانتلجانسيا ليست طبقة بالمعنى المتعارف عليه للطبقة عندما نتحدث عن البروليتاريا او الفلاحين على سبيل المثال . انها في احسن الاحوال فئة اجتماعية ، وذلك بقدر ما تمثل جماعة من الاشخاص تحتل وضعا اجتماعيا في هرم المجتمع . واذا ما نظرنا الى الانتلجانسيا على انها فئة اجتماعية، فلا بد ان نضيف بأنها فئة بورجوازية او بورجوازية صغيرة . اما اذا كان المقصود بالانتلجانسيا المثقفين بشكل عام فانها تكف عن ان تكون فئة اجتماعية محددة ، لان الانتماء الطبقي للمثقفين لا يتحدد بأصولهم الاجتماعية وحدها . فمن المثقفين من يكون انتماؤه الايديولوجي الى البروليتاريا ، او الى الفلاحين ، او الى البورجوازية . ومن هنا فانهم يكونون على التوالي مثقفين ثوريين ، او مثقفين ديموقراطيين او مثقفين ليبيراليين .

٢ - البروليتاريا : انالبروليتاريا هي الطبقة الثورية حقا والى النهاية في المجتمع المعاصر . وهي طبقة ذات مصالح خاصة بها متمايزة عن مصالح سائر الطبقات . ومن هنا فان واجبها الاول هو ان تنظم نفسها في حزب طبقي مستقل . وصحيح ان البروليتاريا الصناعية ما تزال اقلية في المجتمع الروسي، وصحيح انها بحاجة الى التحالف مع طبقات اخرى ، ولكن هذا التحالف يجب ان يكون دوما من خلال التمايز . فالبروليتاريا ، في حلفها الذي تعقده مع هذه الطبقة او تلك في مسيرتها نحو الثورة الاشتراكية ، يجب الا تنسى لحظة واحدة انها الطبقة الوحيدة التي تستطيع ان تمضي في هذه المسيرة الى آخر الشوط ، وان الطبقات الاخرى ستتخلى عنها في اول الشوط او في منتصفه او قبل نهايته . ولهذا ينبغي اولا للبروليتاريا ان تحدد نفسها وأن تحدد ما يميزها عن سائر الطبقات ، وبعد ذلك - بعد ذلك فقط - يمكن لها ان تتحالف مع سائر

الطبقات . التمايز اولا ثم التحالف . و«اولا» تلك الح ضرورة من «ثم» هذه . ومن هنا كان رفض البروليتاريا لتلك الصيغة المبهمة الملتبسة للصراع الطبقي ، صراع «المستغَلين ضد المستغِلين» ، لانها صيغة تموه او تنكر الدور الطليعي للبروليتاريا في هذا الصراع ، صيغة شعبية لاماركسية .

٣ ــ الطبقة الفلاحية : ان نزعة المغامرة الثورية ، نزعة الخلط الطبقي لا تكمن في نفي التمايز الطبقي للبروليتاريا عن الفلاحين فحسب ، بل ايضا في نفي التمايز الطبقي داخل الطبقة الفلاحية بالذات . والواقع انه من التجاوز ان يقال عن الفلاحين انهم يشكلون طبقة . فالفلاحون لا يشكلون طبقة الا في ظل النظام الاقطاعي ، لانه في ظل هذا النظام يمكن لمجموع الفلاحين ان يتوحدوا في عدائهم تجاه سادة الارض . ولكن حتى في هذه الحالة ، فانهم لا يشكلون طبقة على شاكلة الطبقات في المجتمع الرأسمالي ، وانما يشكلون طبقة ــ طائفة شأن سائر الطبقات في المجتمع الاقطاعي . اذ من المعروف ان الفروق الطبقية في ظل المجتمع الاقطاعي تعبر ايضا عن نفسها في انقسام السكان الى طوائف بحيث يكون لكل طبقة وضعها القانوني الخاص في الدولة . اما في ظل المجتمع البورجوازي ، فان المواطنين متساوون جميعا ومن حيث المبدأ قانونيا ، وبالتالي فان الطبقات تكف عن ان تكون طوائف . ومع الانتقال من مجتمعات القرون الوسطى الى المجتمع الحديث ، تفقد «الطبقة الفلاحية» صفتها كطائفة ، ولكنها لا تكتسب مع ذلك الوضع الطبقي المميز للبروليتاريا على سبيل المثال ، اذ انها تفقد مع طائفيتها وحدتها الطبقية . ان «الطبقة الفلاحية» ليست طبقة واحدة في ظل الرأسمالية، ولهذا يتوجب ان توضع بين مزدوجين . فكلما غزت العلاقات الرأسمالية الريف وحلت محل العلاقات الاقطاعية ، كفت الطبقة الفلاحية عن ان تكون واحدة وانقسمت الى بروليتاريا ريفية والى بورجوازية ريفية مع كل ما بينهما من تدرج طبقي .

ونزعة المغامرة الثورية تصبح نزعة خطيرة للغاية فيما يتعلق بمنظور الثورة الاجتماعية في الريف ، لان هذه النزعة لا تأخذ في حسابها تمايز وتناحر المصالح الطبقية لتلك المروحة الاجتماعية الواسعة المتمثلة فيما يسمى ب «الطبقة الفلاحية» الروسية المؤلفة مما يزيد على عشرة ملايين اسرة . ومن الممكن تمييز ثلاث كتل او شرائح اجتماعية رئيسية في الريف الروسي .

أ ــ **الفلاحون الاغنياء (الكولاك)** : وهم يملكون من الارض ما يفيض عن حاجاتهم ، ويستأجرون عمل الغير ويكتنزون المال ، ويبيعون منتجاتهم في السوق . واذا قيس غنى الفلاح الغني بما يملكه من أحصنة ، فان الفلاح الغني يملك اكثر من زوج من الاحصنة . ويبلغ تعداد الفلاحين الاغنياء مليون ونصف مليون أسرة ، وهم يستأجرون عمل ما لا يقل عن مليون أسرة من الفلاحين الفقراء والعمال الزراعيين ، ويملكون سبعة ملايين ونصف مليون حصان ، اي بقدر ما تملكه تسعة ملايين أسرة من الفلاحين المتوسطين والفقراء . واذا ما اخذنا

بعين الاعتبار ان ثروة روسيا من الاحصنة كانت تقدر في أوائل القرن العشرين بخمسة عشر مليون رأس ، فان سدس مجموع الفلاحين كان يملك نصف تلك الثروة الحيوانية (١) . وبحكم هذه الاوضاع المادية الشديدة التمايز ، ونظرا الى ان الفلاحين الاغنياء يعيشون من عمل الغير ويغتنون من بؤس السواد الاعظم من الفلاحين ، يمكن القول ان الفلاحين الاغنياء يقفون في الصراع بين المالكين واللامالكين ، بين البورجوازية والبروليتاريا ، بين أرباب العمل والعمال ، الى جانب المالكين ضد اللامالكين ، الى جانب البورجوازية ضد الطبقة العاملة .

ب ـ **الفلاحون المتوسطون** : وهم الفلاحون الذين يملكون زوجا واحدا من الاحصنة ، ويعيشون من عملهم لا من عمل الغير ، ويبلغ تعدادهم مليوني أسرة من اصل عشرة ملايين ونيف . وهم نادرا ما يستأجرون عمل الغير ، وكثيرا ما يؤجرون قوة عملهم . والفلاح المتوسط يقف دوما عند مفترق الطرق : بين الفلاحين الاغنياء والفلاحين الفقراء ، لا رب عمل ولا أجير ولا سيد ولا مسود ؛ خيوط الاماني الحريرية تشده الى عالم المالكين وحبال الواقع الغليظة تشده الى عالم اللامالكين ، فهو ابدا في حيرة من امره ، وروحه روحان : روح رب عمل وروح بروليتاري . ولهذا فان التردد هو السمة الرئيسية لموقفه في الصراع بين البورجوازية والبروليتاريا . وهو نفسه موضع صراع ، اغنياء يقولون له : انت منا ، رب عمل مثلنا ، مالك وصاحب استثمارة ، والفقراء يقولون له : الاغنياء يريدون دمارك ، وأنت في حقيقة امرك منا ، لانك نصف بروليتاري ، ولن تقي نفسك شرهم الا اذا انضممت الينا ضدهم . والحق ان هذا الصراع حول الفلاح المتوسط هو محور الصراع الطبقي في الريف .

ج ـ **الفلاحون الفقراء** : وتعدادهم ستة ملايين ونصف مليون أسرة ، ثلاثة ملايين لا يملكون اي حصان ، وثلاثة ملايين ونصف مليون لا يملكون سوى حصان واحد . وصفوفهم لا تني تتضخم ؛ فكلما وقعت مجاعة وكلما ساء الموسم ، لحق الدمار بعشرات الآلاف من اصحاب الاستثمارات الصغيرة فيبيعون ما تبقى لديهم ويهاجرون الى المدن او ينضمون الى صفوف البروليتاريا الزراعية . والفلاح الفقير الذي لا يملك حصانا هو الفلاح اللامالك . انه بروليتاري . انه يعيش (والاصح ان يقال انه لا يعيش بل يعتاش) لا من الارض ، لا من الاستثمارة ، بل من العمل المأجور . انه توأم عامل المدن ، وحليفه الطبيعي في النضال ضد المالكين ، ضد الاغنياء ، ضد البورجوازية .

من هذا الفرز الطبقي العريض للقوى الاجتماعية في الريف الروسي يتضح

---

١ ـ اعتمد لينين عدد الاحصنة مقياسا للثروة لان الفلاحين الروس لم يكن لهم آنذاك حق التصرف بالارض . وكمية الارض المملوكة لم تكن فصيحة الدلالة بالنسبة الى مقدار الثروة . وبالمقابل فان امتلاك عدد كبير من الاحصنة كان يعني ان الفلاح غني وانه يبذر كثيرا وان اراضيه واسعة وان لديه احتياطيا من المال .

خطل الشعبيين عندما يقولون اولا ان الطبقة الفلاحية هي طبقة واحدة ، ذات مصالح واحدة وآفاق ثورية واحدة ، وخطلهم ثانيا عندما يزعمون ان القانون الاساسي في الماركسية ، قانون الصراع الطبقي ، لا ينطبق على الريف ، وخطلهم ثالثا عندما يدعون ان الريف الروسي قد بقي بمنجى من شر العلاقات الرأسمالية . اذ ليس هناك من برهان على مرور عجلة الرأسمالية بالريف الروسي أسطع من برهان التمايز الطبقي الذي حدث فيه . وهنا يكمن اساسا الاختلاف العميق بين الشعبيين والماركسيين في تقييم بعض مظاهر الحياة الريفية . ففي حين يزعم الشعبيون ان المير ، اي المشاعة القروية ، هي قوة ، عنصر من عناصر الاشتراكية في الريف ، يرى الماركسيون ان المير لم تكن قوة الا في العصر الذي لم يكن فيه بين الفلاحين عمال زراعيون وفلاحون فقراء وفلاحون اغنياء . اما في العصر الذي اصبح فيه المال هو القوة الرئيسية في الريف ، فقد صار اعضاء المشاعة الواحدة يتقاتلون فيما بينهم كالوحوش المفترسة . وما دامت المشاعة تضم الفلاحين الاغنياء الى جانب الفلاحين الفقراء ، فانها لا تعود رابطة وحدة حقيقية بين الفلاحين ، بل تصبح رابطة وحدة كاذبة لتمويه الانقسام الحقيقي . لا تعود قوة للاشتراكية ، بل تمسي عامل إضعاف لها ، مظهرا رجعيا ، لجاما ضد تطور الصراع الطبقي في الريف .

وهنا يكمن ايضا الفارق الجوهري العميق بين البرنامج الزراعي للماركسية وبين برنامج الشعبيين والاشتراكيين ـ الثوريين وسائر الديموقراطيين البورجوازيين الصغار . فالبرنامج الماركسي يشرط تأييد المطالب الفلاحية بمصالح التطور الحر للصراع الطبقي في الريف ، في حين ان البرنامج الديموقراطي الصغير ، حتى ولو كان ثوريا ، لا يشترط مثل هذا الشرط . وهذا الشرط هو النقطة الاساسية والمركزية في نظرية الماركسية الثورية بصدد المسألة الزراعية. فلقد رحب الشعبيون على سبيل المثال باصلاح ١٨٦١ (مرسوم تحرير الاقنان) ورأوا فيه خطوة معادية للرأسمالية ، تكريسا للاقتصاد «الشعبي» ، ضمانة لتطور غير رأسمالي في روسيا . اما الماركسيون فقد رأوا دوما في اصلاح ١٨٦١ هدية من الاوتوقراطية الى البورجوازية ، اشارة الى بدء مسيرة روسيا البورجوازية ودخولها في مرحلة الانتاج البضاعي ، الرأسمالي . وفي حين ما يزال البرنامج الزراعي للديموقراطية البورجوازية يطالب بتصفية آثار القنانة والاقطاع حتى يمكن للريف ان ينتقل دفعة واحدة الى الاشتراكية ، يطرح برنامج الماركسيين الزراعي المطالب نفسها ، ولكن من منظور آخر ، منظور حرية تطور الصراع الطبقي في الريف . فالماركسية لا تعلق آمالها على وقف التطور البرجوازي وانما على تسارعه . وتحرير الفلاحين من بقايا علاقات القنانة والاقطاع يعني في نظرها ان تطور الزراعة هو ، كتطور الصناعة، تطور رأسمالي ، وأن ذلك التحرير بالتالي ليس وأدا لتطور الصراع الطبقي في الريف ، بل هو على العكس تطوير له وإغناء وتعقيد .

وبكلمة واحدة ، ان البرنامج الزراعي للماركسيين قد يلتقي مع البرامج الاصلاحية او الثورية للديموقراطية الصغيرة في المطالبة بتصفية مخلفات اقتصاد القنانة والاقطاع ، ولكنه لا يلتقي بها الا ليفترق عنها في المنظورات الطبقية لهذه التصفية . فما يتطلع اليه الماركسيون ليس تمويه التناقضات الطبقية في الريف او تخفيفها ، وانما على العكس فضحها وتعميقها وتفجيرها . لانه عن طريق تطور الصراع الطبقي في الريف يمكن لهذا الاخير ان يصبح رديفا للثورة الاشتراكية في المدن ، ولانه عن طريق هذا التطور يمكن للريف ان يفرز من خلال سديمية «الطبقة الفلاحية» العمال الزراعيين والفلاحين الفقراء الذين لا يعود البرنامج الديموقراطي كافيا لتلبية مطالبهم والذين لا يعود لهم من امل في الخلاص ، شأنهم في ذلك شأن عمال المدن ، الا في الثورة الاشتراكية .

تحالف العمال والفلاحين

كان لا بد اذن ، في مرحلة اولى ، من تحطيم مفهوم «الشعب» وتحليله الى عناصره ، الطبقات . فعن طريق مثل هذا التحليل كان يمكن ان يبرز الدور الطليعي والقيادي للبروليتاريا في الثورة الاشتراكية . ولكن كان من الواضح ايضا من البداية للينين ان الماركسية لا تحطم مفهوم «الشعب» الا لتعيد بناءه ، وأنها لا تقوم بعملية الفرز الطبقي كيما تتقوقع الطبقة الطليعية على نفسها وتحد نشاطها ضمن اطار ضيق ، بل على العكس كي يتاح لهذه الطبقة الطليعية ، بعد تحررها من التباس موقف الطبقات الاخرى وترددها وعدم صلابتها ، ان تقاتل بمزيد من التصميم وبمزيد من الحماسة من اجل قضية الشعب بأسره ، وعلى رأس الشعب بأسره .

ولكن المشكلة التي واجهت لينين كما ستواجه من بعده جميع المناضلين الماركسيين في البلدان الفلاحية البنية ، والتي تجلت فيها عبقريته كمطور للماركسية ، هي ان الطبقة العاملة الروسية كانت أقلية ، وأقلية بالغة الضآلة عدديا ، في خضم شعب الفلاحين الروس . فقد كان عدد العمال الصناعيين مليونين مقابل ثمانين مليون فلاح . وكانت كل الاجيال السابقة والمعاصرة له تتصور انه ليس لهذين المليونين من دور غير ان يكونوا جزيرة معزولة وسط ذلك الخضم الفلاحي . اما هو فقد استطاع ان يعكس الآية : فالجزيرة هي من البحر وإليه ، منه انبجست ، ومن تراكم رماله تكونت ، وليس قدرها ان تنعزل عنه او ان يحاصرها بأمواجه ، بل على العكس ان تستمد من حصاره لها قوة ومنعة، فهي ستكون مخبأ كنوزه وحصنه المنيع الذي لا سبيل الى اقتحامه ، على وجه التحديد لانها في حماية أمواجه . ان قدرها كجزيرة صخرية ان تشاد عليها المنارة ، ولكن شعلة هذه المنارة لن تنطفىء لان بينها وبين الاعداء أمواج الخضم المتلاطمة .

وبالفعل ، ان ما يميز البروليتاريا الروسية عن أختها البروليتاريا الاوروبية

الغربية هو أصلها الفلاحي . ففي حين ان هذه الاخيرة تكونت عن طريق تحول الصناع اليدويين الى عمال ضناعيين ، لم تعرف روسيا سيرورة كهذه ، وانما تكوّن جل جيشها الصناعي من احتياطي الريف . وهذا الطابع التكويني للبروليتاريا الروسية كان له تأثيره البالغ على مجرى الاحداث اللاحقة . فما استطاعته الرجعية الاوروبية في أواسط القرن التاسع عشر لم تستطعه قط الاوتوقراطية الروسية في أوائل القرن العشرين. فالكثير من الثورات الديموقراطية (١٨٤٨) والعمالية (كومونة باريس ١٨٧١) في اوروبا أمكن خنقه بفضل نوع من حصار الريف للمدن . وقد كان تأليب الفلاحين على العمال والديموقراطيين سلاح الاوتوقراطيات الاوروبية المأثور . ومن العوامل التي جعلت استخدام مثل هذا السلاح ممكنا اختلاف الاصول الاجتماعية لكل من البروليتاريا والطبقة الفلاحية . اما في روسيا فيمكن القول بأن العكس هو الصحيح . فقد كان الريف سندا للحركة العمالية في المدن لا عدوا . وبالرغم من تخلف الموجيك سياسيا ، فانه كان أقل انفصالا عن عامل المدن من نسيبه الفلاح الاوروبي . فعامل المدينة اليوم ان هو الا فلاح الامس ، وأسرته ما تزال تقيم في كثير من الاحيان في الريف . وقد كان هناك وجود ايضا لما يمكن ان نسميه بالعامل ــ الفلاح ، اي العامل الذي هو دوما على استعداد لان يعود الى مسقط رأسه ليعمل في الارض كلما ضاقت به سبل العيش في المدينة او كلما تعرض الانتاج الصناعي لأزمة . وكل هذه العوامل سهلت الى حد كبير ولادة وتطبيق الشعار اللينيني الاول : تحالف العمال والفلاحين . وقد كان هذا التحالف هو رد لينين على الشرط الموضوعي للطبقة العاملة الروسية من حيث كونها أقلية .

وهكذا وجدنا لينين يعلن منذ عام ١٨٩٤ ان تأييد البروليتاريا الريفية للطبقة العاملة هو الشرط الذي لا غنى عنه لانتصار هذه الاخيرة . وبنوع من النبوءة العبقرية ايضا وجدناه يعلن منذ عام ١٩٠١ انه في اليوم الذي يتوصل فيه العمال والفلاحون الى تأسيس حلف بينهم فان ساعة الثورة ستقترب بسرعة تذهل الماركسيين انفسهم .

ولعل من الامور التي لها دلالتها ان يكون لينين قد أكد هذه الحقيقة في معرض مناظرته مع الشعبيين ، اي على وجه التحديد مع اولئك الذين جعلوا من انفسهم سدنة الوثنية الفلاحية . وهذه المفارقة يجب الا تفاجئنا . فالماركسية كما سبق لنا ان قلنا لم تتجاوز الشعبية الا بتمثلها لخير عناصرها وأطيبها . ولئن كان انتصار الماركسية على الشعبية قد عنى حلول البروليتاريا محل الطبقة الفلاحية كطبقة ثورية طليعية ، فان هذا الانتصار النظري ما كان يمكن ان يتحول الى حقيقة واقعة الا اذا تحولت الماركسية نفسها ، اي الا اذا تحررت من طابعها الغربي المحض وتمثلت كل التقاليد الثورية الروسية السابقة . وبكلمة واحدة ، الا اذا اصبحت ماركسية **روسية** . ولم يكن الشعار الذي شهره لينين عن ضرورة تحالف العمال والفلاحين الا ايذانا بأن سيرورة «ترويس» الماركسية قد

بدأت . ولم يكن لهذا الترويس غير معنى واحد : مساهمة الطبقة الطليعية بكل طاقاتها الممكنة في حل المسألة الزراعية .

ولينين نفسه يعترف في أوائل عام ١٩٠٢ بأن الماركسيين سيحذون حذو الاشتراكيين الاوروبيين في الكثير من المسائل المتعلقة بحركة العمال الصناعيين، وبالمقابل فانهم قد يضيفون شيئا جديدا الى تراث الماركسية في المضمار الزراعي. وليست المسألة هنا مسألة ارادة ، وانما هي مسألة واقع موضوعي ، واقع الفلاح الروسي بالمقارنة مع واقع الفلاح الاوروبي . فالمسألة الفلاحية في روسيا تختلف اختلافا مرموقا عنها في الغرب . فالفلاح في بلدان الغرب هو فلاح المجتمع الرأسمالي ، البورجوازي ، اما في روسيا فهو قبل كل شيء فلاح يشكو من المؤسسات والعلاقات ما قبل الرأسمالية ، يشكو من مخلفات القنانة . وفي الغرب لعب الفلاح ـ المالك دوره الثوري فيالحركة الديموقراطية ، وقدمت الطبقة الفلاحية مكافحيها ضد نظام القنانة والحكم المطلق . اما في روسيا فان الفلاح ـ المالك لم يلعب هذا الدور بعد ، وهو ما يزال يقف عند عشية الحركة الديموقراطية التي لا بد ان يمحضها تأييده . وفي حين ان الفلاح الاوروبي لم يعد له من هم غير ان يدافع عن امتيازاته بالنسبة الى البروليتاريا ، ينظر الفلاح الروسي الى الامام اكثر مما ينظر الى الخلف (١) . ولئن كان من الطبيعي ، والحالة هذه ، أن تنفصل بروليتاريا الغرب الصناعية عن الريف وأن تكرس انفصالها هذا في مؤسسات حقوقية خاصة ، فان من واجب البروليتاريا الصناعية في روسيا ان تبقى على صلة وثيقة بالطبقة الفلاحية لا بحكم الطبيعة المشتركة لتكوينهما فحسب ، بل ايضا بحكم الدور الثوري المشترك الذي ما يزال عليهما ان تلعباه .

اذن فسياسة الحزب العمالي ازاء الطبقة الفلاحية لا يمكن ان تكون بحال من الاحوال سياسة تفرج ولامبالاة ، وانما ينبغي أن تكون سياسة تأييد حازم بقدر ما تكون الطبقة الفلاحية قادرة على خوض نضال ثوري ضد بقايا القنانة بوجه عام وضد الحكم المطلق بوجه خاص .

ان المسألة الزراعية هي محور الثورة الروسية ، وهي التي تعطي هذه الثورة طابعها القومي الشامل . ان عشرة ملايين أسرة فلاحية تملك نصف الاراضي الزراعية في روسيا الاوروبية ويملك نصفها الآخر ثلاثون الفا من نبلاء الارض . وأفراد الاسرة الامبراطورية وحدهم يملكون ثمانية ملايين هكتار ، اي عشر الاراضي الزراعية كلها . وبديهي ان الحركة التي تهدف الى وضع حد لسيطرة طبقة نبلاء الارض لا بد ان تلقى من الطبقة العاملة لا العطف والتأييد فحسب ،

---

١ ـ قد يكون من المفيد ان نلاحظ ان تقييم لينين للحركات القومية في اوروبا وفي آسيا والمستعمرات قد اعتمد نفس المقياس المستخدم في تقييم الحركة الفلاحية . ومن الممكن الرجوع الى تفصيل ذلك في كتابنا «الماركسية والمسألة القومية» .

بل ايضا التضامن المطلق لان الطبقة العاملة لا تستطيع ان تتفرغ لرسالتها التاريخية في رفع لواء الثورة الاشتراكية الا من خلال انجازها المهمة الديموقراطية .

واذا كان تأييد الفلاحين هو شرط انتصار الطبقة العاملة ، فان انتصار حرب الفلاحين مرهون هو الآخر بتأييد الطبقة العاملة . لقد شهدت روسيا في ١٩٠٢ على سبيل المثال سلسلة من ثورات الفلاحين وتمردهم . ولكن هذه الثورات قمعت وسحقت لا لانه لم يعد لها الاعداد الكافي فحسب ، ولا بسبب عفويتها وعدم نضجها سياسيا فحسب ، بل ايضا لان بروليتاريا الريف لم تكن قد تحالفت بعد مع بروليتاريا المدن .

ولكن السؤال الذي يطرح نفسه هنا هو : ما حدود هذا التحالف ؟

ان الاجابة على هذا السؤال تكتسب اهمية استثنائية في هذا العصر ، نظرا الى ان العديد من الايديولوجيين المتمركسين والشعبيين المحدثين يميلون اليوم الى التغني بفضائل لينين ، صديق الفلاحين ، تماما كما كان الشعبيون القدامى يتهمونه بنزعة العداء للفلاحين . والواقع ان موقف لينين من الفلاحين أبعد ما يكون عن الصورة السوداء التي رسمها له الشعبيون القدامى وعن الصورة الوردية التي يرسمها له اليوم الشعبيون المحدثون. فضد الصورة الاولى أكد لينين ضرورة تحالف العمال والفلاحين ، وضد الصورة الثانية أكد لينين ان هذا التحالف لا يمكن ان يكون في صالح القضية الاشتراكية الا اذا كان بقيادة البروليتاريا . وأولئك الذين يتغنون بشعار تحالف العمال والفلاحين اللينيني من غير ان يشيروا الى ضرورة القيادة البروليتارية لهذا التحالف بعيدون في الواقع عن روح اللينينية بعد اولئك الذين اتهموا لينين بكراهية الفلاحين .

ان القيادة البروليتارية لتحالف العمال والفلاحين هي التي تحدد طبيعة هذا التحالف وترسم حدوده : فهذا التحالف يجب ان يقوم اولا على التمايز الطبقي للطبقة العاملة ، وعلى انفصالها التنظيمي ثانيا .

على التمايز الطبقي اولا ، لان نزعة الخلط الطبقي ليست نزعة ماركسية ، ولان ثمة هوة فاصلة في الواقع بين العمال والفلاحين كطبقتين متمايزتين .

وعلى الانفصال التنظيمي ثانيا ، لان نواة الحزب العمالي الماركسي الثوري لا يمكن ان تكون غير بروليتاريا المدن ، البروليتاريا الصناعية ، التي هي الطبقة الطليعية الوحيدة التي يمكن ان تسير على طريق الاشتراكية الى نهاية الشوط .

ان الديموقراطية هي الافق الثوري للفلاحين كطبقة مقابل الاشتراكية كأفق ثوري للبروليتاريا .

والطبقة الفلاحية لا يمكن ان تفرز اكثر من حزب بورجوازي ديموقراطي ، في حين ان الحزب العمالي هو حزب اشتراكي .

وتحالف العمال والفلاحين ضروري على وجه التحديد لان الديموقراطية هي الطريق الاوحد للاشتراكية . ولكن التمايز الطبقي للبروليتاريا وانفصالها

التنظيمي لا يقلان ضرورة لان الاشتراكية هي على وجه التحديد تجاوز الديموقراطية .

ومما يزيد في ضرورة هذا التمايز وهذا الانفصال ان البروليتاريا الروسية ما تزال قريبة الصلة بعالم الماضي ولم تتحرر بعد نهائيا من آثاره . ولعلنا نضع أيدينا هنا على قمة التفكير الديالكتيكي لدى لينين . فالاصول الاجتماعية الواحدة للعمال والفلاحين الروس وأواصر القربى بينهم هي التي تفرض ضرورة تمايزهم الطبقي والتنظيمي في نفس الوقت الذي تفرض فيه ضرورة تحالفهم السياسي والاستراتيجي . واذا لم يقم هذا التحالف على اساس من قيادة بروليتارية وعلى اساس من هيمنة بروليتارية، فان الاحتمالات كبيرة في ان تجد البروليتاريا نفسها مقودة الى تبني وجهات نظر الفلاحين التي هي وجهات نظر ديموقراطية وبورجوازية صغيرة بدلا من ان تقود الفلاحين الى تبني وجهة نظرها الاشتراكية.

أن روسيا هي ، في تلك الحقبة ، أضخم بلد بورجوازي صغير في العالم . وهذه الحقيقة تفرض ضرورة التمايز البروليتاري عن البورجوازية الصغيرة بقدر ما تفرض ضرورة التحالف . والفلاحون هم اولا وأخيرا بورجوازيون صغار مهما كانوا ثوريين في ديموقراطيتهم .

والنظرية الشعبية التي تنكر وجود هوة بين العمال والفلاحين لا تقل خطرا عن النزعة الاورثوذكسية المتمركسة التي تزعم ان هذه الهوة مطلقة وغير قابلة للردم . ان النظرية الاولى خطرة لانها تخلط على نحو عشوائي بين المهام الديموقراطية والاشتراكية ، والنزعة الثانية تضارعها خطرا لانها تفصل على نحو مصطنع بين الديموقراطية والاشتراكية .

النظرية الشعبية تعتبر ان الفلاحين هم الاساس الاجتماعي للاشتراكية ، والنزعة الاورثوذكسية الجامدة ترى ان الفلاحين هم الاساس الاجتماعي للاوتوقراطية ونظام الحكم المطلق، وضد المدرستين معا تؤكد الماركسية ـ اللينينية ان الفلاحين هم الاساس الطبقي للديموقراطية ، وان التحالف معهم ضروري ضرورة الديموقراطية للاشتراكية ، وأن التمايز عنهم ضروري ايضا ضرورة تجاوز الاشتراكية للديموقراطية .

ان التمايز الطبقي والتنظيمي عن الفلاحين يعني ان الطبقة الفلاحية لا يمكن اعتبارها عامل الحركة الثورية ، في حين ان شعار التحالف معهم يعني ان العناصر الثورية وفيرة بين صفوفهم . وليس من المعقول تناسي هذه العناصر وتجاهلها ، ولكن ليس من المعقول ايضا المبالغة في قوتها . فالجهل السياسي سمة شبه دائمة الفلاحين ، وهم دائما ما يخلطون بين الفتنة وبين الثورة ، وتبعثرهم ينمي فيهم الروح الاقليمية والخصوصية ويقيم عقبات كأداء في وجه تنظيمهم ضمن اطار حزب طبقي خاص بهم ، حزب فلاحي . والطبقة العاملة لا تعارض بناء مثل هذا الفلاحي ، بل هي على العكس تتمناه ، ولكن من غير ان تنسى لحظة واحدة ان هذا الحزب لن يكون الا حزبا ديموقراطيا لا اكثر ، وبالتالي حزبا بورجوازيا صغيرا . والموقف الماركسي من البورجوازية الصغيرة لا يمكن الا ان يكون

مزدوجا : تأييدها بقدر ما تتصرف كطبقة ثورية ديموقراطية ، والارتياب بها والانفصال عنها بقدر ما تتصرف كطبقة رجعية همها الدفاع عن امتيازاتها ضد البروليتاريا بالذات .

وخلاصة الكلام ان تحالف العمال والفلاحين يعني قيام جبهة مشتركة بينهم ، ولكن الوحدة الجبهوية لا تقتضي الوحدة الحزبية والتنظيمية . ولا يجوز بحال من الاحوال تناسي التناحرات الطبقية من خلال وحدة الجبهة السياسية . وهذا لا يعني بالطبع ان الحزب البروليتاري لا يستطيع ان يقبل في صفوفه عناصر بورجوازية صغيرة شتى : فلاحين ومثقفين وحرفيين وصناع يدويين وحتى بغايا ، ولكن بشرط تبلتر هذه العناصر وتبنيها الكامل لايديولوجيا الطبقة العاملة، وكذلك بشرط بقاء الطبقة العاملة الصناعية نواة الحزب المركزية .

الثورة الاشتراكية اذن ثورة مدن حتى في قطر فلاحي كبير مثل روسيا . ولينين واضح في ذلك ، صريح :

«ان عملنا ، قبل كل شيء وفوق كل شيء موجه نحو عمال المصانع ، عمال المدن . ومن واجب الاشتراكية ــ الديموقراطية الروسية الا تشتت قواها ، اذ عليها ان تركز جهودها على النشاط في أوساط البروليتاريا الصناعية ، الأقدر على تمثل الافكار الاشتراكية ــ الديموقراطية ، الاكثر تطورا من وجهة النظر الفكرية والسياسية ، والاهم من حيث العدد والتركز في مراكز القطر السياسية الكبرى . ولهذا فان انشاء تنظيم ثوري متين بين صفوف عمال المصانع ، عمال المدن ، هو أولى مهمات الاشتراكية ــ الديموقراطية وأعجلها ... ولكن في الوقت الذي نعترف فيه بضرورة تركيز جهودنا على عمال المصانع وندين تشتت قوانا ، لا نزعم البتة ان على الاشتراكية ــ الديموقراطية الروسية ان تهمل سائر فئات البروليتاريا والطبقة العاملة الروسيتين . كلا ، لا وجود لشيء من هذا القبيل . فعامل المصانع الروسي مضطر على الدوام بحكم شروط وجوده الى عقد أوثق الصلات مع الصناع اليدويين ، مع البروليتاريا الصناعية هذه المنتشرة خارج المعامل في المدن والقرى ، والرازحة تحت نير شروط أدهى وأمر . وعامل المصانع الروسي على احتكاك مباشر ايضا بالسكان الريفيين (فغالبا ما تقيم أسرته في الريف) ، وهو لا يستطيع بالتالي الا يتقرب ايضا من البروليتاريا الريفية ، من ملايين العمال الزراعيين والمياومين المحترفين ، وكذلك من اولئك الفلاحين المفلسين بقطع ارضهم البائسة والمستعبَدين من قبل شتى انواع السخرة بهدف «كسب العيش» كيفما اتفق ، اي المستعبَدين هنا ايضا من قبل عمل مأجور . ان الاشتراكيين ــ الديموقراطيين الروس يرون ان من الخطأ **توجيه** جهودهم نحو الصناع اليدويين والعمال الزراعيين ، ولكن ليس في نيتهم البتة ان يهملوا هذا الوسط ، ولن يألوا على انفسهم جهدا في تنوير العمال الطليعيين حول المسائل المتعلقة بحياة الصناع اليدويين والأجراء الزراعيين ، حتى يعمل هؤلاء العمال ، عند احتكاكهم بأكثر شرائح البروليتاريا تخلفا ، على تعريف افكار

الصراع الطبقي والاشتراكية ، والمهام السياسية للديموقراطية الروسية بوجه عام ، وللبروليتاريا الروسية بوجه خاص . وليس من العملي ارسال المحرضين الى الصناع اليدويين والعمال الزراعيين ، في حين ان عملا كثيرا ما يزال ينتظرنا في اوساط عمال المصانع ، عمال المدن . ولكن في عدد لا حصر له من الحالات يدخل العامل الاشتراكي في احتكاك ، بحكم قوة الاشياء ، مع ذلك الوسط . وعليه ان يعرف كيف ينتهز هذه المناسبات وأن يفهم ما هي المهام العامة للاشتراكية ـ الديموقراطية في روسيا . وعلى هذا ، فانهم على خطأ فادح اولئك الذين يتهمون الاشتراكية ـ الديمقراطية الروسية بضيق الافق وبإهمال الجمهرة الكبرى من السكان الكادحين لتحصر اهتمامها بعمال المصانع وحدهم» (١) .

ثورة بورجوازية بدون البورجوازية

كان العدو الرئيسي الذي تواجهه الثورة والطبقة العاملة الروسيتان يتمثل في الحكومة الاوتوقراطية المطلقة المستندة الى قوة كبار الملاك العقاريين ونبلاء الارض . وكان من الواضح لجميع الماركسيين الروس ان ثورة سياسية تطيح بتلك الحكومة هي الشرط الاول والمسبق للثورة الاشتراكية . كانت الثورة السياسية ضرورية اولا لتصفية بقايا المؤسسات الاقطاعية ونصف الاقطاعية الموروثة عن القرون الوسطى والواقفة عقبة في وجه تطور الفكر السياسي في اوساط الشعب الروسي ، وثانيا لتكنيس العقبات والعراقيل من طريق التطور الرأسمالي والبورجوازي لروسيا ، ذلك التطور الذي يظل الضمانة الاولى لتطور البروليتاريا ونموها واشتداد ساعدها .

والحرية السياسية التي رفع لواءها الماركسيون الروس كانت تخدم في الواقع ، اول ما تخدم ، مصالح البورجوازية . ولم يكن الماركسيون الروس يجهلون هذه الحقيقة . ولقد أعلن لينين منذ عام ١٩٠١ ان «الحرية السياسية ستفيد قبل كل شيء البورجوازية» . ومن هنا فقد كان اعلانه التالي بأن الثورة في روسيا ستكون ثورة بورجوازية ، وعلى وجه التحديد ثورة بورجوازية ـ ديموقراطية . بورجوازية لان مطالبها السياسية مقصورة على الحرية ، وديموقراطية لانها لا بد ان تكون موجهة ضد بقايا الاقطاع والقنانة في الريف باعتبار ان هذه العلاقات هي السند الاجتماعي الاول للاوتوقراطية .

ولم تكن البروليتاريا الروسية بأقل حاجة الى الحرية السياسية من البورجوازية الروسية . وليس ذلك لان الحرية السياسية ستخفف وطأة البؤس عن العمال الروس وستحسن وضعهم الاقتصادي ، وانما لانها ستتيح لهم شروطا

---

١ ـ لينين : «مهام الاشتراكيين ـ الديموقراطيين الروس» ـ المؤلفات الكاملة ـ المجلد ٢ ، ص ٣٣٦ ـ ٣٣٧ .

جديدة وأفضل للنضال ضد البورجوازية بالذات . كانت البورجوازية الروسية بحاجة الى الحرية السياسية حتى تكرس نفسها طبقة سلطوية ، اما العمال فكانوا بحاجة اليها ليعمقوا النضال في سبيل الاشتراكية ؛ كانوا بحاجة اليها ليأخذ صراع الرأسمال والعمل طابعا مكشوفا وليتحرر هذا الصراع من كل الشوائب التي قد تموهه وتحجبه .

ان البورجوازية تريد الحرية السياسية لانها تريد ، ومصلحتها تقتضي ، ان تمارس تأثيرها على شؤون الدولة . وما دامت السلطة في روسيا سلطة مطلقة ، اي سلطة تتفرد بها الاوتوقراطية دون سائر الطبقات ، فان التناقضات ستتفاقم بين الادارة الاوتوقراطية البيروقراطية وبين مصالح الطبقة البورجوازية المالكة لكن غير الحاكمة . وكلما تطورت الرأسمالية واشتد ساعد البورجوازية ، ازداد نهمها الى السلطة ، وراحت تؤكد اكثر من اي وقت مضى القانون التاريخي القائل بأن الطبقة المالكة يجب ان تكون هي ايضا الحاكمة . ومن هنا فان من الممكن للبورجوازية ، وعلى الاقل بعض شرائحها المتقدمة ، ان تلعب دورا ثوريا معينا في النضال ضد الاوتوقراطية .

ولكن اذا كانت الثورة السياسية التي تنتظر روسيا هي ثورة بورجوازية ، فهذا ليس معناه ان البورجوازية هي المنتفعة الوحيدة بها . فمثل هذه الثورة لا بد ان تكون مفيدة ايضا للبروليتاريا ، لان النفوذ المباشر للبورجوازية على السلطة وعلى شؤون الدولة هو أنسب بما لا يقاس في نظر العمال وبالنسبة الى منظور الثورة الاشتراكية من النفوذ غير المباشر الذي تمارسه تلك البورجوازية على السلطة بواسطة العصابة البيروقراطية الاوتوقراطية . ان التأثير الصريح المكشوف للبورجوازية على السياسة أفضل بكثير بالنسبة الى العمال من التأثير المبطن المموه عن طريق حكومة مطلقة تزعم انها فوق جميع الطبقات ومفوضة ب «الحق الالهي» . ان ما يحتاجه العمال هو الصراع المكشوف بينهم وبين طبقة الرأسماليين حتى يمكن لكل الطبقة العاملة ان ترى عدوها الرئيسي ، وحتى لا تبقى مناورات البورجوازية وأحابيلها متوارية عن الانظار في صالونات النبلاء والوزراء ، وحتى تتكشف على حقيقتها للجميع . وبكلمة واحدة ، ان من صالح البروليتاريا هي ايضا كطبقة قائدة للثورة الاشتراكية ان تتوحد هوية الطبقة المالكة والطبقة الحاكمة وان يكرس المالكون انفسهم حكاما . ثم ان الطبقة العاملة بحاجة ، علاوة على ذلك ، الى الحرية السياسية حتى تتمكن من تنظيم نفسها وتنظيم حزبها الطبقي المستقل الذي هو اداة الثورة الاشتراكية ، وحتى تتمكن ايضا من تطوير الوعي السياسي للجماهير وإنضاجه بهدف تلك الثورة .

ان الحرية السياسية البورجوازية هي الطريق الى الحرية الحقيقية الاشتراكية . وليس للاشتراكية الا طريق واحد هو طريق الديموقراطية والجمهورية الديموقراطية . وهذه حقيقة لم يدركها قط الشعبيون الذين كانوا يعتقدون ان الثورة الاشتراكية يمكن ان تقوم على نحو مباشر بدون وساطة

الثورة السياسية ، ذلك ان رفض الشعبيين للتقدم البورجوازي لم يكن يعني في التحليل الاخير غير رفض تطور الحرية البورجوازية . ومن هذه الزاوية أكد لينين ضد الشعبيين ان الطريق الى الثورة الاشتراكية لا يمكن ان يختصر لان هـــذا الطريق لا يمكن ان يكون غير طريق الديموقراطية البورجوازية .

ولكن اذا كانت الثورة التي تختمر في روسيا ثورة بورجوازية ، فهل هذا معناه ان البورجوازية هي قائدة تلك الثورة ؟

الحق ان طرح هذا السؤال يضعنا وجها لوجه امام جوهر المذهب اللينيني : البلشفية . والحق ايضا ان لينين يعود عند هذه النقطة المحددة الى الالتقـــاء بالشعبيين بعد انفصاله عنهم . والحق اخيرا ان التطوير اللينيني والروســـي للماركسية يبلغ هنا نقطة الأوج .

بديهي ان لينين في مطلع حياته السياسية لم يكن يملك اجابة واضحة على ذلك السؤال . ولقد رأيناه يؤكد ان الشرائح المتقدمة من البورجوازية يمكن ان تلعب دورا ثوريا ضد الاوتوقراطية ، وأن البروليتاريا الروسية ستمحـــض البورجوازية تأييدها بقدر ما تلعب ذلك الدور . ولكن لينين في مطلع حياتـــه السياسية ايضا كان يؤكد ان «الرأسمال ، الذي هو مؤسسة ديموقراطية خالصة في طبيعته بالذات ، يميل ميلا شديدا في روسيا الـــى التخلي عن مبدئـــه الديموقراطي والى التحالف مع الرجعيين لقمع العمال ولعرقلة ولادة الحركـــة العاملة بصورة أنجع» (١) .

ولا مفر لنا هنا ان نتوقف قليلا عند طبيعة الرأسمالية الروسية وعلاقتهـــا بالحركة العاملة لندرك ماهية الاسباب التي جعلت الرأسمال الروسي يميل الى معاداة الديموقراطية بالرغم من انه يفترض فيه انه ديموقراطي بحكم طبيعته .

لقد اكتسب الرأسمال سمعته الديموقراطية من خلال الدور التاريخي الذي قام به في اوروبا الغربية عندما دك أسس المجتمع الاقطاعي وقاد الجماهـــير العريضة في المعركة المظفرة ضد انظمة الحكم المطلق . ولكن الرأسمال الروسي لم يتطور على نسق تطور الرأسمال الاوروبي . فلقد بدأ هذا الاخير من بدايات ديموقراطية وليبيرالية لينتهي الى مرحلة احتكارية وأمبريالية . وتاريخ تحوله هذا هو تاريخ تحوله السياسي من رأسمال ديموقراطـــي الى رأسمال مناوىء الديموقراطية . والحال ان الرأسمال الروسي ولد مـــن الاساس احتكاريـــا وامبرياليا . والصناعة الروسية الرأسمالية لم تكن نتيجة لتطور الصناعة اليدوية والورش الحرفية ، وانما كانت نوعا من الانتقال المباغت للصناعة الاوروبيـــة ، التي كانت قد ادركت مرحلتها الاحتكارية ، الى قلب روسيا التي كانت ما تزال ترزح تحت وطأة القنانة والاقطاع . والرأسمالية الاوروبية لم تعط الرأســـمال الروسي طابعه الاحتكاري المهيمن فحسب ، بل كانت لها ايضا اليد الطولى في

---

١ ـ لينين : «من هم اصدقاء الشعب» ـ المؤلفات الكاملة ـ المجلد ١ ـ ص ٣١٦ .

تكوينه ، اذ كانت المشاريع الصناعية الرئيسية في روسيا تمول من قبل الرأسمال المصرفي الاوروبي ، ولاسيما الانكليزي والفرنسي. وقد قدرت مساهمة الرأسمال الاجنبي ب ٤٠ بالمئة من مجموع الرساميل الموظفة في روسيا . وكانت هـــذه النسبة اكبر ايضا في الفروع الصناعية القيادية .

ولقد كانت البنية الاحتكارية للصناعة الرأسمالية الروسية تتناقض تناقضا صارخا مع مجمل البنية الاقتصادية ـ الاجتماعية لروسيا المتخلفة . ففي حين ان مستوى الزراعة كان في القرن العشرين كما كان في القرن السابع عشر ، كانت الصناعة الحديثة السن في مستوى البلدان الرأسماليـــة الاكثر تقدما . ويكفي ان نذكر ان التركز ، الذي هو احد معايير الانتاجية ، كان اكثر اشتطاطا في روسيا منه في اكثر البلدان الصناعية عراقة . ففي العقد الثاني من القرن العشرين كانت المشاريع الصغيرة التي يعمل فيها أقل من مئـــة عامل تمثـــل ٣٥ بالمئة من مجموع اليد العاملة الصناعية في الولايات المتحدة ، في حين ان هذه النسبة لم تكن تتجاوز ١٧،٨ بالمئة في روسيا . وفي حين ان المشاريـــع الكبيرة التي يعمل فيها اكثر من الف عامل كانت تمثل ١٧،٨ بالمئة من مجموع اليد العاملة في الولايات المتحدة ، كانت هذه النسبة ٤١،٤ بالمئة في روسيا !

وتلك المساهمة الكبيرة للرأسمال الاجنبي في الصناعة الروسية وهذه الدرجة العالية من التركز حددتا الطابع الاجتماعي للبورجوازية الروسية وسيماءهـــا السياسية . فقد كانت هذه البورجوازية مفصولة بسور صيني عن الجماهـــير الشعبية ، ولم يكن بينها وبين سائر طبقات الشعب من تسلسل اجتماعي متدرج. ومن هنا كان ميلها اللاديموقراطي ومناخها اللاشعبي .

أضف الى ذلك ان الدرجة العالية من التركز الصناعي كانت عامل قـــوة للبروليتاريا الروسية بالرغم من ضعفها العددي النسبي . ومن هنا فقد امكن للبروليتاريا ان تصحو في وقت مبكر على الحياة السياسية وان تبتدع لنفسها اشكالا تنظيمية ملائمة وان تتطلع الى لعب دور مستقل في الحياة السياسية . والحال ان البورجوازية تظل متمتعة بهذا القدر او ذاك بصفتها التقدمية كطبقـة ديموقراطية معادية للاقطاع ولنظام الحكم المطلق ما دامت منفردة في حلبـــة الصراع السياسي ضد عالم الماضي وما دامت هيمنتها على الجماهير ليست موضع منافسة من قبل اي طبقة اخرى . ولكن هذه البورجوازية سرعان ما تكشر عن انيابها المعادية للديموقراطية وللجماهير بمجرد ان تواجه على خشبـــة المسرح السياسي طبقة تقف على يسارها وتنافسها قيادة الجماهير الشعبية .

ولقد كان الظهور المبكر للبروليتاريا الروسية على مسرح الاحداث ايذانـــا بانعطاف البورجوازية نحو التحالف مع الرجعية الاوتوقراطية لقمع صبـــوات البروليتاريا وسحق حركتها المتصاعدة .

وبالفعل ، ان الهم الاول للبورجوازية الروسية ، امام التعاظم المبكر لقـــوة البروليتاريا ، لم يكن الاطاحة بالاوتوقراطية وانما مشاركتهـــا فتات السلطة .

ولهذا فانها لم ترفع قط شعار الجمهورية الديموقراطية ، وانما كانت غاية أمانيها ملكية دستورية . والحال ان التطلع الى مشاطرة الاوتوقراطية امتيازات السلطة كان يعني عمليا الابقاء على الاساس الاجتماعي لحكم آل رومانوف ، اي الملكية العقارية الكبيرة ونصف الاقطاعية . ومن هنا كان تخاذل البورجوازية عن أداء رسالتها الديموقراطية في تحرير العلاقات الزراعية من آثار القنانة والاقطاع .

وبقدر ما ان الثورة الروسية هي ثورة ديموقراطية ، وبعبارة أدق ثورة فلاحية ، فان البورجوازية الروسية كانت تتدهور الى مصاف الطبقة المناهضة الثورة . وفي مرحلة اولى لم يكن لينين ليحجم عن توسيع مفهوم الشعب ليشمل به الشرائح الليبيرالية والمتقدمة من البورجوازية ، ولكن تطور الاحداث اللاحق أثبت ان الليبيرالية الروسية مستحيلة ، ولهذا فان لينين لم يعد يصف البورجوازيين ، وبمن فيهم الليبيراليون ، الا بأنهم ثوريون سابقون ومن ثم مناهضون للثورة . وبذلك توصل لينين الى صياغة الشعار المرحلي الاساسي للثورة الروسية : ثورة بورجوازية بدون البورجوازية ، ورغم أنف البورجوازية، وعند الحاجة ضد البورجوازية .

انها ثورة بورجوازية اولا ، لان التحولات الديموقراطية للنظام السياسي والتحولات الاجتماعية والاقتصادية التي تشعر روسيا بأنها بأمس الحاجة اليها لن تؤدي الى تقويض الرأسمالية ، وسيطرة البورجوازية ، ولن تخرق الشرعية البورجوازية ، بل ستفتح الطريق على العكس ولاول مرة لتطور واسع سريع ، اوروبي وغير آسيوي ، للرأسمالية في روسيا ، وستجعل لاول مرة ايضا سيطرة الرأسمال ممكنة .

وهي ثانيا ثورة بورجوازية بدون البورجوازية ، لان القول بأنها بورجوازية لا يترتب عليه البتة الافتراض بأن البورجوازية هي قوتها المحركة ولا حتى احدى قواها المحركة . انها بورجوازية في مضمونها لا في وسائلها ، في اهدافها لا في قواها الطبقية . ذلك ان هناك في التحليل الاخير نمطين للثورة البورجوازية الديموقراطية : نمطا بورجوازيا ليبيراليا ونمطا ديموقراطيا ثوريا وعلى وجه التحديد فلاحيا . ففي النمط الاول لا تحجم البورجوازية عن الاعتماد على بعض مخلفات الماضي وعلى جهاز الدولة الاوتوقراطية لتلجم البروليتاريا وتسد عليها المنافذ ، وهي لا تريد للثورة البورجوازية ان تكنس بحزم وتصميم جميع مخلفات الماضي ، لا تريدها ان تكون ديموقراطية ، منطقية مع نفسها الى النهاية ، بل تريد ان تتم التحولات الديموقراطية على نحو أبطأ ، متدرج ، حذر ، متردد، وان تحترم هذه التحولات بعض مؤسسات الاقطاع «الجديرة بالاحترام» (كالنظام الملكي على سبيل المثال) والا تطلق العنان لمبادهة الجماهير الثورية . وبكلمة واحدة ، تريد ثورة بورجوازية عن طريق الاصلاحات البطيئة والسلمية ، لا عن طريق الثورة العنيفة والسريعة . وهي تريد «الثورة» على هذا النحو لانها تحسب حساب المستقبل ، تحسب حساب البروليتاريا التي لن تحجم بدورها عن تحويل الاسلحة التي وضعتها الثورة البورجوازية بين يديها الى صدر البورجوازية

نفسها ، تلك الاسلحة المتمثلة في الحريات الديموقراطية والمؤسسات الديموقراطية التي تكون قد أزهرت فوق مقبرة الاقطاع .

اما في النمط الثاني من الثورة الديموقراطية البورجوازية ، اي نمط الثورة الديموقراطية الفلاحية والبروليتارية ، فان طريق التحولات الديموقراطية هو طريق الثورة لا طريق الاصلاح ، طريق العملية الجراحية الاسرع والاقل ايلاما لا طريق المعالجة المتدرجة الذي هو في التحليل الاخير طريق الموت البطيء وتقرُّح العضوية الاجتماعية .

ان البورجوازية تريد «الثورة» الديموقراطية البورجوازية جسورا مقطوعة تحت أقدام العمال والفلاحين ، أما هؤلاء الاخيرون فيريدون الثورة الديموقراطية مقدمة للثورة الاشتراكية وضمانة للنصر الاكيد فيها .

والثورة البورجوازية بقيادة البورجوازية هي ثورة مسدودة الآفاق ، بلا مستقبل ، بلا غد ، في حين ان الثورة البورجوازية بقيادة البروليتاريا هي ثورة مفتوحة الآفاق ، تنظر الى الامام اكثر مما تنظر الى الخلف ، تشق الطريق الى ما بعدها ولا تسده .

والواقع ان البروليتاريا هي ، من بين جميع الطبقات والفئات الاجتماعية ذات المصلحة في التحولات الديموقراطية ، اكثرها استعدادا لمتابعة المسيرة الديموقراطية حتى آخر الشوط . فهي في النضال ضد الحكم المطلق العدو الوحيد الذي لا يستطيع ان يقبل بأي نوع من التسويات او الحلول الوسط مع الاوتوقراطية . وفيها وحدها يمكن للمذهب الديموقراطي ان يجد نصيرا لا يتحفظ ولا يتردد ولا ينظر الى الخلف . أما بين سائر الطبقات والفئات الاجتماعية فان العداء تجاه الحكم المطلق ليس مطلقا . فالبورجوازية لا تستطيع ان تتجاهل من جهة أولى ان نظام الحكم المطلق يعرقل التطور الصناعي والاجتماعي ولكنها تخشى من الجهة الثانية الدقرطة الكاملة للنظام السياسي والاجتماعي ، ومن الممكن دوما ان تتحالف مع الاوتوقراطية ضد البروليتاريا . والبورجوازية الصغيرة هي بدورها ذات طبيعة مزدوجة : فأنظارها مشدودة الى البروليتاريا والمذهب الديموقراطي ، ولكنها مشدودة ايضا الى الطبقات الرجعية ، ومن الممكن ان تحني الراس لاغراءات الطبقات الحاكمة والمالكة دفاعا عن امتيازاتها كطبقة من الملاك الصغار ضد البروليتاريا . والمثقفون لا يمكنهم الا يتمردوا على الاضطهاد البوليسي البربري للفكر والمعرفة من قبل الاوتوقراطية ، ولكن المصالح المادية لهؤلاء المثقفين تربطهم بالاوتوقراطية والبورجوازية وترغمهم على التردد والتحفظ وعلى بيع حماستهم الثورية وروحهم المعارضة مقابل الصدقات التي تمن بها عليهم الدولة .

اذن ، واذا لم يكن هناك من خيار للثورة الروسية في تجاوز الاطار الديموقراطي البورجوازي ، فانها تملك كل الخيار في المقابل في تحديد ماهية التحولات الديموقراطية البورجوازية وأسلوبها ومضمونها ، وقبل كل شيء في تحديد الطبقة القائدة لهذه التحولات .

وانما حول تحديد الطبقة القائدة للثورة البورجوازية حدث الانشقاق الكبير في صفوف الماركسيين الروس بين المناشفة والبلاشفة .

الثورة الروسية ثورة **بورجوازية** ، اذن فالبورجوازية هي قائدتها . هكذا استنتج المناشفة .

الثورة الروسية **ثورة** بورجوازية ، اذن فالبروليتاريا هي قائدتها . هكذا استنتج البلاشفة .

المناشفة انطلقوا من صفة الثورة ، والبلاشفة انطلقوا من الموصوف .

المناشفة اقاموا معادلة تساوٍ بين مضمون الثورة وقوتها . والبلاشفة اقاموا علاقة تنافٍ .

لأن الثورة **بورجوازية** ديموقراطية ، زعم المناشفة انها يجب ان تكون بقيادة البورجوازية . ولأن الثورة بورجوازية **ديموقراطية** ، أكد البلاشفة انها يجب ان تكون بقيادة البروليتاريا ، لا لان البروليتاريا هي القوة الديموقراطية حتى النهاية فحسب ، بل ايضا لان البورجوازية نفسها تكف عن ان تكون ديموقراطية بمجرد ان تبرز البروليتاريا على المسرح السياسي كقوة مستقلة .

وما الحوار اصلا بين البلاشفة والمناشفة حول الطبقة القائدة للثورة البورجوازية الا حوار حول استقلال الطبقة العاملة عن البورجوازية او تبعيتها لها . فالمناشفة ذيليون ، والبلاشفة استقلاليون . المناشفة يخافون ان يؤدي تدخل البروليتاريا كقوة حاسمة في الثورة الديموقراطية الى تخويف البورجوازية والى دفعها الى أحضان الثورة المضادة ، والبلاشفة يردون بأن البورجوازية اذا كانت تخاف البروليتاريا وعلى استعداد للانتقال الى أحضان الثورة المضادة فهذا معناه انها جبانة ولا تستأهل بالتالي ان تعلق عليها الآمال كقوة حاسمة في الثورة الديموقراطية .

وليس من قبيل الصدفة ان يكون الانشقاق بين البلاشفة والمناشفة قد وقع اول ما وقع بصدد المشكلة التنظيمية والعضوية الحزبية . فالمناشفة وضعوا لعضوية الحزب شروطا رخوة . والبلاشفة ارادوها شروطا صارمة . وكانت الصيغة المنشفية للعضوية الحزبية تفترض ان الطبقة العاملة والحزب البروليتاري لا تنتظرهما مهام شاقة وملحة في الثورة البورجوازية القادمة . وكانت الصيغة البلشفية تفترض العكس . فما دامت البورجوازية هي قائدة هذه الثورة في نظر الاوائل ، اذن فالطبقة العاملة ليست بحاجة الى تنظيم متين قادر على التدخل على نحو حاسم في مجرى الاحداث . وما دامت البروليتاريا هي قائدة الثورة البورجوازية في نظر الاواخر ، اذن فالطبقة العاملة بحاجة الى حزب قوي ومنضبط ليكون فعالا في مجرى الاحداث .

والحوار بين المناشفة والبلاشفة هو ايضا حوار حول الطبقة الفلاحية . فما دامت الثورة القادمة هي ثورة ديموقراطية ، اذن فلا بد ان تساهم فيها الطبقة الفلاحية على أوسع نطاق ممكن باعتبار ان الفلاحين هم غالبية الشعب وباعتبار

ان الثورة لا تكتسب صفة الديموقراطية الا اذا ساهمت فيها غالبية الشعب . ولكن لما كانت الطبقة الفلاحية عاجزة بحكم طابعها البورجوازي الصغير عن لعب دور مستقل او قيادي في الثورة ، اذن فلا بد لها ان تنضوي تحت لواء قيادة طبقة اخرى . ومحور المناظرة بين البلاشفة والمناشفة هو : هل تنضوي الطبقة الفلاحية تحت لواء القيادة البروليتارية ام تحت لواء القيادة البورجوازية .

لقد قلنا عن المناشفة انهم أخذوا من الماركسية شقها الغربي . وهذا معناه ، بالنسبة الى تقييم الدور الثوري للفلاحين ، عدم الثقة والتشاؤم . اما البلاشفة، المتمثلون للعناصر الايجابية في المذهب الشعبي ، فقد رأوا ان المساهمة الروسية في تطوير الماركسية يمكن ان تكمن في حل المسألة الزراعية . ولهذا، وفي الوقت الذي ركز فيه المناشفة اللهجة على رجعية الطبقة الفلاحية ، ركزها البلاشفة على الشروط التي تجعل من الفلاحين الروس قوة ثورية . وقد ظهرت هذه الخلافات بصدد تقييم دور الطبقة الفلاحية حتى قبل الانشقاق البلشفي - المنشفي ، ومنذ عام ١٨٩٩ على وجه التحديد . ففي المشروع الذي وضعه بليخانوف لبرنامج الحزب الاشتراكي الديموقراطي الروسي ورد قوله : « ان السند الرئيسي لنظام الحكم المطلق يكمن في اللامبالاة السياسية للطبقة الفلاحية وتأخرها الفكري» . اما لينين فقد أكد بدوره في المشروع الذي وضعه لبرنامج الحزب ان «على الحزب العمالي ان يسجل على رايته مبدأ تأييد الطبقة الفلاحية بقدر استطاعة هذه الطبقة الفلاحية على خوض نضال ثوري ضد بقايا الاقطاع بوجه عام وضد نظام الحكم المطلق بوجه خاص» . وقد رد بعد اكثر من عشرة أعوام ردا أوضح ايضا على أطروحة بليخانوف تلك عندما أكد بأن «الاساس الطبقي الرئيسي للديموقراطية البورجوازية في روسيا هو الطبقة الفلاحية» .

لقد اتهم المناشفة التكتيك البلشفي بأنه ادى الى عزل البروليتاريا عن القوى الديموقراطية في المدن (أي عن البورجوازية) وبأن تصوره المغلوط عن الدور التقدمي لبورجوازية المدن هو الذي قاده الى ان يعلق كل آماله الثورية على الطبقة الفلاحية «التي يريد ان يحررها بعد تأخير اربعين عاما !» . ولكن رد لينين والبلاشفة كان اكثر من مفحم : ان بورجوازية المدن هي التي تأخرت عن أداء مهمتها الديموقراطية في تحرير الفلاحين من ربقة مخلفات القنانة ، وهذا بالضبط ما يجعل تحالف العمال والفلاحين في الثورة الديموقراطية ضروريا حتى ولو أدى ذلك الى ذعر البورجوازية والى انصرافها عن معسكر الديموقراطية . وتخوف المناشفة من ان يؤدي انصراف البورجوازية عن الثورة الديموقراطية الى تضييق نطاق هذه الثورة يرجع على وجه التحديد الى جهلهم بالامكانيات الثورية للطبقة الفلاحية وتعاميهم عنها . ذلك ان «من يفهم حقا دور الطبقة الفلاحية في الثورة الروسية لن يقول ابدا ان نطاق الثورة سيضيق اذا ما اشاحت البورجوازية عنها . فالانطلاقة الحقيقية للثورة الروسية لن تبدأ حقا ، والثورة لن تدرك حقا أوسع نطاق ممكن في اطار حركة ديموقراطية بورجوازية الا عندما تشيح

البورجوازية عنها وتقوم الجماهير الفلاحية ، السائرة جنبا الى جنب مع البروليتاريا ، بأداء دور ثوري فعال» .

ومن هنا واذا كانت بروليتاريا المدن هي القوة الرئيسية في الثورة الروسية، فان مصير هذه الاخيرة يتعلق ايضا والى حد كبير بتطور الوعي الفلاحي . والطبقة الفلاحية ، بما تمثله من كتلة بشرية هائلة ، هي التي ستكون لها الكلمة الاخيرة في تحديد مسار الثورة البورجوازية الديموقراطية في روسيا : أنحو ديموقراطية ليبيرالية ام نحو ديموقراطية فلاحية ـ بروليتارية ؟ والليبيرالية في شروط الثورة الروسية لن تكون ديموقراطية لان اقصى مطامحها ملكية دستورية ، وبالمقابل فان الديموقراطية في شروط تلك الثورة ايضا لا يمكن الا انتكون فلاحية ـ بروليتارية، لان الديموقراطية هي الايمان بالجماهير وبعمل الجماهير وبشرعية مطالب الجماهير وبصحة اساليب نضال الجماهير ، والحال ان الجماهير في روسيا هي جماهير العمال والفلاحين . ولهذا كله فان الثورة البورجوازية الديموقراطية في روسيا لن تكون الا الدكتاتورية الديموقراطية للعمال والفلاحين .

وهذا الشعار ، دكتاتورية العمال والفلاحين الديموقراطية ، الذي شارك به البلاشفة في ثورة ١٩٠٥ ومهدوا الطريق على اساسه لثورة اوكتوبر ١٩١٧ ، يمثل المساهمة اللينينية الكبرى في تطوير الاستراتيجية الطبقية للثورة في العلم الماركسي ، كما يمثل الصيغة الثورية التي طالما نشدتها الحركة الثورية الروسية ونقطة التحول في تاريخ هذه الحركة من حركة مفجوعة الى حركة مظفرة .

ان دكتاتورية العمال والفلاحين الديموقراطية هي استمرار للنظرية الماركسية عن استراتيجية الثورة لانها تكريس لمبدأ ضرورةالمرحلة البورجوازية الديموقراطية، ولكنها ايضا تطوير لتلك النظرية لانها توكيد بأن الثورة الروسية وان لم تكن اشتراكية فانها ما عادت مجرد ثورة بورجوازية . وربما كان من الممكن ان نقول ان شعار الدكتاتورية الديموقراطية هو استمرار لمبدأ الثورة الدائمة الذي وجدنا ماركس قد قال به في مرحلة من المراحل . ولكن صيغة لينين في الحقيقة اكثر تقدما من صيغة ماركس . فلقد فهم ماركس استمرارية الثورة على انها استمرار الحزب العمالي في لعب دور الجناح اليساري المتطرف من الديموقراطية البورجوازية ، ثم من الديموقراطية البورجوازية الصغيرة وصولا الى المرحلة الأشتراكية من الثورة . ولكن لينين لم يكتف بهذا ، بل أكد ضد ماركس وضد المناشفة الذين تبنوا رأي ماركس هذا ، ان دور العمال في الثورة البورجوازية ليس القيام بدور المعارضة اليسارية المتطرفة ، وانما الاستيلاء على السلطة بمساعدة الفلاحين .

ان **ديموقراطية** دكتاتورية العمال والفلاحين تدحض الاسطورة الشعبية عن امكانية تجاوز المرحلة البورجوازية ، وتدين النزعة الفوضوية التي تخلط بين المرحلة البورجوازية والمرحلة الاشتراكية ، وتؤكد على ضرورة انجاز المهام الديموقراطية كشرط مسبق لتمايز المهام الاشتراكية ولانجازها ، ولكن دكتاتورية تلك الديموقراطية تدحض ايضا الاسطورة الغربية عن استحالة وجود طريق

مختصر الى الاشتراكية وتؤكد امكانية اجتياز المرحلة البورجوازية عن طريق تجاوز الدكتاتورية البورجوازية وتجعل من حلف العمال والفلاحين كتلة مرشحة للسلطة لا للمعارضة في المرحلة الديموقراطية .

وبديهي أن شعار الدكتاتورية الديموقراطية للعمال والفلاحين لا يخلو من تناقض نظري . فالثورة البورجوازية هي بالتعريف تكريس البورجوازية طبقة حاكمة ، في حين ان دكتاتورية العمال والفلاحين الديموقراطية هي بالتعريف ايضا تكريس لدكتاتورية غير بورجوازية في المرحلة الديموقراطية ، دكتاتورية بروليتارية ــ فلاحية . ولكن تناقضات ذلك الشعار لبثت في الوقت نفسه مجرد تناقضات نظرية لانه لم يكتب له قط ان يوضع موضع تنفيذ . وبالفعل ، انه ليصعب علينا ان نتصور ان يقوم حلف العمال والفلاحين بثورة ديموقراطية وأن يستولي على السلطة ليسلمها الى البورجوازية وليؤسس هذه الاخيرة طبقة حاكمة . وعندما أتيح لحلف العمال والفلاحين ان يستولي فعلا على السلطة في اوكتوبر ١٩١٧ ، لم تكن الدكتاتورية التي اقامها دكتاتورية ديموقراطية ، اي دكتاتورية تفتح الطريق امام «تطور واسع سريع للرأسمالية» ، وانما كانت دكتاتورية بروليتارية بالتحالف مع الفلاحين ، دكتاتورية قطعت الطريق على التطور الرأسمالي وشرعت فورا بانجاز مهام الثورة الاشتراكية .

ان دكتاتورية العمال والفلاحين الديموقراطية مستحيلة التنفيذ اذن عمليا لانها متناقضة نظريا . ولكن تناقض ذلك الشعار نظريا لم يكن الا انعكاسا للتناقض في الحياة والواقع . وربما كان من الصحيح أن نقول ان التناقض القائم على صعيد الحياة والواقع هو الذي حتم تناقض النظرية . ان التناقض هو قبل كل شيء تناقض البورجوازية الروسية مع الرسالة التاريخية التي كان يفترض فيها ان تؤديها . وفي الوقت نفسه لم تكن البروليتاريا الروسية قد نضجت بعد بما فيه الكفاية لتؤدي رسالتها التاريخية بدورها . ومن هنا فقد كانت الحاجة ماسة الى شعار يكرس تناقض البورجوازية الروسية وجبنها وعجزها وافلاسها، ويهيىء في الوقت نفسه البروليتاريا للقيام بالدور المنتظر منها وينمي وعيها واستعدادها للمعارك القادمة ، من غير ان يعرقل التطور الموضوعي ، تطور الرأسمالية الروسية ، ومن غير ان يقود البروليتاريا الى التهلكة اذ يعللها بالاوهام والاساطير وينسب اليها القدرة على القيام فورا ومباشرة بثورة اشتراكية كانت الشروط الموضوعية تقضي عليها سلفا بأن تكون ثورة مجهضة .

ولهذا كله كان شعار دكتاتورية العمال والفلاحين الديموقراطية . فلقد كرس هذا الشعار اولا خيانة البورجوازية لقضية الديموقراطية . وحرر البروليتاريا ثانيا من التبعية الذيلية للبورجوازية في النضال الديموقراطي . وضمن للحركة الفلاحية الديموقراطية ثالثا قيادة بروليتارية . وأنهى رابعا أسطورة دور المعارضة اليسارية المتطرفة الذي يتوجب على البروليتاريا ان تلعبه في الجبهة الديموقراطية ، تلك الاسطورة التي أدت في الغرب الاوروبي الى إرجاء الثورة

الاشتراكية الى أجل غير مسمى . ورشح خامسا وأخيرا حلف العمال والفلاحين كتلة سلطوية ، وبذلك فتح الباب على مصراعيه لقيام دكتاتورية البروليتاريا كتتويج للنضال الديموقراطي واستهلال للثورة الاشتراكية .

أما تناقضات ذلك الشعار النظرية فقد تولت الحياة نفسها ايضا تسويتها عندما فرض تطور الاحداث استبدال شعار الدكتاتورية الديموقراطية بشعار دكتاتورية البروليتاريا المتحالفة مع فقراء الفلاحين .

أزمة الشعارات

في ٢٧ شباط ١٩١٧ ، وبفعل النزيف المتواصل المتمثل في الحرب الامبريالية والصراعات الداخلية ، سقط حكم آل رومانوف الذين كان لهم حق الحياة والموت على الرعايا الروس طوال ثلاثة قرون كاملة .

انها الثورة الروسية ، وبتعبير أدق بدايتها .

انها ثورة لانها استبدلت طبقة حاكمة بأخرى . ولكنها ايضا بداية الثورة لان اكثر من طبقة ستتوالى على الحكم في غضون شهور قلائل .

والثورة بركان هائل من المفاجآت . مفاجأة للطبقة الساقطة ، ومفاجأة للطبقة الصاعدة ، مفاجأة للذين قاوموها بالدم والحديد ، ومفاجأة للذين ارادوها من كل قلوبهم . ومهما أمكن لتخطيط الثورة ان يكون دقيقا وصارما ، فان المفاجأة تنتظر المخططين انفسهم .

ولقد كان البلاشفة في عداد الذين فوجئوا بالثورة . لا بمعنى انهم لم يتوقعوها ولا بمعنى انهم لم يشتركوا في التخطيط لها ، وانما بمعنى ان الوضع الذي خلقته الثورة كان وضعا جديدا مطلق الجدة ، وضعا لا يمكن ادراكه وتداركه والاحاطة به والسيطرة عليه بواسطة المخططات والشعارات والتصورات والمفاهيم القديمة ما قبل الثورية .

ان الثورة هي دوما ازمة ، وازمة وعي قبل كل شيء ، وازمة وعي للثوريين انفسهم بالدرجة الاولى اذا كانوا لا يريدون ان يفوتهم القطار .

وليس من قبيل الصدفة ان يكون قد ظهر في اوساط الماركسيين الثوريين الروس في ايام ١٩١٧ الثورية تعبير «البلاشفة القدامى» . فقد كان هذا التعبير اشارة واضحة الى تلك الازمة والى ضرورة المراجعة العامة واعادة النظر في الاساليب والمفاهيم والشعارات حتى لا يبقى الثوار متخلفين عن ركب الثورة وحتى لا ينظروا الى الوضع الجديد كل الجدة بعيون قديمة .

ولعل لينين هو احد القلائل الذين ادركوا طبيعة الازمة ، فكتب يقول : «كثيرا ما يحدث ، في منعطفات التاريخ المباغتة ، ألا تتمكن حتى الاحزاب المتقدمة ، لمدة تطول او تقصر ، من تمثل الوضع الجديد ، فتكرر شعارات كانت صحيحة بالامس ، لكنها فقدت كل معنى اليوم ، فقدت معناها على حين فجأة مثلما انعطف التاريخ على حين فجأة» .

اذن فمن حقنا ان نتساءل : ما مصير الشعارات الرئيسية للبلاشفة : الثورة البورجوازية الديموقراطية ، تحالف العمال والفلاحين ، دكتاتورية العمال والفلاحين الديموقراطية ، الخ بعد قيام ثورة شباط ١٩١٧ ؟

كان غوته يقول : «رمادية هي النظرية يا صديقي ، أما شجرة الحياة الخالدة فخضراء» . ويضيف لينين بدوره : «يجب ان نضع في رؤوسنا هذه الحقيقة التي لا تقبل جدالا ، وهي ان على الماركسية ان تتقيد بالحياة ، بحقائق الواقع العينية ، لا ان تتشبث بنظرية الامس التي لا يسعها ، شأن كل نظرية ، اكثر من ان تشير الى ما هو اساسي ، عام ، ومن ان تقدم فكرة تقريبية عن تعقيد الحياة» . وانطلاقا من روح الماركسية لا من حرفها ، يصبح من الضروري تطوير الشعارات القديمة على ضوء الواقع المتجدد لا تقييد هذا الواقع بتلك الشعارات .

ولكن ما الجديد حقا في واقع روسيا السياسي بعد قيام ثورة شباط١٩١٧ ؟

ثنائية السلطة : هذه هي السمة الاساسية ، الجديدة ، للثورة الروسية غداة انتصار مرحلتها الاولى . وهذه الثنائية تعبر عن نفسها في وجود حكومتين: الحكومة الرئيسية ، الحقيقية ، الفعلية ، المتمثلة في «الحكومة المؤقتة» ، والحكومة الموازية ، الجنينية ، التي تسمي نفسها ب «حكومة الرقابة» والتي هي أشبه ما تكون بحكومة الظل ، والمتمثلة في سوفييتات العمال والفلاحين والجنود.

الحكومة الاولى تستمد قوتها من قوة جهاز الدولة الذي استولت عليه ، والحكومة الثانية تستند مباشرة الى غالبية الشعب الساحقة وتستمد قوتها من الشعب المسلح .

الحكومة الأولى رسمية ، تنسب نفسها الى شرعية القانون الذي بات طوع أناملها ، والحكومة الثانية ثورية لان ارادة الجماهير هي شرعيتها الوحيدة .

والحكومة الاولى هي حكومة البورجوازية ، دكتاتورية البورجوازية ، لانها منحت كل السلطة الى البورجوازية ، والحكومة الثانية هي حكومة الديموقراطية لانها حكومة الغالبية ولأن السوفييتات هي جهاز الدولة الجديد الذي ابتكرته عبقرية الجماهير الشعبية .

وثنائية السلطة هذه هي شيء جديد مطلق الجدة لانه لم يحدث قط في التاريخ ان تداخلت وتلغمت دكتاتوريتان : دكتاتورية البورجوازية (الحكومة المؤقتة) ودكتاتورية العمال والفلاحين الديموقراطية (سوفييتات العمال والفلاحين والجنود) .

وبديهي أن هذا التداخل لا يمكن ان يدوم طويلا . فسلطة الدولة لا يمكن ان تتسع لاكثر من دكتاتورية واحدة . ولا مفر من ان تختفي احدى السلطتين ، وبالاحرى أن تقوم احدى السلطتين بتصفية الاخرى .

ولكن ما التفسير الطبقي لازدواجية السلطة هذه ؟

انه اولا الضعف العددي والتنظيمي للبروليتاريا الذي سمح للبورجوازية

بأن تسرق منها ثمرة نضالها الطويل والبطولي . وبالفعل ، لولا هذا الضعف لما كان أمكن للبورجوازية ان تحتكر لنفسها التمثيل الرسمي ، الحكومي ، للديموقراطية الروسية ، هي التي ليس لها من تاريخ غير تاريخ خيانة هذه الديموقراطية .

والسبب الثاني هو قوة البورجوازية الصغيرة . فروسيا هي اكبر بلد بورجوازي صغير في العالم . ومما زاد الطين بلة ان من طبيعة الثورة ، كل ثورة ، ان تجر الى مسرح الحياة السياسية أعدادا هائلة من البورجوازيين الصغار . وهذه بالطبع سمة ايجابية للثورة وليست سمة سلبية . فلولا الملايين وعشرات الملايين من الناس الذين توقظهم الثورة من خمولهم السياسي ، لما استحقت الثورة اسم الثورة . ولكن المشكلة ان البورجوازية الصغيرة لا تستطيع كطبقة ان تلعب دورا مستقلا ، ولا بد لها دوما من طبقة اخرى تتحرك تحت قيادتها . وازاء ضعف البروليتاريا العددي والتنظيمي كان من الطبيعي لا ان تنخرط البورجوازية الصغيرة تحت لواء البورجوازية الليبيرالية وغير الليبيرالية فحسب ، بل ايضا ان تغرق موجة البورجوازية الصغيرة النواة البروليتارية الواعية نفسها وأن تسحقها عدديا وايديولوجياً . وهذه الواقعة هي التي تفسر ان الاحزاب المسيطرة على سوفييتات العمال والفلاحين ، اي احزاب المناشفة والاشتراكيين - الثوريين وأضرابهم ، قد اختارت طوعا ومن تلقاء نفسها لا سياسة التعاون مع حكومة البورجوازية «المؤقتة» فحسب ، بل ايضا سياسة الانهزامية وتسليم السلطة عن طيب خاطر .

ماذا يعني هذا كله بلغة الشعارات القديمة ؟ هل يمكن القول ان الثورة البورجوازية الديموقراطية قد قامت في روسيا وانتهت ؟ هل يمكن القول ان دكتاتورية العمال والفلاحين الديموقراطية قد تحققت ؟ وبالتالي هل جاء دور الثورة الاشتراكية ؟

الحق ان هذه الاسئلة التي طرحت نفسها بحدة وإلحاح على الحزب البلشفي غداة ثورة شباط لم تكن مجرد اسئلة نظرية ، وانما كانت معضلات عملية ترتبط بصميم الاستراتيجية والتكتيك البلشفيين : الموقف من الحكومة المؤقتة والشعار المطالب بتأييدها ضد الاوتوقراطية الساقطة ، الموقف من مجالس السوفييت وأسلوب العمل في اطارها ، الموقف من الاحزاب البورجوازية الصغيرة (المناشفة والاشتراكيين الثوريين) ومن الموجة البورجوازية الصغيرة الصاعدة في أوساط الجماهير ، الخ .

ولكن لم يكن من الممكن ايجاد جواب موحد وفوري على كل تلك الاسئلة ، بل ان طريقة طرحها بالذات كانت موضع تساؤل لان الواقع المستجد بعد ثورة شباط أغنى وأعقد من كل الصيغ القديمة .

لقد كان رأي البلاشفة القدامى ، وعلى رأسهم زينوفييف وكامينيف (وستالين الى حد ما قبل ان ينضم الى رأي لينين) ، ان الثورة البورجوازية الديموقراطية قد قامت في روسيا ولكنها لم تنته بعد ، وان التأييد المشروط

للحكومة المؤقتة ضروري لان المسألة المطروحة على جدول اعمال الثورة ليست سقوط الرأسمالية ، بل سقوط الاوتوقراطية والاقطاع .

ولكن رد لينين جاء حاسما : لا تأييد البتة للحكومة المؤقتة ، وانما التحضير للانتقال من المرحلة الاولى للثورة الى المرحلة الثانية . وهذه المرحلة الثانية ليست الانتقال من دكتاتورية البورجوازية الىدكتاتورية العمال والفلاحين الديموقراطية، بل الانتقال الى دكتاتورية البروليتاريا المتحالفة مع الفلاحين الفقراء ، الانتقال من الثورة البورجوازية الديموقراطية الى مدخل الثورة الاشتراكية .

قوبلت موضوعة لينين هذه بهجوم عنيف من البلاشفة القدامى واتهمه كامينيف بالفوضوية وبالرغبة في تخطي الثورة الديموقراطية البورجوازية والمباشرة فورا بتحويل هذه الثورة الى ثورة اشتراكية ، وذلك بخلاف ما كانت تتوقعه كل مخططات البلاشفة وشعاراتهم السابقة التي ناضلوا كثيرا وطويلا لتركيزها في أذهان الجماهير والطبقة العاملة .

ولكن مشكلة تلك المخططات والشعارات انها **سابقة** : ذلكم هو جوهر رد لينين . سابقة وقديمة ومتأخرة عن الحياة .

ان البلاشفة القدامى يبنون كل تكتيكهم على الافتراض بأن الثورة البورجوازية الديموقراطية لم تنته ، وبأن المرحلة التالية من الثورة لا يمكن ان تكون غير دكتاتورية العمال والفلاحين الديموقراطية ، لا دكتاتورية البروليتاريا المتحالفة مع الفلاحين الفقراء .

ولكن هل من الصحيح ان الثورة البورجوازية الديموقراطية لم تنته ؟ الواقع انها انتهت بمقدار ما انها أحلت طبقة جديدة في الحكم محل الطبقة القديمة . وهل من الصحيح ان دكتاتورية العمال والفلاحين الديموقراطية لم تتحقق ؟ الواقع ايضا انها قد تحققت من خلال الحكومة الموازية المتمثلة في مجالس العمال والفلاحين والجنود .

بيد انه في كلتا الحالتين لم تجر الامور بنفس الصرامة النظرية للمخططات القديمة . فعلى صعيد الحياة والواقع لم تقم اولا دكتاتورية البورجوازية لتخلفها من ثم دكتاتورية العمال والفلاحين الديموقراطية ، وانما الذي حدث ان الدكتاتوريتين قامتا في آن واحد وعلى نحو متداخل ، متشابك . والذي حدث ايضا ان كلتا الدكتاتوريتين لم تحقق كل ما كان مفترضا فيها ان تحققه .

واذا كان البلاشفة قد توقعوا وأكدوا منذ ثورة ١٩٠٥ ان البورجوازية الروسية لن تقوم بدورها الثوري المفترض فيها ان تقوم به ، فان ثورة شباط قد أكدت توقعاتهم مئة بالمئة . ان البورجوازية الروسية عاجزة ، حتى في حال استلامها السلطة ، عن منح الشعب الارض والحرية . وهي عاجزة ايضا ، في شروط الحرب الامبريالية ، عن ان تمنحه السلم . ولهذا فمن غير الممكن البتة تأييد الحكومة المؤقتة ، حتى ولو بحجة الحفاظ على المكتسبات الثورية المتمثلة في اسقاط الاوتوقراطية . ذلك ان هذه المكتسبات ليست من صنع البورجوازية

الروسية ، وانما هي الثمرة الطبيعية لنضال الجماهير الشعبية وتضحياتها وبطولاتها . والنضال ضد الرجعية وضد ردة الثورة المضادة لا يفترض تأييد الحكومة المؤقتة ، وانما يستوجب تسليح البروليتاريا والجماهير الشعبية . ان الشعب المسلح هو الضمانة لسحق الثورة المضادة ، والحال ان كل ما تريده الحكومة المؤقتة وتسعى اليه هو تجريد الشعب من سلاحه .

يبقى هناك الوجه الآخر للميدالية : الحكومة الموازية ، حكومة الرقابة ، دكتاتورية العمال والفلاحين المتمثلة في مجالس السوفييتات . ولكن هنا ايضا لم تحدث الامور كما كانت تتوقع النظرية . فلقد كان من المفترض أن تتولى دكتاتورية العمال والفلاحين الديموقراطية ازاحة دكتاتورية البورجوازية او تخطيها وتجاوزها ، ولكن ما فعلته هذه الدكتاتورية الديموقراطية هو انها راحت تسلم السلطة طوعا وبملء الاختيار الى البورجوازية . وبدلا من ان تسعى السوفييتات الى الاستئثار بالسلطة .والانفراد بها عن طريق تصفية دكتاتورية البورجوازية ، اكتفت بأن تلعب دور حكومة رقابة ، وفي الواقع دور حكومة ظل ، حكومة وهمية . والحق ان المسألة هنا ليست مسألة ارادة ، وانما هي الصفة الطبقية لتلك السوفييتات . فالاحزاب البورجوازية الصغيرة المسيطرة على السوفييتات لا تملك الا ان تسلم السلطة للبورجوازية . وفي ظروف دولة امبريالية كالدولة الروسية غداة ثورة شباط لا يمكن للبورجوازية الصغيرة الا ان تكون ذيلا للبورجوازية الامبريالية موضوعيا ، وهذا بالرغم من كل نواياها وأوهامها الديموقراطية الذاتية .

ان الدكتاتورية الديموقراطية التي قامت في روسيا غداة ثورة شباط هي اذن دكتاتورية البورجوازية الصغيرة ، لا دكتاتورية ديموقراطية بقيادة البروليتاريا . هذه الحقيقة الهامة هي التي جعلت لينين يتراجع عن الشعار الذي طرحه غداة ثورة شباط ويدرك خطأه المرحلي : شعار «كل السلطة للسوفييتات» . فما دامت السوفييتات تحت سيطرة الاحزاب البورجوازية الصغيرة ، فان شعار «كل السلطة للسوفييتات» يعني عمليا «كل السلطة للبورجوازية الصغيرة» ، وبالتالي ، وبحكم ذيلية البورجوازية الصغيرة ، «كل السلطة للبورجوازية» !

هذا الخطأ الذي أمكن للينين ان يتراجع عنه في الوقت المناسب ، ظل البلاشفة القدامى سادرين فيه . فهم ، من خلال تمسكهم بشعار دكتاتورية العمال والفلاحين الديموقراطية ، لا يعيرون انتباها لذلك التناقض الطبقي بين الديموقراطية البورجوازية الصغيرة والديموقراطية الثورية البروليتارية . فدكتاتورية العمال والفلاحين الديموقراطية لها ، شأن كل ما في الوجود ، ماض ومستقبل . وماضيها هو النضال ضد الاوتوقراطية ، ضد القنانة ، ضد الحكم المطلق ، ومستقبلها هو النضال ضد الملكية الخاصة ، نضال العامل الاجير ضد رب العمل ، النضال في سبيل الاشتراكية . وخطأ البلاشفة القدامى هو انهم لا ينظرون ، حتى في عام ١٩١٧ وبعد سقوط الاوتوقراطية ، الا الى ماضي

الدكتاتورية الديموقراطية ، مع ان **المستقبل** قد بدأ بالنسبة اليها بعد تفاقم التناقض بين مصالح العامل الاجير ورب العمل الصغير .

ان البلاشفة القدامى ما يزالون يعتقدون ان مهمة دكتاتورية العمال والفلاحين الديموقراطية هي انجاز الثورة الديموقراطية التي لا تزال ناقصة، غير مكتملة ، ما دامت المسألة الزراعية لما تجد حلها الديموقراطي بعد . وهم لا يحجمون، من هذه الزاوية ، عن توجيه الاتهام الى البلاشفة اليساريين (اللينينيين) بأنهم يريدون القفز فوق المرحلة الفلاحية للثورة الديموقراطية .

وبالفعل ، ان من الممكن ان تمر دكتاتورية العمال والفلاحين الديموقراطية بمرحلة جديدة ، اعلى ؛ من الممكن ان تكون هي المرحلة الثانية للثورة الروسية في اطار الثورة البورجوازية بشرط واحد لا غير ، وهو ان تتحرر الطبقة الفلاحية من ربقة التبعية للبورجوازية وأن تستولي على السلطة وتنفرد بها وتقوم لحسابها الخاص بانجاز الثورة الديموقراطية ، اي حل المسألة الزراعية لصالحها وبالاصالة عن نفسها .

هذا ممكن ، ولكنه ممكن فقط . والماركسي لا يجوز له ان يسقط من حسابه **الممكن** ، ولكن عليه اولا ان يتقيد **بالواقع** ، وأن يقيّم الموقف على اساس ما هو واقع ، لا على اساس ما هو ممكن .

من الممكن ان تنفصل الطبقة الفلاحية عن البورجوازية ، وأن توزع الارض رغم أنف البورجوازية ، وأن تستولي على السلطة ضد البورجوازية . واذا ما تحقق هذا الممكن ، فان آفاقا جديدة ستنفتح للثورة البورجوازية الديموقراطية في روسيا ، وان مرحلة ثانية عليا من هذه الثورة ستكون قد بدأت .

هذا ممكن ، ولكن الماركسية لا تجيز الرهان على الممكن ضد الواقع ورغم أنف الواقع . والحال ان الواقع الان ، غداة ثورة شباط ، ليس انفصال الطبقة الفلاحية عن البورجوازية ، وانما تعاونهما الطبقي . والماركسي الذي تجعله امكانية تلك المرحلة الثانية المستقبلة ينسى واجبه الراهن ، واجب تقييم الموقف انطلاقا من تفاهم الطبقة الفلاحية مع البورجوازية ، لا يمكن ان يكون ماركسيا ، وانما هو مجرد بورجوازي صغير يبشر بالثقة اللامشروطة بالبورجوازية الصغيرة. ان الماركسي الذي تنسيه امكانية مستقبل ضاحك لا يعود فيه الفلاح ذيلا للبورجوازية الواقع المحزن الراهن الذي ما تزال فيه الطبقة الفلاحية تسير في ركاب البورجوازية ، ان هذا الماركسي يمكن ان يكون كل شيء الا ان يكون ماركسيا ثوريا .

هل يعني هذا كله ان من الواجب القفز فوق الحركة الفلاحية ، والبورجوازية الصغيرة بوجه عام ، في الوقت الذي لما تستنفد فيه البورجوازية الصغيرة بعد كل امكانياتها ؟ هل يعني هذا كله أن البلانكية باتت الحل الوحيد وأن الاستيلاء على السلطة بات واجبا من قبل حكومة عمالية محضة منعزلة عن الجماهير البورجوازية الصغيرة العريضة ؟ هل يعني هذا كله ان التحويل الفوري للثورة البورجوازية الديموقراطية الى ثورة اشتراكية بروليتارية يجب ان يكون شعار البلاشفة الذي

لا بديل عنه ؟

ان مثل هذه التهمة (وهي فعلا تهمة) ستكون في محلها لو ان لينين قال : «لا قيصر ، وانما حكومة عمالية» [1] . ولكن لينين لم يقل شيئا من هذا القبيل ؛ لم يقل ان الاشتراكية ممكنة او واجبة الان وفورا ، وانما قال على العكس ان «بروليتاريا روسيا ، المناضلة في واحد من اكثر أقطار اوروبا تأخرا ووسط جمهرة هائلة من الفلاحين الصغار ، لا يمكن ان تحدد هدفا لنفسها البدء فورا بالتحويل الاشتراكي» . ولكنه لم يقل هذا الا ليضيف بأن الذيلية لا تقل خطرا وضررا عن البلانكية ، وبأن استحالة المباشرة فورا بالثورة الاشتراكية يجب ألا تفضي الى الاستنتاج بأن من الضروري للطبقة العاملة ان تؤيد البورجوازية او ان تحصر نشاطها في اطار مقبول من البورجوازية الصغيرة .

ان الثورة البورجوازية الديموقراطية لم تنته في روسيا . هذا صحيح في التحليل الاخير . ولكن ما لا يقل صحة واهمية عن هذه المقدمة هو الاستنتاج الذي ينص على ان انجاز الثورة البورجوازية الديموقراطية ما عاد ممكنا في نطاق الديموقراطية البورجوازية الليبيرالية ولا حتى في نطاق الديموقراطية البورجوازية الصغيرة الثورية . ان الثورة البورجوازية الديموقراطية في روسيا لا يمكن انجازها الا عن طريق تدابير ثورية لا تقفز فوق المهام الديموقراطية ولكنها لا تقف عندها . تدابير وخطوات **انتقالية** تنجز مهام الثورة الديموقراطية وتكون في الوقت نفسه مدخلا الى الثورة الاشتراكية : نقل السلطة بتمامها الى السوفييتات ، هدم جهاز الدولة القديم واستبدال سلك الموظفين والشرطة والجيش بمنظمات شعبية مسلحة ، تأميم الارض ، الخ . وبكلمة واحدة ، إحياء عامية باريس في روسيا.

ولقد أثبتت الجماهير الشعبية في روسيا ١٩١٧ انها لا تقل عبقرية عن جماهير باريس ١٨٧١ في مجال هدم جهاز دولة البورجوازية وبناء جهاز دولة الديموقراطية الثورية . ولكن على شعب روسيا ان يستفيد ايضا من أخطاء شعب باريس . وخطأ العامية لا يكمن في انها تسرعت في «ادخال» الاشتراكية كما يزعم البلاشفة القدامى ، وانما في انها تأخرت اكثر مما ينبغي في ادخالها . ان دولة العامية او السوفييتات ليست هي الاشتراكية ، وانما هي الخطوة الانتقالية الضرورية الى الاشتراكية . وهذا بالضبط ما يجب ان يتركز عليه محور نضال البلاشفة والبروليتاريا الروسية : تدابير انتقالية الى الاشتراكية .

واذا كان جهل الجماهير الفلاحية الفرنسية قد مكن الرجعية من سحق ثورة عمال باريس بحراب الفلاحين ، فان الطابع الفلاحي الراسخ لروسيا يمكن على العكس ان ينقذ ثورة بروليتاريا المدن . فالمساحة الشاسعة من الاراضي التي لا تزال في أيدي الارستقراطية العقارية في روسيا يمكن ان تعطي الثورة

---

١ ـ شعار أطلقه بارفوس في عام ١٩٠٥ ، ونسبه المؤرخون الستالينيون كذبا الى تروتسكي ليثبتوا عليه تهمة ازدراء الحركة الفلاحية وتجاوزها. ولنا في الفصل القادم عودة الى هذا الشعار.

الديموقراطية الروسية سعة ورحابة غير محدودتين وأن تجعلا منها مقدمة الثورة الاشتراكية فيما اذا استطاعت بروليتاريا المدن ان تكون قائدة حركة تحرير الفلاحين .

وما لم يفهم البلاشفة هذه الحقيقة ، ما لم يفهموا ان انجاز الثورة الديموقراطية هو مقدمة الثورة الاشتراكية وسيرورتها الانتقالية ، فانهم لن يخونوا قضية الاشتراكية وحسب ، بل ايضا قضية الديموقراطية . ذلك « ان التقدم في روسيا القرن العشرين التي فازت بالجمهورية والديموقراطية بالطريق الثوري ، مستحيل بدون السير نحو الاشتراكية والتقدم نحو الاشتراكية » . والخوف من التقدم يعني التراجع . التراجع لا الى ما قبل الاشتراكية ، ولا الى ما قبل الديموقراطية فحسب ، بل حتى الى الثورة المضادة .

ولكن من واجب البلاشفة ان يفهموا ، هذا اذا كانوا لا يرغبون في ان يكونوا بلانكيين وفي ان يحكموا على مستقبل الثورة بالاجهاض ، أن تقدم روسيا الديموقراطية نحو الاشتراكية تقف في وجهه عقبة كؤود : وقوع غالبية الجماهير ، التي هي في روسيا غالبية بورجوازية صغيرة ، تحت سيطرة البورجوازية سياسيا وأيديولوجياً . ولهذا فان محور نضال الطبقة العاملة يجب ان يتركز على انتشال الجماهير البورجوازية الصغيرة من الخنوع الذي هي سادرة فيه ، الخنوع لقياداتها السياسية البورجوازية الصغيرة المتمثلة في احزاب المناشفة والاشتراكيين الثوريين ، والخنوع لقيادة البورجوازية المناهضة للثورة التي انتدبت المناشفة والاشتراكيين الثوريين للسلطة بالنيابة عنها .

وعمل الطبقة العاملة وحزبها القائد لا خيار له في هذه الشروط الا ان يكون عمل تنظيم وعمل دعاية وتحريض . تنظيم البروليتاريا لنفسها ، ودعايتها وتحريضها في اوساط الجماهير البورجوازية الصغيرة . اذن فليس الرهان على الثورة الاشتراكية وامكانيتها الفورية كما يدعي البلاشفة القدامى ، وانما الرهان على العمل التنظيمي والتحريضي الذي هو شرط انضواء جماهير الشعب تحت لواء الثورة الاشتراكية والقيادة البروليتارية لهذه الثورة . ويوم يثمر هذا العمل ، اي يوم تفقد الاحزاب البورجوازية الصغيرة المنشفية والاشتراكية الثورية ثقة غالبية الجماهير وتنتقل هذه الثقة الى حزب البروليتاريا القائد ، يومذاك فقط يصبح في مستطاع البروليتاريا الثورية ومن واجبها ان تستولي على السلطة وأن تباشر الثورة الاشتراكية ، وأن تدفن الراسمالية الى الابد .

دكتاتورية البروليتاريا

في مدى اشهر قلائل أفلح البلاشفة في ان يكتبوا النجاح المطلق لتكتيكهم : فقد اصبحوا الغالبية في مجالس السوفييتات . ومن هنا فقد أطلقوا من جديد شعار «كل السلطة للسوفييتات» وأتبعوه بشعار «التمرد المسلح» .

وفي ٢٥ تشرين الاول ١٩١٧ ، وفي الساعة العاشرة صباحا ، صدر بيان «اللجنة الثورية العسكرية» يعلن ان الحكومة المؤقتة قد أقيلت وان السلطة انتقلت الى سوفييت النواب العمال والجنود في بتروغراد . وبذلك بدأت المسيرة المظفرة لاول دكتاتورية بروليتارية في التاريخ .

لقد كانت اول كلمة فاه بها لينين بعد انتصار الثورة : «ان علينا اليوم ان نكرس انفسنا في روسيا لبناء دولة بروليتارية اشتراكية» . ولقد كان هذا القول ينطوي على مفارقة كبيرة ، لان الواجب الملح الاول لهذه الدولة البروليتارية الاشتراكية كان ان تحل مسألة الارض . وهذه المفارقة لن تسم بداية دكتاتورية البروليتاريا وخطواتها الاولى فحسب ، بل ستكون الطابع المميز لها طيلة سنوات عديدة .

دكتاتورية بروليتارية في اكبر قطر فلاحي في العالم !

إشكال سنحاول في الصفحات المتبقية من هذا الفصل ان نسلط الضوء على الاسلوب الذي حل به .

ويجب قبل كل شيء ان نكون واضحين مع انفسنا من البداية : فالمسألة هي فعلا مسألة دكتاتورية البروليتاريا .

فقد تسمي ثورة اوكتوبر نفسها بأنها ثورة العمال والفلاحين .

وقد تسمي الحكومة السوفياتية نفسها طوال مرحلةاولى بأنها حكومة عمالية ــ فلاحية .

وقد يتغنى نظريو اوكتوبر وأيديولوجيو الحزب بتحالف العمال والفلاحين الذي قامت على اساسه الدولة السوفياتية .

بل قد يتحدث لينين والقادة البلاشفة احيانا عن دكتاتورية العمال والفلاحين.

ولكن الواقع الذي لا يحتمل التباسا هو ان الدكتاتورية التي اقامها البلاشفة هي دكتاتورية البروليتاريا ، ولقد ارادوها عن وعي وتصميم وتخطيط دكتاتورية بروليتارية .

وعندما نقول : دكتاتورية البروليتاريا ، فانما نحدد الطابع الطبقي للدولة الجديدة ، أما شعار تحالف العمال والفلاحين فهو لا يعدو ان يكون اكثر من تحديد لطبيعة العلاقات الطبقية بين العمال والفلاحين. ان دكتاتورية البروليتاريا هي الاساس والمنطلق ، اما تحالف العمال والفلاحين فانه يحدد موقف هذه الدكتاتورية من الفلاحين .

ولينين صريح هنا الى أبعد الحدود وبلا حدود : ان جوهر الدولة ، منذ ان وجدت الدولة ، هو الدكتاتورية . وهذه الدكتاتورية في الدولة الحديثة إما ان تكون دكتاتورية البورجوازية وإما ان تكون دكتاتورية البروليتاريا ، ولا وجود لحل آخر او لطريق ثالث .

وجوهر مذهب ماركس هو توكيد هذه الحقيقة وهي ان القوى الاساسية ، المركزية ، في المجتمع الحديث هي البورجوازية والبروليتاريا ، ولا يمكن ان تكون غير البورجوازية والبروليتاريا . البورجوازية كبانية المجتمع الراسمالي ،

كقائدته ، كمحركه ، والبروليتاريا كحافرة قبره وكبديلته ووريثته . والبروليتاريا هي وحدها التي تستطيع ان تنتصر على البورجوازية ، وهي وحدها التي تستطيع ان تطيح بالبورجوازية ، وهي وحدها التي تستطيع ان تشيد على أنقاض دكتاتورية البورجوازية دكتاتوريةمن طراز جديد ، دكتاتورية بروليتارية كجسر انتقال الى المجتمع المتحرر من كل دولة ومن كل دكتاتورية ومن كل طبقية .

وقد يحدث ان يتكلم لينين والبلاشفة عن «دكتاتورية الشعب الثوري» ، عن دكتاتورية الغالبية بالمقارنة مع دكتاتورية البورجوازية التي هي دكتاتورية أقلية ، ولكن مثل هذا الكلام (وهو نادر) لا يعدو ان يكون اكثر من تفسير لجوهر المذهب الماركسي واللينيني المتمثل في مفهوم دكتاتورية البروليتاريا التي هي دكتاتورية طبقة واحدة ، طبقة تستولي على السلطة السياسية بمفردها ، وتمارسها بمفردها كما تمارس كل دكتاتورية ، من دون ان تخدع نفسها او تخدع الآخرين بالحديث عن سلطة «الشعب كله ، المنتخبة من الجميع ، والمكرسة من قبل الشعب قاطبة».

وكل الطبقات والفئات الاجتماعية التي تقف بين البورجوازية والبروليتاريا لا خيار لها ولا طريق لها غير طريق الاختيار بين دكتاتورية البورجوازية ، ودكتاتورية البروليتاريا . ان قطبي الصراع هما البورجوازية والبروليتاريا ، حتى ولو كانت هاتان الطبقتان أقلية بالنسبة الى سائر جماهير الشعب . وبالمقابل فان قدر الطبقات والفئات الاجتماعية المتوسطة بينهما هو ان تكون مقودة حتى ولو كانت تمثل غالبية الشعب . ولا يستطيع احد ان ينكر ان البروليتاريا الروسية هي أقلية بالنسبة الى جماهير الشعب ، ولكن الدكتاتورية لن تكون ألا دكتاتوريتها لانها هي وحدها القادرة على مقارعة البورجوازية ، وعلى الاطاحة بدكتاتوريتها نظرا الى المركز الذي تحتله في عملية الانتاج الاقتصادي ، اي نظرا الى ان الصناعة هي عصب الاقتصاد والى ان البروليتاريا هي عصب الصناعة . وبالمقابل فان البورجوازية الصغيرة بقسميها المدني والريفي لا تستطيع ان تستقل بنفسها وأن تقيم دكتاتورية خاصة بها بالرغم من انها تمثل غالبية الشعب ، وهذا على وجه التحديد بحكم شروط وجودها الاقتصادية التي تحول بينها وبين ان تتكتل وتوحد نفسها في طبقة مستقلة بذاتها . يقول لينين : «لقد علمتنا تجربتنا ، ومجرى جميع الثورات في العصر الحديث يؤكد ... ان النتيجة كانت دوما وفي كل مكان واحدة : ان جميع محاولات البورجوازية الصغيرة بوجه عام ، والفلاحين بوجه خاص ، لكي يعوا قوتهم ولكي يوجهوا الاقتصاد والسياسة على طريقتهم ، قد باءت بالفشل . إما قيادة البروليتاريا ، وإما قيادة الرأسماليين . لا وسيط بين الاثنين» .

وفي شروط روسيا التاريخية ، حيث الغالبية البورجوازية الصغيرة غالبية فلاحية ، يمكن لبعض فئات الحزب العمالي ان تؤخذ في دوامة الاوهام البورجوازية الصغيرة وأن تقيم نوعا من المعادلة والمساواة بين الطبقة العاملة

والطبقة الفلاحية ، بين المدينة والريف ، وأن تفهم شعار تحالف العمال والفلاحين على انه دكتاتورية البروليتاريا والفلاحين ، لا دكتاتورية البروليتاريا وحدها . والحال ان المدينة لا يمكن ، في ظل الشروط التاريخية السائدة ، ان تكون عدل الريف ، ولا يمكن للريف ان يكون عدل المدينة . ان قدر المدينة أن تقود الريف ، وقدر الريف ان يتبع المدينة . والمسألة كلها تكمن في معرفة اي طبقة من طبقات المدينة ستقود الريف .

وهذا بالضبط معنى شعار تحالف العمال والفلاحين ومضمونه . فهذا الشعار لا يعني اقامة تعادل وتساوٍ بين العمال والفلاحين من منظور الطابع الطبقي للدولة والدكتاتورية ، وانما يعني ان البروليتاريا هي القائدة السياسية للفلاحين وأنه لا يمكن ان يكون للفلاحين من زعيم ودليل غير البروليتاريا . وعندما لا تفلح البروليتاريا في قيادة الثورة وبالتالي الفلاحين ، فان الطبقة الفلاحية ستضع نفسها بالضرورة تحت قيادة البورجوازية .

والمنطق المنشفي والاشتراكي الثوري لا يكشف عن طابعه البورجوازي الصغير الاصيل المتأصل كما يكشفه عندما يزعم ان مرحلة نضال البروليتاريا الحاسم ضد البورجوازية تستوجب ان تُمارس الدكتاتورية من قبل الديموقراطية قاطبة، اي من قبل العمال والفلاحين معا . ان «دكتاتورية الديموقراطية» ، ذلك الشعار الذي رفعه المناشفة والاشتراكيون الثوريون ضد مبدأ «دكتاتورية البروليتاريا» الطبقي ، يدلل على جهل بورجوازي صغير مطبق بالعلم الماركسي ويحيي تقاليد الشعبيين في الخلط الطبقي ونزعة المغامرة الثورية ، ويعرقل مسيرة الثورة الاشتراكية لانه يدخل في وهم هذه الثورة ان كل التناقض هو بينها وبين البورجوازية دونما اعتبار للتناقض الواقعي والمحتم بين البروليتاريا والبورجوازية الصغيرة .

ان دكتاتورية البروليتاريا لا معنى لها غير هيمنة الطبقة العاملة على سائر الطبقات الاخرى . وفي البلدان الرأسمالية المتقدمة ، في انكلترا على سبيل المثال ، لا يثير مبدأ دكتاتورية البروليتاريا «الحساسيات» الديموقراطية لان البروليتاريا تمثل فعلا غالبية الشعب في تلك البلدان . أما في روسيا فان كل الاضاليل حول «دكتاتورية الديموقراطية» مردها الى الشرط الموضوعي للطبقة العاملة كأقلية . وبديهي ان البروليتاريا الروسية لا تستطيع ان تتجاهل هذا الشرط ، وإلا فانها تكون قد أسلست القياد للبلانكية . ولكن التشبث بالاوهام البورجوازية الصغيرة عن الديموقراطية ودكتاتورية الديموقراطية ليس هو طريق الخلاص من البلانكية . فضد الاوهام البورجوازية الصغيرة يؤكد البلاشفة ان دكتاتورية البروليتاريا ليست ممكنة في روسيا فحسب ، بل واجبة ايضا . ولكنهم يؤكدون في الوقت نفسه ، ضد خطر البلانكية ، ان دكتاتورية البروليتاريا غير ممكنة الا اذا استطاعت البروليتاريا الروسية ان تضمن لنفسها حليفا قويا من حيث العدد ، وهذا الحليف لا يمكن ان يكون غير الفلاحين ، والفلاحين الفقراء بوجه خاص . اذن فالدكتاتورية البروليتارية «المحضة» غير

ممكنة في روسيا ، والتتمة الطبيعية والضرورية لدكتاتورية البروليتاريا في روسيا هي تحالف العمال والفلاحين . وبصيغة واحدة جامعة ، انها دكتاتورية البروليتاريا المتحالفة مع الفلاحين الفقراء .

وهذا التحالف هو الذي يفسر الطابع الخاص للثورة الاشتراكية كثورة بروليتارية لم تتحقق وفق المخططات الماركسية الكلاسيكية . والحق ان ثورة اوكتوبر الاشتراكية لم تكن في حقيقتها وفي السنة الاولى من عمرها غير ثورة بورجوازية . وقد يبدو ان في هذا التوكيد الشيء الكثير من المفارقة . ولكن الحياة هي دوما ثنائية اللون بالمقارنة مع النظرية ذات اللون الواحد . فثورة اوكتوبر كانت بمعنى ما وفي بدايتها بورجوازية لان هدفها المباشر ، الفوري ، كان هدفا ديموقراطيا بورجوازيا : تحرير العلاقات الاجتماعية في روسيا من مخلفات القرون الوسطى ، من القنانة والاقطاع . وبكلمة واحدة ، كانت ثورة لصالح الفلاحين على نحو مباشر . وهذا المضمون البورجوازي الديموقراطي لثورة اوكتوبر البروليتارية (بروليتارية لان عمال الصناعة في العاصمتين هم الذين استولوا على السلطة) جاء ليؤكد حقيقة تحالف العمال والفلاحين وضرورته . فعن طريق هذا التحالف أمكن للبروليتاريا المدينية ان تنجز الثورة البورجوازية الديموقراطية ، وأمكن للفلاحين ان يتحرروا من ربقة الملكية الاقطاعية . ولكن عن طريق هذا التحالف ايضا أمكن للثورة الحقيقية ، للثورة الاهم والاخطر ، الثورة الاشتراكية ، ان تبدأ في قطر لما تنضج فيه بعد الشروط الاقتصادية الموضوعية للتحويل الاشتراكي . لقد كان تحالف العمال والفلاحين ضروريا للفلاحين لانجاز مهام الثورة الديموقراطية ، وكان ضروريا للعمال للبدء بالثورة الاشتراكية . وكان معنى هذا التحالف ان الثورة البورجوازية الديموقراطية ليست مفصولة بسور صيني عن الثورة الاشتراكية ، وان الاولى تتحول الى الثانية ، وان الثانية تحل مشكلات الاولى ، وعن طريق حلها لهذه المشكلات تضمن لنفسها أسس الاستمرار والانتصار .

كانت ثورة اوكتوبر اذن بورجوازية ديموقراطية في مضمونها المباشر ، بروليتارية في قواها ، اشتراكية في اهدافها اللاحقة والبعيدة . ولقد كان من الواضح لقادتها ان انجاز المضمون الديموقراطي للثورة هو شرط تحولها باتجاه الاشتراكية ، لانه شرط تأييد الغالبية الفلاحية للبروليتاريا الصناعية . ولهذا فقد كان ثاني مرسومين اصدرتهما ثورة اوكتوبر في اليوم الاول من عمرها هو مرسوم الارض الذي انهى سيطرة الملاك العقاريين الكبار على الارض ووضع هذه الاخيرة تحت تصرف الفلاحين . وثمة واقعة تلفت هنا النظر وهي ان مرسوم الاصلاح الزراعي هذا لم يكن مرسوما اشتراكيا في مضمونه ، وانما كان مرسوما ديموقراطيا ، وعلى وجه التحديد ديموقراطيا بورجوازيا صغيرا . ولقد أُخذ روحا وحرفا عن المشروع الذي كان قد وضعه الاشتراكيون الثوريون . ولقد ارتفعت اصوات بلشفية تحتج على تبني البلاشفة لمشروع الاشتراكيين الثوريين

وتعتبر مرسوم الارض منافيا لمصالح البناء الاشتراكي لانه يجزىء الملكية الكبيرة بدلا من ان يحافظ عليها على اساس من التشريك والجماعية . ولكن لينين رد على هؤلاء اليساروييين بأن حكومة الثورة ، بوصفها حكومة ديموقراطية ، اي حكومة تأخذ برأي الغالبية وتحترمه ، لا تستطيع الا ان تعطي الفلاحين ما يريدونه .

صحيح ان الانتاج الزراعي الكبير يتفوق تقنيا على الانتاج الصغير ، وصحيح انه شرط التحويل الاشتراكي للعلاقات الاجتماعية في الريف ، ولكن ليست هذه هي المهمة العاجلة الان ، وانما المهمة العاجلة ضمان شروط الانتصار للثورة البروليتارية . والحال ان الضمانة الاولى لانتصار الثورة وبقائها واستمرارها وتطورها فيما بعد هي تأييد الفلاحين الذين يمثلون الغالبية . ومن اجل ضمان انتصار الثورة ، فانه لا يحق للبروليتاريا ان تتراجع امام احتمال انخفاض مؤقت في الانتاج الزراعي . وما دام انتصار الثورة واستقرارها مرهونين بتأييد الفلاحين ، فان تلبية مطالب الفلاحين ، التي لا يخفي البلاشفة على انفسهم انها مطالب ديموقراطية بورجوازية صغيرة ، تصبح واجبة على نحو مطلق وبغض النظر عن كل اعتبارات نظرية مجردة .

ثم انه يجب ان يكون من الواضح في أذهان الجميع ان الاشتراكية ليست نتيجة مراسيم تصدر وتفرض من فوق ، وان الآلية الادارية البيروقراطية الفوقية تتنافى مع روح الاشتراكية بالذات ، لان الاشتراكية الحية ، الخلاقة ، هي ويجب ان تكون من صنع الجماهير الشعبية نفسها . وما لم تقتنع الجماهير الفلاحية بتفوق الانتاج الكبير على الصغير والتنظيم الجماعي والتعاوني على الاستثمار المجزأ ، ما لم تقتنع بذلك بنتيجة التجربة ، بنتيجة دروس الحياة بالذات ، فان البروليتاريا لن يكون عليها الا الانتظار ومتابعة عملية الاقناع عن طريق المثال لا عن طريق العنف والتدخل الاداري الاعشى : «ان الغباء الذي ما بعده غباء أن يتصور أناس لا يعرفون الزراعة ولا خصائصها ، أناس هرولوا الى الريف لمجرد انهم سمعوا عن فائدة الاستثمارات الجماعية ... أن يتصور هؤلاء الناس انهم مربو الفلاحين على طول الخط . والغباء الذي ما بعده غباء فكرة ممارسة العنف تجاه علاقات الفلاح الاقتصادية» .

ان البلاشفة لا يستطيعون تجاهل عواطف الجماهير ، ولاسيما الفلاحين . والحال ان الاستثمارة الكبيرة ترتبط في أذهان الفلاحين بشعور من الكراهية وبذكرى الاضطهاد الذي كان يمارسه على الشعب كبار الملاك العقاريين . ولهذا فان قضية الثورة في الريف لا يمكن ان تكون موضع مزايدة . وبالفعل ، عندما اراد الاشتراكيون الثوريون المزايدة يساروياً على البلاشفة ورفعوا شعار تشريك الزراعة وجماعيتها ، رد لينين بصراحة ان البلاشفة سيصوتون ضد هذا المشروع وسيعارضونه ما لم يحظ بتأييد الفلاحين انفسهم اولا .

ان دكتاتورية البروليتاريا لا ترفض مبدأ العنف ، بل على العكس ، فهي انما منه تستمد شرعيتها . ولكن دكتاتورية البروليتاريا ليست هي محض دكتاتورية.

انها ليست عنفا مطلقا . انها ليست عنفا الا بمقدار ما تستهدف تحطيم مقاومة البورجوازية . ولكن هذا الهدف بالذات هو الذي يفرض عليها ضرورة اقامة علاقات ديموقراطية مع الجماهير. فبدون تأييد الجماهير لا تستطيع البروليتاريا ان تكسب المعركة ضد البورجوازية . صحيح ان دكتاتورية البروليتاريا تفترض هيمنة الطبقة العاملة على سائر الطبقات الاخرى ، ولكن الهيمنة ، اي القيادة السياسية ، شيء والدكتاتورية على الجماهير شيء آخر .

ان اقامة علاقات صحيحة مع جماهير الريف تقي دكتاتورية البروليتاريا شرور الردة المضادة للثورة وتقطع الجسور امام محاولات البورجوازية للانقضاض على السلطة والاستيلاء عليها من جديد .

ولقد حاول البيض بالفعل إبان أعوام الحرب الاهلية ١٩١٨ ــ ١٩٢٠ ان يفرضوا نوعا من حصار الريف على المدن . ولقد باءت محاولتهم بالفشل في خاتمة المطاف ، لا بفعل تضحيات بروليتاريا المدن وبطولاتها فحسب ، بل ايضا لان الفلاحين لمسوا بأيديهم ان عودة السلطة الى البيض كانت تعني دوما عودة الارض الى كبار الملاك العقاريين . وهكذا ثبتت الصحة المطلقة لتكتيك ثورة اوكتوبر : ان تدعيم أسس الدكتاتورية البروليتارية في قطر فلاحي غير ممكن بدون حل صحيح للمسألة الزراعية ، حل يقود الطبقة الفلاحية الى الاستنتاج بأن بروليتاريا المدن هي وحدها التي تستطيع ان تقودها على طريق التحرر من العبودية الاقطاعية . ولئن كان البيض قد احرزوا انتصارات سهلة في البداية في الأورال وسيبيريا ، فهذا على وجه التحديد لان البروليتاريا القائدة لم تول هذه المناطق اهتمامها الكافي ، ولم توطد فيها تحالف العمال والفلاحين ، ولم تخلق الشروط المناسبة لكي يتوصل الفلاحون بأنفسهم الى الاستنتاج القائل بأنه لا أمل لهم بالتحرر عن غير طريق القيادة البروليتارية .

ولعل الحقيقة الاساسية التي اكتشفها لينين إبان فترة الحرب الاهلية هي ان البروليتاريا لا تستطيع ان تجذب اليها الجماهير البورجوازية الصغيرة والفلاحية على نحو نهائي واكيد الا بعد النصر على البورجوازية . فالفلاح هو قبل كل شيء انسان عملي واقعي ، والحقائق العينية هي التي تقنعه لا الشعارات والوعود الكلامية والمجردة . والحال ان البروليتاريا لا تستطيع ان تقنعه نهائيا بأفضلية القيادة البروليتارية على القيادة البورجوازية الا بعد استيلائها على السلطة واقامتها البرهان عمليا وواقعيا على محاسن السلطة البروليتارية . وهنا على وجه التحديد يكمن الجانب الديموقراطي لدكتاتورية البروليتاريا ، ذلك ان «سلطة الدولة بين يدي طبقة واحدة ، هي البروليتاريا ، يمكن ويجب ان تصبح أداة لاجتذاب الجماهير الكادحة غير البروليتارية الى جانب البروليتاريا ، أداة لاكتساب هذه الجماهير ضد البورجوازية والاحزاب البورجوازية الصغيرة» .

ولكن واجب اقامة علاقات ديموقراطية صحيحة مع الجماهير غير البروليتارية يجب الا ينسي البروليتاريا دورها كطليعة وكقائدة سياسية للجماهير . والحق

ان الكثيرين من الديموقراطيين البورجوازيين الصغار وحتى من أعداء النظام السوفياتي يمكن ان يرحبوا بشعار التفاهم بين العمال والفلاحين في حدوده العامة والمجردة ، لان مثل هذا الشعار اذا ظل عاما ومجردا يمكن ان يطمس معالم القيادة البروليتارية لهذا الحلف ويغرق نواته المركزية ، البروليتاريا الصناعية ، في بحر الغالبية البورجوازية الصغيرة . وبالمقابل فان التفاهم بين الطبقتين العاملة والفلاحية غير ممكن وغير مقبول وغير سوي بالنسبة الى البروليتاريا الا بمقدار ما يساعد على ترسيخ دعائم الدكتاتورية البروليتارية . والحال ان دكتاتورية البروليتاريا لا يمكن ان تترسخ نهائيا ما دامت محصورة في المدن ، وما لم تتوطد في الارياف كما في المدن . وهذا معناه ان دكتاتورية البروليتاريا لا تستطيع ان تكتفي بالثورة الديموقراطية ، ولا بد لها عاجلا او آجلا ان تتصدى لمهمة التحويل الاشتراكي للعلاقات الاجتماعية في الريف .

لماذا ؟ لان الانتاج الزراعي الصغير ، الذي كرسته الثورة الديموقراطية ، يولد يوميا وباستمرار البورجوازية والرأسمالية على نحو عفوي وتلقائي. والحقيقة التي لا يمكن للبلاشفة ان يخفوها عن انفسهم هي ان مرسوم الارض الصادر غداة ثورة اوكتوبر قد أدى الى تضخم هائل في صفوف البورجوازية الصغيرة الريفية والى تقوية العناصر الكولاكية على حساب العناصر الفلاحية الفقيرة . والبورجوازية الصغيرة هي على وجه التحديد الطبقة الوحيدة القادرة على معارضة الدكتاتورية البروليتارية بعد الاطاحة بالرأسماليين وكبار الملاك العقاريين .

اذن فلا محيد عن الثورة الاشتراكية في الريف . وهذه الثورة ليس لها سوى مضمون واحد : إحداث صدع في الوحدة الطبقية للفلاحين وتمييز الفلاح الكادح عن الفلاح المالك ، الفلاح الكادح عن الفلاح المتاجر ، الفلاح الكادح عن الفلاح المحتكر . وبصيغة عامة جامعة ، فرز الطبقة الفلاحية الى فلاحين فقراء ومتوسطين وأغنياء ، وتأييد الفلاحين الفقراء ضد الاغنياء وتجميد المتوسطين وفرض الحياد عليهم في الصراع بين الفقراء والاغنياء . وما دامت الطبقة الفلاحية «واحدة» وخاضعة بالتالي لهيمنة الكولاك الاقتصادية والسياسية والمعنوية ، فان الثورة في الريف لن تكون قد تجاوزت اطار الثورة الديموقراطية البورجوازية . ولقد قامت البروليتاريا بالفعل بهذه الثورة بمساعدة **مجموع** الطبقة الفلاحية ، ولم يكن ممكنا لها في الاشهر الاولى من ثورة اوكتوبر ان تلجأ الى «ادخال الاشتراكية» الى الريف والى نقل «الحرب الاهلية» الى الريف ، لانها كانت ما تزال بحاجة الى تأييد مجموع الفلاحين في النضال ضد كبار الملاكين العقاريين . اما وقد تمت تصفية الملكية الاقطاعية وبدأت التمايزات الطبقية تتضح في الريف ، فان الشروط الموضوعية للثورة الاشتراكية في الريف قد نضجت ، وبات من الضروري اتخاذ سلسلة من التدابير الانتقالية برسم التحويل الاشتراكي للعلاقات الزراعية . وهكذا تم في ربيع وصيف ١٩١٨ تشكيل لجان ثورية للفلاحين الفقراء سرعان ما تحولت الى سوفييتات للفلاحين

الفقراء .

بيد ان الحرب الاهلية التي اخذت فجأة طابعا بالغ الضراوة وهددت استقرار دكتاتورية البروليتاريا اوقفت سيرورة التحول الاشتراكي في الريف ، وبات واجبا من جديد الاعتماد على مجمل الطبقة الفلاحية في النضال ضد قوى الثورة المضادة .

ولقد مر تحالف العمال والفلاحين إبان الحرب الاهلية بما يمكن ان نسميه بمرحلة التحالف العسكري . وفي هذه المرحلة التي دامت اكثر من ثلاث سنوات تحملت الطبقة الفلاحية عبئا باهظا . فقد كان عليها ان تمول المدن بالحبوب والمواد الغذائية ، وهذا بالرغم من المحل وموتان الماشية والدواجن ، مقابل اوراق نقدية وهمية ، اي عمليا بالمجان . وهذا الارهاق المتواصل قاد الطبقة الفلاحية الى حافة اليأس وولد فيها ميولا فوضوية خطرة وسدد ضربات شبه قاضية الى مبدأ تحالفها مع البروليتاريا . ومن هنا فقد كانت المهمة العاجلة غداة الحرب الاهلية تلبية المطالب الاقتصادية الحيوية للفلاحين ورفع مستوى حياتهم . وبمعنى آخر كان لا بد من تقديم تنازلات سريعة للطبقة الفلاحية ، وعلى وجه التحديد للفلاحين المتوسطين الذين صاروا يشكلون تسعة أعشار هذه الطبقة . وبذلك بدأ ما يمكن ان نسميه بمرحلة التحالف الاقتصادي بين العمال والفلاحين . وقد تترجم هذا التحالف في التراجع من سياسة «شيوعية الحرب» الى «السياسة الاقتصادية الجديدة» التي هي نوع متقدم من رأسمالية الدولة في ظل دكتاتورية البروليتاريا ، والتي ارجأت مسألة الثورة الاشتراكية في الريف الى أجل غير مسمى .

ان محور السياسة الاقتصادية الجديدة هو ارضاء الفلاح المتوسط وتجميد معارضته السياسية وضمان حياده الى اليوم الذي تنتهي فيه الصناعة من تحقيق تراكمها البدائي ويصبح في وسع المدن ان تسدد دينها للارياف وتنقل اليها في الوقت نفسه الثورة الاشتراكية . ولقد كان لينين قد تنبأ بشيء من هذا القبيل قبل ثورة اوكتوبر عندما كتب في نيسان ١٩١٧ يقول ان البروليتاريا الروسية عاجزة بقواها الذاتية وحدها عن انجاز الثورة الاشتراكية بنجاح ، وان قيام الثورة البروليتارية الاشتراكية في اوروبا هو الضمانة الوحيدة للانتصار النهائي للبروليتاريا الروسية .

ويخطىء اولئك الذين يتصورون ان لينين علل نفسه بالاوهام بصدد المساهمة الفلاحية في البناء والتحويل الاشتراكيين . فلينين لم يعتبر التحالف مع الفلاحين سوى الشرط الضروري لاستيلاء البروليتاريا الروسية على السلطة في بلد هي فيه أقلية ، ولكنه لم يعتبره قط الشرط الكافي لانجاز الاشتراكية . وكل ما هنالك ان تواقت حرب الفلاحين والثورة البروليتارية في روسيا يمكن ان يكون حافزا للبروليتاريا الاوروبية والشرارة التي ستضرم الحريق الثوري في الغرب الصناعي الذي هو أمل الخلاص الوحيد للثورة الروسية .

ان شروطا تاريخية محددة هي التي قدرت على العامل الروسي بأن يكون هو البادىء بالثورة . ولقد أمكن لهذه الثورة ان تنتصر في روسيا بسهولة نسبية ، اولا لان البروليتاريا الروسية عرفت كيف تستغل لصالحها تأخر الثورة الديموقراطية الفلاحية ، وثانيا لان روسيا هي الحلقة الضعيفة في السلسلة الامبريالية ، والبدء بتحطيم الحلقة الاضعف هو دوما أسهل من البدء بتحطيم الحلقة الاقوى المتمثلة في الدول الغربية المتقدمة صناعيا . ولكن الروسي لم يبدأ الا لكي ينجز الفرنسي والالماني ، الخ . ولقد كانت قناعة لينين راسخة بأن الاوروبي سينجز ما بدأه الروسي ، ومن هنا كان توكيده المتواصل على استحالة الاشتراكية في روسيا بقواها الذاتية وحدها . ولكن انتظار البلاشفة للثورة الاوروبية طال بلا جدوى . ولقد خيل اليهم في لحظة من اللحظات ان الغرب خرج اخيرا عن صمته وأن الحريق الثوري الاممي قد اندلع مع الثورة الالمانية ، ولكن مرارة الخيبة كانت متناسبة وطول الانتظار . فالثورة البروليتارية الالمانية خنقت وسحقت، ولقد كان لخونة الاممية الثانية من الاشتراكيين ـ الديموقراطيين اليد الطولى في فجيعة الثورة الالمانية . ولم تكن خيانة الاشتراكيين ـ الديموقراطيين هذه غير متوقعة ، وانما كانت توكيدا عينيا لنظرية لينين عن القشرة الارستقراطية من الطبقة العاملة . وربما كان علينا ان نتوقف قليلا عند هذه النظرية حتى نفهم مأزق الثورة الروسية في الايام الاخيرة من حياة لينين .

لقد كان ماركس يردد نقلا عن سيسموندي ان الطبقات الكادحة كانت في الماضي البعيد عالة على المجتمع ، اما البروليتاريا المعاصرة فان كل ثوريتها تكمن في انها اصبحت هي التي تعيل المجتمع الحديث . وبالرغم من ان الامبريالية لم تكن قد تطورت بعد في أيام ماركس وانجلز ، الا ان الماركسية الكلاسيكية استطاعت ان تضع يدها منذ منتصف القرن الماضي على سر التميع في ثورية البروليتاريا بنتيجة مشاطرتها البورجوازية أرباحها الاحتكارية . وقد كتب انجلز الى ماركس في عام ١٨٥٨ يقول : «ان البروليتاريا الانكليزية تتبرجز اكثر فأكثر، وكل الدلائل تشير الى ان هذه الامة البورجوازية اكثر من اي امة اخرى تريد ان تتوصل الى ان يكون لديها ، الى جانب بورجوازيتها ، ارستقراطية بورجوازية وبروليتاريا بورجوازية» . وما كان ظاهرة استثنائية في عصر ماركس وانجلز صار عاما شاملا في عصر لينين ، عصر الامبريالية . وبفضل الارباح الاستعمارية الطائلة ، استطاعت البورجوازية ان ترشو وتشتري أقساما واسعة من بروليتاريا المتروبولات . وبذلك تكونت على سطح الطبقة العاملة قشرة ارستقراطية ترتبط مصالحها مباشرة بالاستعمار وبالبورجوازية الامبريالية . وقد كرس لينين آلاف الصفحات لتشخيص هذا الداء البروليتاري الوبيل ، وشن حربا ضارية لا هوادة فيها على كل انواع الانتهازيين والمتبرجزين من «الاشتراكيين» الاوروبيين . ولكن لينين كان يعتقد ان هذا الداء ليس قاضيا ، وان تقرح القشرة لا يمكن ان يؤثر على سلامة النواة ، وان وجود الحزب البروليتاري الماركسي الثوري كفيل بأن يطهر جسد الطبقة العاملة من سموم القشرة الارستقراطية .

بيد ان لينين اخطأ في توقعاته على ما يبدو . والدليل ان الثورة الروسية بقيت معزولة وان الغرب لم يكتف بأن يبقى صامتا ، بل بذل كل ما في وسعه ليحاصر هذه الثورة وليخنقها . والارجح ان موت لينين المبكر لم يتح له ان ينظر خيبة الامل هذه ، ولكن المقال الاخير (١) الذي كتبه قبيل شلله النهائي يشير الى انه كان قد بدأ بمراجعة شاملة للمخططات الامية للثورة .

ان صورة الثورة الروسية كما يمكن استخلاصها من كتابات لينين الاخيرة هي التالية :

١ ـ لقد أمكن للثورة البروليتارية ان تقوم في روسيا بسبب قوة البروليتاريا النسبية بالمقارنة مع ضعف البورجوازية الروسية .

٢ ـ وأمكن لها ان تقوم لتواقتها مع «حرب الفلاحين» ، تلك الحرب التي كان لا مفر منها بسبب تأخر البورجوازية الروسية وعجزها عن انجاز الثورة الديموقراطية في الريف .

٣ ـ وأمكن لها اخيرا ان تقوم لان البروليتاريا الروسية لم تتلوث بداء الارستقراطية والانتهازية العمالية الوبيل .

٤ ـ ان قيام دكتاتورية البروليتاريا في روسيا هو بداية الثورة الاشتراكية لا انجازها . ولئن أمكن للبروليتاريا الروسية ان تستولي على السلطة بمساعدة الفلاحين ، فان كل آمالها في الاستمرار والتطور وفي بناء الاشتراكية معقودة على النجدة التي لا بد ان تأتي من بروليتاريا الغرب .

٥ ـ والحال ان هذه النجدة لم تأت . وقد لا تأتي لامد طويل .

٦ ـ ما الحل اذن ؟ هل تستنكف البروليتاريا الروسية عن رسالتها التاريخية وتتخلى عن السلطة ، كما دعا الى ذلك بعض البلاشفة ؟ ام هل تستمر ـ وهذا هو الواجب والطريق الوحيد الممكن ـ ولكن السؤال كله هو : كيف يمكن ان تستمر ؟ فالحرب الاهلية قد أبادت نخبة الطبقة العاملة وأرهقت الطبقة الفلاحية ارهاقا لا حدود له . وفي مثل هذه الشروط لا يمكن التفكير بنقل الثورة الاشتراكية الى الريف . ولكن بدون ثورة اشتراكية في الريف ، فان دكتاتورية البروليتاريا في المدن لا معنى لها ومقضي عليها بالانهيار .

٧ ـ اذن ؟ الحق ان هناك ظروفا مساعدة يمكن للبروليتاريا الروسية ان تستغلها : اولا التناقضات داخل المعسكر الامبريالي التي يمكن ان تلهي الامبريالية العالمية عن شن حرب موحدة ضد الدولة السوفياتية ، وثانيا ثورة المستعمرات التي يمكن ان تكون بديلا جزئيا عن النجدة التي كانت تنتظر بفارغ الصبر من بروليتاريا المتروبولات .

٨ ـ ولكن ضمانة استمرار الثورة في روسيا لا يمكن ان تقتصر على هذه

---

١ ـ لينين «أقل شرط ان يكون احسن» ـ المؤلفات الكاملة ـ المجلد ٣٣ ـ ص ٥٠١ ـ ٥١٧ .

الظروف الدولية الخارجية التي تظل في التحليل الاخيرة مجرد ظروف مساعدة. ان الضمانة الحقيقية لا يمكن ان تأتي الا من الداخل . وليس من قوة في الداخل غير الفلاحين .

٩ ــ الفلاحون ؟ ولكنهم في روسيا ، وفي تسعة أعشارهم ، من الفلاحين المتوسطين ، اي على وجه التحديد من تلك الطبقة الضيقة الافق التي ترى وتؤمن ان حدود الوطن تبدأ وتنتهي عند حدود قطعة الارض الصغيرة .

١٠ ــ ولكن البروليتاريا لا خيار لها . والماركسية هي اولا واخيرا علم التعامل مع الواقع . وما دام الفلاحون هم القوة الداخلية الوحيدة ، فلا مناص من الاعتماد والمراهنة عليهم . اذن فلا مناص ايضا من الاستمرار في رفع شعار تحالف العمال والفلاحين ومن السعي بكل الوسائل الممكنة لتحويله الى حقيقة واقعة . وعلى العمال والبلاشفة القيام بمسيرة مماثلة لمسيرة الشعبيين : فليذهبوا الى الشعب ، الى الفلاحين ، الى شعب الفلاحين . ولئن كان قدر الريف ان تقوده المدينة ، فان المدينة لا أمل لها بالبقاء بدون تأييد الريف ورفده الدائم لها .

١١ ــ هذا لمرحلة اولى على الاقل ، ولمرحلة طويلة بلا ادنى شك . وهذا بشرط الا ينسى احد ان درجة محددة من الحضارة هي شرط الانتقال الى الاشتراكية ، وأن الحضارة هي على وجه التحديد المدينة والصناعة التي تحرر البشر من بلادة الحياة القروية .

١٢ ــ فلنتمدين ولنتحضر : هذه هي وصية لينين الاخيرة . فلنطور الصناعة الميكانيكية الكبيرة والكهربة والتعدين . فالاشتراكية هي الكهربة زائد دكتاتورية البروليتاريا .

١٣ ــ ولكن الصناعة لا بد لها من رأسمال ، من تراكم بدائي . ولا مناص للبروليتاريا من الاستمرار في تحمل الحرمان وفي اتباع سياسة الاقتصاد والتقشف . ولكن لا مناص ايضا من ان تقاسمها الطبقة الفلاحية هذا المصير . ففي قطر زراعي ، يشكل انتاج الفلاحين مصدرا اساسيا لتمويل الصناعة . وهذه حقيقة قد لا يفهمها الفلاحون بسهولة وقد لا يريدون ان يفهموها . ومن هنا فان قيادة البروليتاريا للطبقةالفلاحية تظل واجبا مطلقا ، لا لضمان انتصار الاشتراكية فحسب ، بل ايضا لضمان وفاء المدينة ذات يوم بدينها للريف .

١٤ ــ هذا هو أمل الثورة الروسية في البقاء والتطور : الصمود ازاء الحصار الامبريالي ، والتقشف ، ومراكمة الرأسمال الضروري للصناعة ، والحفاظ على تحالف العمال والفلاحين تحت قيادة البروليتاريا .

ولعل الشرط الاخير هذا هو الذي يلخص تاريخ اللينينية وجوهرها ومفارقتها الكبرى : فتحالف العمال والفلاحين ، الذي هو محور المساهمة اللينينية في تطوير الاستراتيجية الطبقية للثورة الاشتراكية في العلم الماركسي ، يؤكد مع الماركسية الكلاسيكية الغربية ، ان لا اشتراكية فلاحية ، ولكنه لا يؤكد ذلك الا ليضيف باسم روسيا وآسيا والشرق ان لا اشتراكية بدون الفلاحين .

ولكن هذا التطوير اللينيني ، الروسي ـ الآسيوي ان جاز التعبير ، لا يتناقض البتة مع الجوهر الغربي الماركسية التي تؤكد ان البروليتاريا الصناعية هي ، وهي وحدها ، عامل الثورة الاشتراكية . فلينين لم يخالف قط هذا التوكيد ، وانما أكمله بتوكيد آخر ينص على ان الفلاح هو رفيق الطريق للبروليتاريا وللثورة الاشتراكية . وبدون هذا الرفيق لا يمكن اجتياز الطريق ، ولكن اجتياز الطريق نفسه غير مطلوب الا للخلاص من هذا الرفيق . ولينين عند هذه النقطة المحددة صريح صراحة مطلقة : «انما هنا ، وهنا فقط ، يكمن أملنا. وبعد ذلك فقط نستطيع ، اذا ما اردنا استخدام صورة مجازية ، ان نبدل الحصان ، ان نتخلى عن حصان الفلاح الهزيل ، حصان الادخار المفروض على قطر زراعي منهوك ، لنمتطي الحصان الذي تبحث عنه البروليتاريا ولا يمكنها الا ان تبحث عنه ، وأعني حصان الصناعة الآلية الكبيرة ، حصان الكهربة ، حصان محطة فولخوف الكهربائية ، الخ» .

اذن فالتنازلات التكتيكية ممكنة ، ولكن لا مساومات على النظرية والمبادىء: فالاشتراكية عند لينين كما عند ماركس هي ملكوت المدينة الصناعية وسعة أفقها، لا ملكوت القرية ببلادتها وضيق أفقها .

والمستقبل الرائع الذي ينتظر الانسان ، المستقبل الذي سيبدأ فيه التاريخ الحقيقي للانسانية المتحررة من عبودية الضرورة ، هو المستقبل الذي لا يعود فيه لا ريف ولا مدينة ، ولا عمل يدوي ولا عمل فكري ، المستقبل الذي يمسي فيه العالم كله مدينة كبيرة واحدة ترث من الريف الراهن طلاقة هوائه من غير ان ترث روثه ، وترث من المدينة الراهنة سهولة حياتها وسرعة تلبيتها لحاجات الانسان ومنجزاتها الحضارية من غير ان ترث زحامها وفساد هوائها . مدينة كبيرة واحدة ، شوارعها هي أريافها . مدينة قد لا يرى فيها الكثيرون اكثر من «مدينة فاضلة» ، ولكنها تتميز عن سائر المدن الفاضلة بأنها ممكنة ولو في مستقبل بعيد لان الطاقة الانتاجية التي حررها الانسان المعاصر من عقالها هي طاقة بلا حدود .

تروتسكي

الثورة الدائمة

لعل ما من نظرية من نظريات الفكر الثوري الحديث اسالت من المداد وأثارت من المناقشات وألهبت القرائح وأرّثت الاحقاد كنظرية «الثورة الدائمة» التي وضعها تروتسكي في مستهل هذا القرن . والحق ان عشرات آلاف الصفحات التي سودت حول نظرية تروتسكي هذه تجعلنا نتساءل : أنحن امام «ثورة دائمة» ام «مناظرة دائمة» ام «ثرثرة دائمة» ؟!

ان الاصول التاريخية لنظرية الثورة الدائمة تعود كما في رأينا في الفصل الاول من هذا الكتاب الى ماركس الذي حث اعضاء **العصبة الشيوعية** والعمال الالمان في ١٨٥٠ على ان يكون شعار نضالهم «الثورة الدائمة» . ولكن ما كان لدى ماركس مجرد فكرة شبه عارضة ، مجرد تكتيك مرتبط بظروف محددة من تطور الثورة الالمانية في منتصف القرن التاسع عشر ، اخذ لدى تروتسكي صورة نظرية كاملة متكاملة ، نظرية ارادها في بادىء الامر صيغة او استراتيجية ثورية مناسبة للشروط الموضوعية الخاصة بروسيا ، ثم عممها او عممها أتباعه استراتيجية مطلقة للثورة الاشتراكية في العالم قاطبة .

لقد صاغ تروتسكي نظريته في ظروف تاريخية خاصة ، بل شديدة الخصوصية : ظروف الصراع بين المناشفة والبلاشفة ورغبته هو في ان يكون فوق هذا الصراع وحكَمه .

صاغ نظريته اولا ضد المناشفة مؤكدا ان الثورة البورجوازية مستحيلة في روسيا لان البورجوازية الليبيرالية الروسية تبرز كقوة مناهضة للثورة

الديمقراطية حتى قبل ان تبلغ هذه الثورة ذروتها .

وصاغها ثانيا ضد البلاشفة مؤكدا ان الطريق الى الاشتراكية لا يمر بمرحلة الديموقراطية ولا حتى بمرحلة الدكتاتورية الديموقراطية للعمال والفلاحين ، وانما يمر فورا ورأسا بدكتاتورية البروليتاريا .

واستراتيجية تروتسكي هي بالبداهة أقرب الى استراتيجية لينين منها الى استراتيجية بليخانوف . ذلك ان نظرية الثورة الدائمة هي في التحليل الاخير نظرية حرق المراحل . وفي الوقت الذي كان فيه التكتيك المنشفي ينطلق من مبدأ حتمية المراحل بتمامها ، كان التكتيك البلشفي ينطلق من ضرورة حرق مرحلة واحدة على الاقل ، مرحلة القيادة البورجوازية للثورة البورجوازية الديموقراطية . ومن وجهة نظر حرق المراحل على وجه التحديد تبدو النظرية التروتسكية متقدمة بمرحلتين على النظرية المنشفية وبمرحلة واحدة على النظرية البلشفية .

ولكن قبل الدخول في اي مقارنات من هذا النوع يجب ان نعرض اولا بشيء من التفصيل مضمون نظرية الثورة الدائمة .

ان تروتسكي هو العبقرية الثانية التي انتجتها الحركة الثورية الروسية بعد لينين [1] . وإحدى الدلائل المبكرة على عبقريته انه استطاع ، وهو لما يتجاوز الخامسة والعشرين ، وفي عصر انحطت فيه الماركسية الى مذهبية مبتذلة ، لا ان يدرك ان الماركسية ليست أسلوبا لتحليل النصوص وانما أسلوب لتحليل العلاقات الاجتماعية فحسب ، بل ايضا ان يطبق هذا الفهم للماركسية تطبيقا عينيا من خلال تحليل العلاقات الاجتماعية في روسيا أوائل القرن .

ان نقطة انطلاق تروتسكي هي انه من المحتمل ان يصل العمال الى الحكم في بلد متخلف اقتصاديا قبل وصولهم اليه في بلد متقدم . وصحيح ان تطور البروليتاريا مرهون بتطور الرأسمالية ، ولكن هذا لا يعني ان توقيت انتقال الحكم الى أيدي البروليتاريا مرهون فقط بالمستوى الذي بلغته قوى الانتاج . فتطور قوى الانتاج هو احد العوامل ليس الا ، اما العوامل الاخرى فتتمثل في العلاقات على صعيد الصراع الطبقي وفي ميزان القوى العالمي وفي عدد من العوامل الذاتية كتقاليد الطبقة العاملة ومبادرتها ووعيها واستعدادها للنضال .

ان المادية الاقتصادية التافهة هي وحدها التي تزعم ان قيام دكتاتورية البروليتاريا وقف على المستوى الذي بلغه تطور قوى الانتاج . والحال ان وجهة

---

١ ـ هذا لا يعني ان تروتسكي عديل لينين . ولئن كان ترتيبه يأتي الثاني بعده ، فهذا لا يعني ان المسافة التي تفصل بينهما قصيرة ، ولكن لا بد ايضا ، إنصافا لتروتسكي ، من الاضافة بأن المسافة التي تفصله عن سائر القادة البلاشفة ابعد من المسافة التي تفصله عن لينين .

النظر المادية الاقتصادية المحضة لا تمت الى الماركسية بصلة ، وهي تتجاهل ان البروليتاريا وان كانت تمثل احدى قوى الانتاج فانها هي وحدها التي تمثل الجزء غير الآلي في معادلة قوى الانتاج ، وبالتالي الجزء الذي لا يمكن التحكم به وتوجيهه وتوقع ردود فعله على نحو مسبق .

ان الماركسيين المبتذلين (ومن بينهم المناشفة) يزعمون ان دكتاتورية البروليتاريا مستحيلة في روسيا لان البروليتاريا ما تزال أقلية الشعب بالنسبة الى الفلاحين ، ولان المدن نفسها ، اي مراكز الصناعة ، ما تزال أقل اهمية بكثير من الارياف . ولكن ما تتجاهله الماركسية المبتذلة هو ان قوة البروليتاريا لا تقاس بعددها وحده ، وان درجة قوة المدن او ضعفها لا تتحدد فقط بنسبة عدد سكانها الى عدد سكان الريف .

لنأخذ المدن على سبيل المثال . ان الاحصاءات تشير الى ان عدد سكان المدن الروسية قد بلغ ١٦ مليونا في عام ١٨٩٧ ، اي ما يقارب ١٣ بالمئة من مجموع عدد السكان . ولكن هذه النسبة لا توضح درجة الهيمنة الحقيقية التي تمارسها المدن على الريف ، ولا بد هنا من اعتماد عدة اعتبارات اخرى . فالمدن في روسيا هي من صنع التاريخ الحديث . ففي نهاية عهد بطرس الاول لم يكن عدد سكان المدن يزيد كثيرا عن ٣٢٨،٠٠٠ ، اي عن ٣ بالمئة من مجموع السكان . وفي نهاية القرن الثامن عشر ، ١،٦٣٠،٠٠٠ ، أي ٤ بالمئة من مجموع عدد السكان . وفي منتصف القرن التاسع عشر ، بلغ ٣،٤٨٢،٠٠٠ ، اي ٧،٨ بالمئة من المجموع . وفي مرحلة بداية التطور الصناعي الرأسمالي ارتفع بصورة مفاجئة ليبلغ أكثر من ١٦ مليون في عام ١٨٩٧ . اذن فالتزايد المطرد في نسبة نمو سكان المدن هو مقياس اساسي في تحديد مدى هيمنة المدينة على الريف .

ولعل ما من شيء يؤكد صحة الاطروحة القائلة بأن تاريخ الرأسمالية هو تاريخ تبعية الريف للمدينة كالاحصاءات التي تشير الى نسبة تطور المدن والارياف بين عامي ١٨٨٥ و١٨٨٧ على سبيل المثال . فقد ازداد عدد سكان المدن ما بين هذين العامين بنسبة ٣٣،٨ بالمئة ، في حين لم تتجاوز نسبة زيادة سكان الريف ١٢،٧ بالمئة . وهذا معناه ان نسبة نمو سكان المدن تفوق بثلاثة أضعاف نسبة نمو سكان الريف .

ثم ان نسبة النمو هذه لا تكفي وحدها للتدليل على مدى نفوذ المدينة على الريف . فالمدينة الروسية الحديثة (الرأسمالية) لا تختلف عن المدينة القديمة بعدد سكانها فحسب ، ولكن في طبيعتها الاجتماعية ايضا . فالمدن القديمة لم تكن الا مراكز ادارية وعسكرية يعيش سكانها على حساب خزينة الدولة . اما المدن الحديثة فهي مراكز الحياة التجارية والصناعية . والمدن القديمة كانت مدنا استهلاكية غير منتجة ، وذلك بعكس المدن الحديثة التي هي مراكز للانتاج . وحصة المدن من الانتاج القومي بالقياس الى عدد سكانها هي اكبر من حصة الارياف . ومن هذا كله يتضح ان قوة المدن لا تقاس بعدد سكانها

وحـــده (١) .

وكذلك الامر بالنسبة الى البروليتاريا . فقوتها لا تقاس بعددها وحده ، وانما بالوضع الذي تحتله في الانتاج ، بكتلة القوى الانتاجية التي تتولى تحريكها . فالعامل في مصنع كبير يملك ثقلا اجتماعيا اكبر من الثقل الذي يملكه عامـــل يدوي . وكذلك يملك العامل في المدينة ثقلا اكبر من ذاك الذي يملكه العامـــل في الريف . وبعبارة اخرى ، ان «الدور السياسي الذي تلعبه البروليتاريـــا يتعاظم بقدر ما يزداد طغيان الانتاج الكبير على الصغير ، وبقدر ما تسيطر الصناعة على الزراعة وتسيطر المدينة على الريف» .

وثمة سبب آخر للدور السياسي الكبير الذي يمكن ان تلعبه البروليتاريا في روسيا ، دونما اعتبار لتناسبه الميكانيكي مع حجمها ، وهو ان الرأسمـــال الروسي ذو اصل اجنبي في معظمه ، وان الدرجة العالية من تركز الصناعـــة الروسية حكمت على البورجوازية الرأسمالية بأن تكون طبقة قليلة العدد . ان البروليتاريا الروسية تستمد قوتها من واقع ان العدو الطبقي الذي تواجهه هو عدو ضئيل للغاية عدديا ، معزول عن الشعب بحكم ان نصفه اجنبي ، مفتقر الى التقاليد التاريخية العريقة باعتبار انه لم ينم نموا طبيعيا على الارض الروسيـــة وانما جلب اليها من الخارج وعلى نحو مفاجىء .

وهنا يستشهد تروتسكي بكاوتسكي ليؤكد عدم وجود علاقة مباشرة بين قوة البروليتاريا السياسية وبين مستوى تطور الصناعة وقوى الانتاج . فكاوتسكي في كتابه «العمال في روسيا وأميركا» يلاحظ ان العلاقات الاجتماعية الواقعيـة ليست محض انعكاس للمعادلات الاقتصادية المجردة وأن التطور السياسي ليس نسخة طبق الاصل عن التطور الاقتصادي ، ويضرب روسيا وأميركا مثالا علـــى ذلك . ففي اميركا نمت الطبقة الرأسمالية ، بينما في روسيا نمت البروليتاريا . ولا تتجلى دكتاتورية الرأسمال كما تتجلى في اميركا ، بينما لم تبلغ البروليتاريا مستوى من النضالية كالمستوى الذي وصلت اليه في روسيا .

ما تفسير ذلك ؟ ان تروتسكي سيجيب على هذا السؤال بعد حوالي ربع قرن من الزمن في كتابيه «الثورة الدائمة» و«تاريخ الثورة الروسية» : انه قانـــون التطور غير المتكافىء وقانون التطور المركب . ولكن فلنؤجل هذا التفسير بدورنا الى ما بعد ، ولنكتف هنا بأن نتساءل مع تروتسكي في «نتائج وتوقعات» : ما الذي ينبغي استنتاجه من تلك الملاحظات كلها ؟

هل ينبغي على البروليتاريا ان تنتظر ، لكي تستولي على الحكم ، أن تنمو

---

١ ــ بديهي ان الارقام التي يقدمها تروتسكي في كتابه «نتائج وتوقعات» (نشر بالعربية مع «الثورة الدائمة» دار الطليعة ــ بيروت) لا تقارن ، على اهميتها ، بالعمل الاحصائي الجبار الذي قام بـــه لينين في كتابه «تطور الرأسمالية في روسيا» . ولكننا توقفنا عند ارقام تروتسكـــي لصلتها الوثيقة بتكوين فكره السياسي .

وتتطور مع نمو الصناعة الرأسمالية وتطورها ، الى ان تصبح لها الغالبية العددية المطلقة ؟

هل ينبغي على العمال الروس ، كما يزعم الماركسي المبتذل فولمار ، ان يخلدوا الى النوم والا يفكروا باستلام الحكم ، قبل ان تنضج الشروط المادية الموضوعية المزعومة للثورة الاشتراكية وتصبح البروليتاريا هي غالبية السكان الساحقة ؟

كلا ، ان تلك الملاحظات والوقائع تشير الى العكس على وجه التحديد : ان من واجب البروليتاريا الروسية ان تسعى الى الاستيلاء على السلطة السياسية واقامة دكتاتوريتها الطبقية البروليتارية .

ولكن أليس في هذا تجاوز وخرق فظ لنظرية حتمية المراحل المزعومة المنسوبة الى ماركس؟ أليس ماركس هو القائل «كما يكون السيد يكون الانسان؟». واذا لم تكن البورجوازية الروسية من القوة بحيث تستولي على الحكم ، فكيف تتصور البروليتاريا الروسية ان لها هي مثل هذه القوة ؟

هذا كله صحيح ، ولكن في المخططات والكتب . اما في الواقع والحياة ، فان الامور لا تسير وفق كليشهات مقررة سلفا . ولو استعاض المرء عن تحليل نصوص الماركسية بتطبيق أداة التحليل الماركسي على العلاقات الاجتماعية ، لأمكن له بسهولة ان يستنتج ان « الانسان » الروسي سوف يستلم الحكم قبل « سيده » .

ان الخلاف بين الماركسيين الروس ليس على ضرورة الثورة ، ولا حتى على حتميتها ، وانما على القوة او الطبقة التي ستقودها ، وكذلك على مضمونها ومداها .

ان المناشفة يتصورون ان التاريخ يكرر نفسه وأن المطلوب من الثورة الروسية ان تكون نسخة طبق الاصل عن الثورة الفرنسية الكبرى ، اي ثورة بورجوازية ديموقراطية بقيادة البورجوازية . ولكن التاريخ لا يكرر نفسه ، والبورجوازية الروسية تقف ، بعكس أختها الفرنسية ، في صف مناهضي الثورة لا في صف مؤيديها .

ان كل التكوين التاريخي للبورجوازية الروسية يقضي عليها بأن تكون مناهضة للثورة . ولكن ما يخرجها من معسكر الثورة هو ظروف روسيا التاريخية في عام ١٩٠٥ المختلفة اختلافا جذريا عن ظروف فرنسا في عام ١٧٨٩ . ففي عام ١٧٨٩ أمكن للمجتمع البورجوازي ان يصفي حسابه مع سادة الامس من خلال انتفاضة الامة بأسرها على تحكم الاقطاع ، وانقضاضها كالاسد على الحكم المطلق. وفي تلك الحقبة البطولية من التاريخ الفرنسي ، وجدت طبقة بورجوازية نشيطة ومتنورة استطاعت ان تعبىء جماهير الامة قاطبة تحت لواء ايديولوجيتها الديموقراطية . ولكن طريق الثورة في روسيا عام ١٩٠٥ ليس طريق انقضاض الامة ككل ، وانما طريق الصراع الطبقي العنيف والحاد داخل الامة نفسها . لقد امكن للبورجوازية الفرنسية ان تقود الامة كلها لان التناقضات

الطبقية داخل هذه الامة لم تكن قد انفجرت بعد . اما في روسيا فقد انقسمت الامة على نفسها نهائيا وانفجر الصراع الطبقي على أعنف ما يكون بين البروليتاريا والبورجوازية حتى قبل ان يتاح لهذه الاخيرة التفكير بقيادة الامة الى الجمهورية الديموقراطية .

ان جماهير المدن في عام ١٧٨٩ كانت تتألف من الحرفيين وأصحاب الحوانيت وسائر البورجوازيين الصغار . ولهذا امكن لها ان تسير تحت راية البورجوازية . اما في روسيا فان جماهير المدن هي جماهير بروليتارية ، والبروليتاريا بخلاف الحرفيين لا تملك اي استعداد عفوي للسير تحت لواء البورجوازية . ان البورجوازية تمثل لاصحاب الحرف ما يمكن ان يكونوه وما يحلمون في ان يكونوه ، اما بالنسبة الى البروليتاريا فهي لا تمثل الا الأغلال وأبشع أشكال الاضطهاد .

ان البورجوازية الصناعية الروسية لا بد ان تدفع ثمن نشأتها الغريبة ، الاجنبية ، اللاطبيعية . فالصناعة في روسيا لم تتطور بدءا من الحرف ومن ورشات الصناعة اليدوية . ولهذا فلا عجب ألا تجد البورجوازية الروسية تحت امرتها جماهير حرفية منقادة لها . والصناعة الروسية ، بالرغم من تأخر سنة ميلادها ، لم تتأخر عن الاخذ بأحدث أشكال الانتاج الرأسمالي ، اي بالتركز الشديد للرساميل . ولهذا ايضا فلا عجب ان تكون البورجوازية الروسية قد واجهت من البداية بروليتاريا نامية ، متركزة ، موحدة ، واعية لقوتها ، ثائرة على بؤسها .

ان تطور الصراع الطبقي في روسيا بين البروليتاريا والبورجوازية حتى قبل ان يتاح لهذه الاخيرة ان تلعب دورها التاريخي كقائدة للامة الديموقراطية في نضالها ضد الاقطاع والحكم المطلق لا يمكن ان يعني الا شيئا واحدا وهو ان الركب الثوري قد فات البورجوازية وأن الطريق الى الثورة لا يمر من خلال قيادة البورجوازية وانما على أشلائها .

هذه هي الموضوعة الاولى في النظرية التروتسكية عن الثورة الدائمة ، وهي تؤكد ، بخلاف ما يزعمه اعداء تروتسكي من الستالينيين ، ان الثورة الدائمة ليست نظرية منشفية ، بل هي على العكس نظرية موجهة من الاساس ضد المناشفة .

ولكن اذا كان قطار الثورة قد فات البورجوازية الروسية ، فهل هذا معناه أن الثورة البورجوازية نفسها قد فات أوانها ؟

هذا ما تؤكده صيغة تروتسكي عن الثورة الدائمة ، وهنا تكمن نقطة خلافه مع البلاشفة بدورهم .

ان تروتسكي يلتقي مع البلاشفة في توكيدهم ان البورجوازية ليست هي محرك الثورة الروسية ، ولكنه يفترق عنهم في توكيده ان الثورة الروسية ليست ثورة بورجوازية ، او بتعبير أدق ، لا تستطيع ان تتوقف عند المضمون البورجوازي الديموقراطي للثورة .

ان ما يأخذه تروتسكي على البلاشفة هو تمسكهم «المجرد» بالتسمية البورجوازية للثورة : «ان العبارة السوسيولوجية العامة ، «ثورة بورجوازية» ، لم تعد قادرة على حل القضايا السياسية والتكتيكية ولا التناقضات التي يطرحها علينا تركيب ثورة بورجوازية» .

ان تروتسكي لا ينكر المضمون البورجوازي الديموقراطي للثورة الروسية فيما يتعلق بمهامها التاريخية العاجلة : الاطاحة بالقيصرية وحل المسألة الزراعية ، ولكنه ينكر ان يكون هذا المضمون هو أفق الثورة . فالثورة الروسية ثورة مستمرة ، وهدفها النهائي هو الاشتراكية . وعلى الطريق الى هذا الهدف النهائي تقع مهمة انجاز الثورة البورجوازية الديموقراطية . والحال ان مصطلح الثورة البورجوازية الذي يتمسك به البلاشفة يخفي عن أنظار البروليتاريا الهدف النهائي الذي تسعى اليه ، ويدخل في روعها انه ليس لها من مهمة غير توفير الظروف الطبيعية لتطور المجتمع البورجوازي وخلق الشروط الديموقراطية والجمهورية لسيطرة البورجوازية اجتماعيا ؛ وبكلمة واحدة ، ليس لها من مهمة غير ان تتخلى للبورجوازية عن السلطة بعد استيلائها عليها .

ان التكتيك المنشفي هو في نظر تروتسكي ، ومن الان ، تكتيك مناهض للثورة لانه يحكم على البروليتاريا بأن تكون مجرد ذيل تابع للبورجوازية الليبرالية اثناء المرحلة الديموقراطية من الثورة ، اما التكتيك البلشفي الذي يقصر مهمة البروليتاريا على انجاز الثورة الديموقراطية رغم أنف البورجوازية وضدها عند الحاجة فهو يهدد في المستقبل ، والمستقبل فقط ، بأن يغدو مناهضا للثورة لانه يوحي للبروليتاريا بأن عليها بعد تنفيذ البرنامج الديموقراطي ان تخلي الطريق للاحزاب البورجوازية وتنتقل هي الى صفوف المعارضة . ان السمات المناهضة للثورة تبرز في التكتيك المنشفي حتى قبل قيام الثورة ، ولكنها لن تبرز في التكتيك البلشفي الا بعد انتصار الثورة .

ان التكتيك المنشفي يلغي الثورة من الاساس ، اما التكتيك البلشفي فانه يقف ، ربما عن غير قصد ، عقبة في وجه استمرارية الثورة وديمومتها ، اي في وجه تحولها من ثورة بورجوازية ديموقراطية الى ثورة اشتراكية . وفي حين يرفع المناشفة شعار الثورة البورجوازية بقيادة البورجوازية ، ويرفع البلاشفة شعار الثورة البورجوازية بدون البورجوازية ، يرفع تروتسكي ضد الطرفين معا شعار الثورة الدائمة التي لا تبدأ بانجاز مهام المرحلة الديموقراطية الا لكي تباشر انجاز مهام المرحلة الاشتراكية .

واذا ما حصرنا الخلاف حول استراتيجية الثورة بين لينين وتروتسكي فمن الممكن القول بأن لينين كان يعتبر انجاز المهام الديموقراطية شرطا لقيام دكتاتورية البروليتاريا ، في حين ان تروتسكي اعتبر ان دكتاتورية البروليتاريا هي الشرط المسبق الضروري لانجاز مهام الثورة الديموقراطية . ومن هنا كان اعتراض تروتسكي على صيغة لينين : «دكتاتورية العمال والفلاحين الديموقراطية» .

فصحيح ان هذه الصيغة تقصي البورجوازية عن معسكر الثورة ، ولكنها تلزم الصمت في الوقت نفسه عن آفاق الثورة واحتمالات تطورها . وهي بالاضافة الى ذلك لا تجيب على سؤال بالغ الاهمية : لمن ستكون الهيمنة في الدكتاتورية الديموقراطية ؟ أللعمال ام للفلاحين ؟

ان تروتسكي يشارك لينين الراي بأن المسألة الزراعية والفلاحية هي محور الثورة الروسية ، ويؤكد معه ان تأخر البورجوازية الروسية عن حل المسألة الزراعية هو الذي يعطي البروليتاريا الروسية فرصة نادرة للاستيلاء على السلطة بدون انتظار اكتمال تطور المجتمع البورجوازي . وبالرغم من كل الاتهامات الستالينية لنظرية الثورة الدائمة بالقفز فوق الحركة الفلاحية ، فاننا نستطيع ان نقول بكل اطمئنان ان تروتسكي قد أكد من البداية ان البروليتاريا الروسية لن تستطيع ، وهي في وضع الاقلية الذي هي عليه ، الاستيلاء على السلطة الا اذا تلقت الدعم من ملايين وملايين الفلاحين . ولكن تروتسكي رفض من البداية ايضا اقامة علاقة تعادل وتساوٍ بين العمال والفلاحين لان الفلاحين «عاجزون تماما عن القيام بدور سياسي مستقل» .

ولعلنا نضع هنا اصبعنا على جوهر الخلاف بين لينين وتروتسكي . ففي حين ان لينين آمن لحقبة طويلة من الزمن بامكانية قيام حزب فلاحي مستقل ودعا لقيامه ، نجد تروتسكي يؤكد منذ عام ١٩٠٥ ان الحزب الفلاحي مستحيل لان الهلامية هي الماهية الاساسية للفلاحين كطبقة . وصيغة «دكتاتورية العمال والفلاحين الديموقراطية» ممكنة فيما لو توصل الفلاحون الى تأسيس حزب خاص بهم يمثلهم في الحكومة الثورية . اما وان الحزب الفلاحي مستحيل ، فان الدكتاتورية لا يمكن ان تكون غير دكتاتورية البروليتاريا المدعومة من الفلاحين . وليست التسمية هي المهمة في التحليل الاخير . فمن الممكن تسمية الحكومة الثورية بأنها «دكتاتورية العمال والفلاحين» او «دكتاتورية البروليتاريا والفلاحين والانتلجانسيا» او حتى «حكومة تحالف الطبقة العاملة مع البورجوازية الصغيرة»، ولكن يبقى السؤال مطروحا : لمن ستكون الهيمنة في هذه الحكومة ؟

ان صيغة لينين عن الدكتاتورية الديموقراطية لا تجيب في نظر تروتسكي على هذا السؤال ، في حين ان صيغة «دكتاتورية البروليتاريا المدعومة من الفلاحين» تحدد بأن الهيمنة والقيادة لا يمكن ان تكونا لغير البروليتاريا والحزب العمالي ، وهذا من غير ان تتغافل في الوقت نفسه عن الدور الثوري للفلاحين كقوة حليفة داعمة ، ولا عن اهمية الثورة الزراعية كمدخل الى الثورة الاشتراكية .

ولكن هل هذا معناه ان لينين قد أخطأ ؟ هذا امر لا شك فيه في نظر تروتسكي قبل ثورة اوكتوبر ١٩١٧ . ولكن تروتسكي اعاد تقييم مواقفه ومواقف لينين بعد انضمامه الى البلاشفة في الفترة الفاصلة بين ثورتي شباط وأوكتوبر

١٩١٧ . وما كتابه «الثورة الدائمة» (١) ، الذي حرره في عام ١٩٢٨ دفاعاً عن نفسه ضد اتهامات الستالينيين والذي هو بحق أثر فذ في ادب السجال والمناظرة ، الا محاولة لاعادة تقييم نظرية الثورة الدائمة وارتباطها بالاستراتيجية اللينينية على ضوء أحداث اوكتوبر .

ان اول ما يلاحظه تروتسكي ، وبسرور ، هو ان لينين الذي كان قد وصف نظريته ذات يوم بأنها «ثرثرة دائمة» قد انتهى عمليا في الفترة الفاصلة بين ثورتي شباط وأوكتوبر ١٩١٧ الى تبني استراتيجية الثورة الدائمة . فمنذ نيسان ١٩١٧ طالب لينين كما رأينا بسحب شعار دكتاتورية العمال والفلاحين الديموقراطية من التداول ، ورفع مكانه شعار دكتاتورية البروليتاريا المتحالفة مع الفلاحين . كذلك فان لينين هدم الحاجز الفاصل بين الثورة الديموقراطية والثورة الاشتراكية ، وعلى حد تعبير تروتسكي الحاجز الفاصل بين برنامج الحد الادنى وبرنامج الحد الاعلى ، وصار يتكلم عن **نضج** الثورة الديموقراطية الى ثورة اشتراكية ، اي بالضبط كما كان تروتسكي يتكلم في عام ١٩٠٥ وما بعده .

من الممكن اذن ان يكون لينين قد اخطأ **نظريا** ، ولكنه ، ومهما بدا ذلك متناقضا ، لم يخطىء على الصعيد العملي . وبالفعل ، لا ينبغي النظر الى فكر لينين على اساس من القوالب الجامدة ، وانما تاريخيا : «ان لينين لم يأت بوصايا جاهزة من جبل سيناء ، ولكنه كان يصوغ الافكار والشعارات لتتلاءم مع الواقع ، فيجعلها محددة دقيقة ويملأها في مناسبات متنوعة بمضامين متغيرة». والتناقض النظري لصيغته عن دكتاتورية العمال والفلاحين الديموقراطية لا يغير شيئا من حقيقة ان هذه الصيغة لعبت دورها الايجابي كمعادلة جبرية ، كفرضية للعمل .

ان التقييم النظري لصيغة الدكتاتورية الديموقراطية لا يغني عن ضرورة تقييمها تاريخيا. ومن وجهة النظر التاريخية فان صيغة الدكتاتورية الديموقراطية قد تكونت في معرض النقاش حول طبيعة الثورة الروسية وقواها المحركة ، وعلى وجه التحديد في ظروف الانقسام التاريخي بين المناشفة والبلاشفة . لقد كانت صيغة موجهة ضد الماركسية المبتذلة وضد التصور المنشفي عن الدور الثوري للبورجوازية الليبيرالية الروسية ، وتكونت في معرض النضال ضد الانتهازية المنشفية وضد تبجحات الليبيراليين . والحال ان تروتسكي اتخذ ، في الصراع بين المناشفة والبلاشفة ، موقفا توفيقيا . ومن هنا فان نظريته عن الثورة الدائمة بقيت مجرد نظرية ولم يكتب لها قط ان تتحول الى فرضية للعمل .

ان صيغة لينين ، بالرغم من تناقضها النظري ، اسهمت عظيم الاسهام في ابراز الدور القيادي للبروليتاريا في الثورة الروسية . وبالمقابل فان صيغة تروتسكي ، بالرغم من صحتها النظرية ، لم تقدم او تؤخر في توضيح الرؤية

---

١ – منشورات دار الطليعة – بيروت ١٩٦٨ .

الثورية في الاعوام الممتدة بين ١٩٠٥ و١٩١٧ ، لانها لم تتحول الى ممارسة ، لم تجد قوى فعلية في الحركة الثورية لتتبناها ، ولأن موقف تروتسكي العملي بطابعه التوفيقي كان متناقضا مع جوهر نظريته .

ان قطبي الصراع في الحركة الثورية الروسية ما كانا يتمثلان في لينين وتروتسكي ، وانما في البلاشفة والمناشفة . ولو ان لينين صاغ نظريته ردا على تروتسكي او ضد تروتسكي ، لأمكن بسهولة الكلام عن تفوق صيغة تروتسكي على صيغة لينين ، ولكن صيغة لينين هي التي كانت عمليا متفوقة على صيغة تروتسكي لان تروتسكي ونظريته كانا يقفان معا على هامش الصراع . وبهذا المعنى يصح وصف لينين لنظرية تروتسكي بأنها «ثرثرة دائمة» ، لا بمعنى ان الثورة الدائمة هي نظرية مغلوطة وفارغة ، وانما بمعنى انها عجزت عن ان «تعض» على الواقع وبقيت بلا مردود على الصعيد العملي . وفي التحليل الاخير ، فان تفوق صيغة لينين على صيغة تروتسكي مرده بشكل عام الى تفوق اللينينية على التروتسكية ، اللينينية بوصفها نظرية الثورة الروسية وممارستها **معا** ، والتروتسكية بوصفها مجرد تعليق نقدي على مجرى أحداث الثورة الروسية .

ومن حق الحقيقة علينا ان نقول ان تروتسكي أقر بتفوق اللينينية هذا حتى وهو في معرض تصحيحه لخطأ لينين النظري . وفي الوقت الذي حوّل فيه ورثة لينين من الستالينيين صيغته عن الدكتاتورية الديموقراطية الى شعار مطلق وتجريد تاريخي فارغ ، رفع تروتسكي صوته ليصون كرامة الفكر اللينيني وليعيد نظرية الدكتاتورية الديموقراطية الى نصابها الحقيقي بوصفها فرضية للعمل ومعادلة رياضية جبرية لمرحلة هامة وأساسية في الثورة الروسية ، مرحلة تحالف العمال والفلاحين .

ان الدكتاتورية الديموقراطية هي فرضية للعمل لانها ابرزت الى المقدمة ضرورة تحالف العمال والفلاحين كبديل عن التحالف مع البورجوازية الليبيرالية ولانجاز مهام الثورة الديموقراطية . ولكنها كانت ايضا معادلة رياضية جبرية لاشتمالها على كم مجهول ، كم ضخم في اهميته الحسابية ولكنه غير محدد سياسيا وأعني الفلاحين .

ان «المجهول الاكبر» في معادلة لينين هو الفلاحون . وكثيرا ما اشار المفكرون بالاصل الى الفلاح على انه «أبو هول التاريخ الروسي» . ولأن لينين اخذ بعين الاعتبار هذا المجهول الاكبر ، فانه لم يشأ ان يعطي حكما مسبقا على طبيعة التركيب السياسي لتحالف العمال والفلاحين ، ورفض ان يحدد من البداية لمن ستكون الغلبة والهيمنة في الحكومة الدكتاتورية الديموقراطية المنبثقة عن تحالف العمال والفلاحين .

ان المسألة كلها بالنسبة الى لينين تكمن ، على ما يعتقد تروتسكي ، في الاجابة على السؤال التالي : أمن الممكن ام من غير الممكن نشوء حزب فلاحي مستقل عن البورجوازية والبروليتاريا معا ؟ فلو أمكن ان ينشأ حزب فلاحي

مستقل ، لكان امكن ان ينتقل شعار الدكتاتورية الديموقراطية الى حيز التنفيذ ولقامت حكومة عمالية ــ فلاحية ، الغلبة فيها للحزب الفلاحي بحكم انها حكومة ديموقراطية .

وما لم يجب التاريخ وتطور الاحداث بنعم او لا على ذلك السؤال ، فــــان لينين ما كان في وسعه ان يسقط من حسابه المجهول الاكبر وكان عليه ان يترك المعادلة الجبرية مفتوحة ، اي ان يتمسك بشعار الدكتاتورية الديموقراطية حتى لا يسد الباب سلفا في وجه الدور السياسي المستقل للفلاحين .

والواقع ان كل المحاولات التي جرت في روسيا لتكوين حزب فلاحي مستقل قد باءت بالفشل ، وهذا بالرغم من ان روسيا كانت مؤهلة اكثر من اي قطـــر آخر لولادة مثل هذا الحزب ، نظرا الى الاهمية الاستثنائية للمسألة الزراعيــــة فيها ونظرا الى كثرة عدد المثقفين الشعبيين (النارودنيين) المؤيديـــــن للفلاحين والمعادين للرأسمالية .

ولعل أبعد ما تم الوصول اليه في هذا المضمار تجربة «الحزب الاشتراكي ــ الثوري» الذي كان يمثل حقا غالبية الفلاحين الساحقة والذي لم يفعل من شيء سوى انه استغل شعبيته هذه ليخون مصالح الفلاحين وليضع نفسه تحت امرة البورجوازية كما أثبتت ذلك أحداث ثورة شباط ١٩١٧ .

ومن اللحظة التي بات فيها واضحا ان الحزب الفلاحي المستقل مستحيـــل سحب لينين شعار الدكتاتورية الديموقراطية ورفع شعار دكتاتورية البروليتاريا المتحالفة مع الفلاحين في مجموعهم كشرط لانجاز الثورة الديموقراطية ، ثـــم شعار دكتاتورية البروليتاريا المتحالفة مع الفلاحين الفقراء كمدخل الى الثـــورة الاشتراكية .

تجريم الثورة الدائمة

لم تكد تمضي على وفاة لينين اشهر قلائل حتى بدأ في تاريخ الاتحــــاد السوفياتي ما يعرف بحملة تصفية التروتسكية ، تلك الحملة التي كلفت الالوف حياتهم و«طهرت» حزب لينين من رفاق لينين وأغرقت بلد الاشتراكية الاول في بحر من الارهاب والدم وحولت دكتاتورية البروليتاريـــا الى دكتاتورية علــــى البروليتاريا وعلى الفلاحين وعلى الحزب البلشفي نفسه . حملة تصفية ظلت بلا مثيل في التاريخ الى ان برز الى الوجود الشر النازي .

ولعل اول ما يجب أن نقوله هو ان هذه الحملة على التروتسكية هي التـــي اضفت على هذه الاخيرة صفة النظرية المتكاملة والاستراتيجية المستقلة المتمايـــزة عن النظرية والاستراتيجية اللينينية والبلشفية . فلقد كان تروتسكي ، كمـــا ذكرنا ، قد انضم الى البلاشفة عقب ثورة شباط . وبذلك اصبحت خلافاتـــه

السابقة معهم مجرد خلافات تاريخية لا تقل او تزيد اهمية عن كل الخلافات الماضية في صفوف البلاشفة انفسهم كخلاف لينين مع بوخارين او زينوفييف او حتى ستالين نفسه . ولم يشر لينين طوال السنوات التي عاشها بعد ثورة اوكتوبر الى تلك الخلافات الا بعبارة واحدة : ان تروتسكي هو خير البلاشفة منذ ان اصبح بلشفيا . ولكن على حين غرة ، وبعد مضي شهرين بالضبط على وفاة لينين ، فتح ستالين في سلسلة المحاضرات التي القاها عن «اللينينية» في جامعة سفردلوف في مطلع نيسان ١٩٢٤ ، فتح الدفاتر العتيقة مذكرا الفوج الجديد من المنتسبين الى الحزب بمواقف تروتسكي القديمة والانتقادات التي كان لينين قد وجهها الى نظرية الثورة الدائمة . وكان لا مناص من ان يرد تروتسكي بهجوم مضاد ، ففتح بدوره الدفاتر العتيقة مذكرا جمهور الحزب بأخطاء «البلاشفة القدامى» وبالانتقادات التي كان لينين قد وجهها اليهم بعيد ثورة شباط ، ومشيرا الى انه الوحيد الذي استوعب التكتيك اللينيني عقب شباط ١٩١٧ . وانبرى البلاشفة القدامى ، كامينيف وستالين وزينوفييف ، يفندون «المزاعم» التي أوردها تروتسكي في كتابه «دروس اوكتوبر» ، ويدافعون عن انفسهم ، لا عن طريق تبرير اخطائهم بعد ثورة شباط ، وانما عن طريق هجوم مضاد استهدف مواقف تروتسكي قبل انحيازه الى البلشفية ولاسيما نظريته عن الثورة الدائمة التي جرمت وأدينت كما لم تجرم وتدن قط اي نظرية . ففي ١٨ تشرين الثاني ١٩٢٤ ، وأثناء اجتماع لموظفي الحزب في موسكو ، هاجم كامينيف في خطاب طويل عنيف أطروحات الثورة الدائمة . وتلاه في الغد ستالين ، ثم زينوفييف ، ثم بوخارين ، ثم كويوسينان ، الخ . وخلال اشهر ثلاثة لم يكن يشغل الصحافة السوفياتية سوى موضوع واحد : التروتسكية بوصفها نظرية مضادة للينينية .

وقد انصبت الاتهامات في اتجاهين : اتهامات تصف نظرية الثورة الدائمة بأنها نظرية فوضوية ومغامرة تخلط بين المراحل الثورية وتحاول القفز فوقها ، واتهامات تصفها بأنها نظرية بلانكية تريد ان تعزل الطبقة العاملة عن سائر القوى الثورية في المجتمع وتنكر الحركة الفلاحية وأهمية تحالفها مع البروليتاريا .

ولسنا بحاجة الى ان نتوقف طويلا عند الاتهامات الاولى . فهي لم تكن جدية ، او لم تكن جدية بما فيه الكفاية . وسرعان ما أدرك موجهوها انها ليست في صالحهم ، وانما في صالح المتهم نفسه باعتبار ان لينين قد تبنى بدوره في السنوات الاخيرة من حياته خطة «الثورة المستمرة» التي تقول بنضج الثورة الديموقراطية الى ثورة اشتراكية . ولهذا فقد ركزوا جهودهم لا على اثبات بطلان موضوعة استمرارية الثورة وانما على محاولة تجريد تروتسكي من استحقاقه وعلى محاولة تزوير التاريخ لإثبات ان لينين كان هو السباق الى القول باستمرارية

الثورة وليس تروتسكي (١) .

وعلى كل ، فان رد تروتسكي جاء حاسما : ان نظرية الثورة الدائمة ليست نظرية القفز فوق المراحل ، وانما هي قفز فوق النظريات الميكانيكية النزعة القائلة بحتمية المراحل ، قفز فوق النظريات التي تحاول ان تحل المخططات النظرية المجردة محل التطور التاريخي الواقعي . فهذه المرحلة او تلك من مراحل التطور التاريخي قد تكون حتمية في ظروف معينة دون ان تكون حتمية على الصعيد النظري . وعلى العكس من ذلك ، فان حيوية التطور التاريخي قد تتخطى مراحل تعتبر حتمية نظريا ، وبخاصة خلال الثورات التي لم تسم عبثا قاطرات التاريخ . فمن وجهة النظر التاريخية ظهرت الصناعة الرأسمالية في روسيا بالقفز فوق مرحلتي الحرف والمانيفاكتورة في المدن مع ان تقسيم ماركس لتطور الصناعة الى مرحلة الحرف ومرحلة المانيفاكتورة ومرحلة المصنع يدخل في أبجدية الاقتصادي السياسي ، بل في ابجدية النظرية التاريخية ــ الاقتصادية الماركسية . بالمقابل فان مرحلة الثورة المضادة في الصين في أعوام ١٩٢٧ ــ ١٩٢٨ لم تكن البتة مرحلة حتمية من وجهة النظر التاريخية ، ولكنها كانت حتمية من الزاوية النظرية بالنظر الى السياسة الفاجعة للاممية الشيوعية في الصين .

وخلاصة القول ان نظرية الثورة الدائمة ان هي الا التتمة الطبيعية لقانون التطور غير المتكافىء الذي استطاع بفضله الماركسيون الروس ان يتوقعوا وصول روسيا المتأخرة تاريخيا الى ثورة البروليتاريا قبل وصول انكلترا المتقدمة اليها . وهذا هو بالضبط ما تعنيه الثورة الدائمة عندما تقول بامكانية القفز فوق المراحل .

تبقى الاتهامات بإنكار دور الفلاحين والقفز فوق الحركة الفلاحية . وهي اتهامات جدية الى حد كبير . والحق ان لينين هو اول من صاغ هذه الاتهامات عندما اتهم تروتسكي اكثر من مرة بين ١٩٠٥ و١٩١٧ بأنه ان كان قد سرق من البلاشفة نداءهم الى ثورة البروليتاريا فانه قد سرق من المناشفة نفيهم لدور الطبقة الفلاحية . ولكن الحق ايضا ان الاستهانة بالدور الثوري للفلاحين ليست من مستلزمات نظرية الثورة الدائمة ، وانما هي خاصة من خصائص «التروتسكية» بقدر ما يمكن الكلام عن التروتسكية كاستراتيجية ثورية متمايزة عن الاستراتيجية اللينينية . واذا كان تروتسكي قد دلل قبل عام ١٩١٧ على استخفاف بالدور الثوري للفلاحين ، فهذه مسألة يتحمل مسؤوليتها شخصيا ولكنها لا تؤثر البتة على اهمية نظريته العبقرية في الثورة الدائمة .

---

١ ــ حاول ستالين ذلك في محاضراته عن «مبادىء اللينينية» حيث بذل قصارى جهده لنبش نصوص لينينية توحي بأن لينين قال بديمومة الثورة منذ عام ١٩٠٥ ، ولكن هذه النصوص على ندرتها توحي ولا تجزم ، ان لم نقل انها تنفي اكثر مما تؤكد .

اين يكمن خطأ تروتسكي في موقفه من الفلاحين ؟ انه يكمن على وجه التحديد ، وعلى ما يخيل الينا ، في عدم استيعابه لكامل الابعاد والآفاق التاريخية التي فتحتها نظريته عن الثورة الدائمة للثورة الاشتراكية ، وفي تكوينه الثقافي الاوروبي المتناقض الى حد كبير مع الاهمية «الشرقية» او «الآسيوية» او حتى «الفلاحية» لنظرية الثورة الدائمة .

ان نظرية الثورة الدائمة لم تكتسب اهميتها الكبيرة الا بالنسبة الى بلدان الشرق ، اي بلدان الفلاحين . وهي بتعميمها تجربة الثورة الروسية قد حررت قوى الثورة في الشرق من أسطورة حتمية المراحل وكرست شرعية الثورة الاشتراكية في الاقطار التي لم تنضج فيها الشروط الاقتصادية «الموضوعية» (هيمنة الصناعة) للتحويل الاشتراكي . ولكن رؤيا تروتسكي «الاوروبية» للتاريخ كانت متناقضة مع الروح الآسيوية لنظريته ، ومن هنا كان تهوينه من شأن الدور الثوري للفلاحين .

ان نظرية الثورة الدائمة تفترض ان في وسع البروليتاريا ان تقيم دكتاتوريتها وتباشر بانجاز مهام الثورة الاشتراكية قبل ان تصبح غالبية الامة عمالية وقبل ان تهيمن الصناعة على الزراعة ، وهذا بشرط واحد وهو ان تستغل البروليتاريا تأخر حل المسألة الزراعية وأن تقود جماهير الفلاحين الفقيرة الى الثورة الديموقراطية . وتروتسكي هو القائل ان مفتاح لغز الثورة الروسية يكمن في المسألة الزراعية . فلو ان «المسألة الزراعية، تركة البربرية وتاريخ روسيا القديم، قد لاقت حلها على يد البورجوازية ، لما كانت البروليتاريا الروسية توصلت قط الى الاستيلاء على السلطة في عام ١٩١٧» . وقد صاغ تروتسكي تجربة الثورة الروسية هذه في شكل قانون أسماه بقانون التطور المركب في البلدان المتخلفة التي تمتزج فيها العناصر الاكثر تأخرا مع العناصر الاكثر تقدما وبموجب هذا القانون ، فان ثورة اوكتوبر امكن لها ان تقوم بسبب تداخل عاملين من طبيعة تاريخية شديدة التباين : حرب فلاحية ، اي حركة مميزة لفجر التطور البورجوازي ، وثورة بروليتارية ، اي حركة تشير الى أفول المجتمع البورجوازي. هذا هو سر اوكتوبر ١٩١٧ .

ولكن اوكتوبر ١٩١٧ ليس هو الاشتراكية بعد . ان اوكتوبر ١٩١٧ هو البروليتاريا التي استولت على السلطة بفضل دعم الفلاحين . ولكن استيلاء البروليتاريا على السلطة ليس هو الاشتراكية. انه بداية المسيرة نحو الاشتراكية. هذه نقطة يتفق عليها لينين وتروتسكي ، ولكن عندها ايضا يفترقان . فلينين فهم دكتاتورية البروليتاريا في قطر متأخر تاريخيا على انها تحالف الطبقة العاملة مع الفلاحين ، ولاسيما الفلاحين الفقراء، بهدف خلق الشروط المادية لبناء الاشتراكية . ولينين لم يشك في لحظة من اللحظات ان الطبقة الفلاحية ستتردد وستتململ تحت عبء التضحيات ومستلزمات التراكم الاشتراكي البدائي .

ولكن هذا التردد والتململ كانا في نظر لينين سببا اضافيا لتوثيق روابط العمال والفلاحين . ولقد كان لينين يعلم ان حصان الفلاح «هزيل» ولكنه لم

يحجم عن الدعوة الى امتطائه لانه كان يعلم ، ولاسيما بعد صمت الغرب ، انه ليس هناك من خيار آخر . وفي سبيل الحفاظ على تحالف العمال والفلاحين ، انتهج لينين السياسة الاقتصادية الجديدة مرجئا الى أجل غير معلوم استغلال التناقضات الطبقية في الريف للشروع بالثورة الاشتراكية فيه . وعلى العكس من ذلك كان موقف تروتسكي . فالصورة الراسخة في ذهن تروتسكي عن الفلاح هي صورة الفلاح الاوروبي . الفلاح الذي يمكن ان يكون حليفا ما دامت آفاق الثورة ديموقراطية ، ولكن الذي لا بد ان ينقلب عدوا بمجرد ان تنضج الشروط الاشتراكية للثورة . لماذا ؟ لان الاشتراكية هي زوال الفلاح ولأن اكبر خدمة يمكن ان يؤديها الفلاح للحضارة هي ان يختفي .

والبروليتاريا لا تستولي على السلطة الا لتبني الاشتراكية ، اي بالتالي لتزيل الفلاح . وامتطاء حصان الفلاح جائز بل واجب حتى يتاح للاقلية البروليتارية امكانية الاستيلاء على السلطة .

ولكن بمجرد استيلاء البروليتاريا على السلطة ، تنطرح ضرورة البحث عن حليف آخر . فالفلاحون اولا لا بد ان يتخلوا عن البروليتاريا لانهم لا يريدون اكثر من الثورة الديموقراطية التي نصبتهم ملاكا للاراضي ، والبروليتاريا ثانيا لا بد ان تتخلى عن الفلاحين لانها لا تستطيع ان تتوقف عند الثورة الديموقراطية ولا تستطيع الا ان تلغي الملكية البورجوازية في الريف كما في المدن ، وبالتالي لا تستطيع الا ان تدخل في نزاع وصدام مع الجماهير الفلاحية التي حملتها الى السلطة. وبكلمة واحدة، ان البروليتاريا تستولي على السلطة بمساعدة الفلاحين، ولكنها ستبني الاشتراكية ضدهم . ومن هنا فلا امل لها في الخلاص وفي الاستمرار الا اذا هبت البروليتاريا الاوروبية لنجدتها . وبهذا يبرز وجه جديد للثورة الدائمة التي تعني ان الثورة البروليتارية في قطر متخلف يجب ان تكون الشرارة التي ستضرم نار الحريق الثوري في الاقطار المتقدمة . وتروتسكي واثق للغاية من رأيه هذا الى حد انه لم يفكر حتى بامكانية صمت الغرب ، وأكد منذ عام ١٩٠٥ انه لن يكون من هم للبروليتاريا الروسية ، بمجرد استيلائها على السلطة ، سوى ان «تنقل الثورة الى الارض الاوروبية» وأن «انتصار الثورة في روسيا سوف يؤدي الى الانتصار **الحتمي** للثورة في بولونيا» وفي المانيا وفي فرنسا وحتى في انكلترا .

ان مركز العالم في نظر تروتسكي هو اوروبا . اوروبا الصناعية ، اوروبا المبلترة ، اوروبا التي قطعت شوطا طويلا على طريق التحرر من البربرية الفلاحية . وليس من حليف للبروليتاريا الروسية المتأخرة ، والمحاصرة كالجزيرة بالمد الفلاحي ، غير بروليتاريا اوروبا الغربية (١) . والهلاك في أمواج الخضم

---

١ ــ لقد قال لينين شيئا من هذا القبيل ، ولكنه قال ايضا شيئا آخر كما رأينا . وهذا ما لم يفعله تروتسكي . ولقد التفت لينين ايضا الى الخارج ، ولكنه ازاء صمت الغرب عرف كيف يستدير الى الداخل . وهذا ما لم يفعله تروتسكي ايضا .

البربري هو المصير الوحيد الذي ينتظر البروليتاريا الروسية اذا لم تتخط الاطر القومية لثورتها وتضع كل ثقلها وأملها في البروليتاريا الاممية .

والنصوص التروتسكية في ذلك غزيرة :

ــ «بدون مساعدة حكومية مباشرة تقدمها لها البروليتاريا الاوروبيـــة لن تتمكن الطبقة العاملة في روسيا من البقاء في الحكم وتحويل سيطرتها الآنية الى دكتاتورية اشتراكية دائمة» .

« نتائج وتوقعات » ــ ١٩٠٦ .

ــ «اذا تركت الطبقة العاملة الروسية للاعتماد على قواها وحدها ، فـــان الثورة المضادة ستسحقها حتما حالما يتخلى عنها الفلاحون . ولن يكون امامهـــا من بديل سوى ان تربط مصير حكمها السياسي ، وبالتالي مصير الثورة الروسية كلها ، بمصير الثورة الاشتراكية في اوروبا» .

« نتائج وتوقعات » .

ــ «ان الفكرة التي دافعت عنها هي ان الثورة الروسية هـــي مقدمة العصر الاشتراكي الثوري في اوروبا ، وانه لا سبيل الى انجاحها لا عن طريق تعـاون البروليتاريا مع البورجوازية الليبيرالية ولا عن طريق تعاونها مع الطبقة الفلاحية الثورية ، وأنها لا تستطيع ان تنتصر الا بوصفها جزءا لا يتجزأ من ثـــورة البروليتاريا الاوروبية» .

« من مقال في ناشيه سلوفو ــ ١٩١٥ » .

ــ «ان فكرة الثورة الدائمة هي ان الثورة الروسية ، التي تنتصب امامهـــا للحال غايات بورجوازية ، لا يمكن مع ذلك ان تتوقف عندها . ولن يكون فـــي وسع الثورةان تحقق هذه الاهداف البورجوازية المباشرة الا اذا حملت البروليتاريا الى السلطة . والحال ان البروليتاريا بمجرد استيلائها على السلطة لا تستطيع ان تحصر نفسها ضمن الاطار البورجوازي للثورة . بل على العكس من ذلك . فعلى الطليعة البروليتارية ، ضمانا لانتصارها ، ان تقتحم ، من الايام الاولى لسيطرتها، لا معاقل الملكية الاقطاعية الموغلة في العمق فحسب ، بل ايضا معاقل الملكيـــة البورجوازية . وهي بعملها هذا ستدخل في صدامات عنيفة لا مع جميع فئات البورجوازية التي دعمتها في بداية نضالها الثوري ، بل ايضا مع جماهـــير الفلاحين الغفيرة التي استولت بمساعدتها على السلطة . والتناقضات في وضع الحكومة العمالية في قطر متخلف تتألف غالبية سكانه الساحقة من الفلاحين لا يمكن ان تجد حلها الا على الصعيد الاممي ، في حلبة الثورة العالمية للبروليتاريا. ومن اللحظة التي تكون فيها البروليتاريا المظفرة قد تجاوزت تحت حكم الضرورة التاريخية ، الحدود البورجوازية والديموقراطية الضيقة للثـــورة الروسية ، ستجد نفسها مضطرة الى ان تتجاوز ايضا الحدود القومية للثورة الروسية ، اي الى ان تجعل من هذه الاخيرة مقدمة الثورة العالمية» .

« من مقدمة «١٩٠٥» ــ ١٩٢٢» .

اين يكمن خطأ تروتسكي ؟ ليس في نزعته الاممية كما قد يتبادر الى ذهن

بعضهم . ولقد كان لينين هو الآخر أمميا ، وافترض دوما ان الثورة الروسية يجب ان تكون مقدمة الثورة العالمية . ان خطأ تروتسكي يكمن في تجريده الاممي ، في تصوره الميكانيكي النزعة عن حتمية الثورة العالمية ، وربما ايضا في «انتهازيته» الاممية اذا جاز التعبير ، تلك الانتهازية التي تريد بأي ثمن ان تنقل الثورة الى الارض الاوروبية ضمانا لمستقبل الثورة الروسية .

ان الثورة العالمية كما يتصورها تروتسكي تبدو من اكثر من وجهة نظر واحدة تجريدا طوباويا . ولانها تجريد فقد تصور تروتسكي انها لا يمكن الا ان تكون اوروبية بروليتارية . وبالمقابل فان لينين ، الذي حارب بضراوة النزعة اللفظية الثورية في مسألة الثورة العالمية والعقيدة الامية ، فهم الثورة العالمية فهما تاريخيا عينيا وبدالة تناقضات العصر الامبريالي .

لقد تصور مثل تروتسكي في البداية ان الثورة العالمية لن تكون الا ثورة بروليتارية اوروبية . ولكن الصدع العميق الذي أحدثته الرشوة الامبريالية في ثورة البروليتاريا الاوروبية دفعت به الى ان يموضع الثورة العالمية في محيط العالم الرأسمالي لا في مركزه ، في آسيا والمستعمرات والشرق لا في اوروبا الصناعية ، في الحلقات الضعيفة من السلسلة الامبريالية لا في الحلقة المركزية القوية . ان آخر كلمات كتبها لينين قبل ان يصاب بالشلل الكلي هي : كيف يمكن لروسيا السوفياتية ان تصمد باقتصادها الفلاحي امام الحملة الصليبية الاوروبية المناهضة للثورة ؟

لقد كان الجواب كما رأينا هو امتطاء حصان الفلاح ، التحالف مع الفلاحين واستمرار القيادة البروليتارية للطبقة الفلاحية . وهذا ليس بدافع عوامل داخلية بحتة ، بل ايضا بدافع العوامل الخارجية ، الاممية . ليس بدافع الحرص على الثورة الروسية وحدها ، بل ايضا بدافع الحرص على مصالح الثورة العالمية . ذلك ان هذه الثورة العالمية لن تكون في المستقبل الممكن توقعه غير انتفاضة «الشرق الثوري والقومي» على «الغرب الاستعماري المناهض للثورة» .

من هنا فان نجاح الطليعة البروليتارية في اقامة علاقات صحيحة مع الجماهير الفلاحية في اطار روسيا السوفياتية يكتسب من منظور الثورة العالمية اهمية استثنائية . فمثل هذه العلاقات ستكون مقياسا للعلاقات مع القوى الثورية العالمية التي هي قوى فلاحية ، اختبارا يتحدد على اساسه الامتداد الاممي لثورة اوكتوبر .

هذه هي النتيجة المتناقضة التي وصل اليها كل من لينين وتروتسكي بصدد المسألة الفلاحية : ففي حين افترض لينين ان الحفاظ على تحالف البروليتاريا والفلاحين في ظل السلطة السوفياتية ضروري لا لمستقبل الاشتراكية في روسيا وحدها وانما لمستقبلها في العالم أجمع ، وفي حين انه افترض انه لا امل للثورة الروسية في تخطي حدودها القومية الا عن طريق هذا التحالف كنقطة انطلاق للتحالف مع قوى الثورة العالمية الفلاحية ، افترض تروتسكي على العكس ان من اول واجبات البروليتاريا ان تفك هذا التحالف حتى تستطيع أن تجذب اليها

قوى البروليتاريا الاوروبية الصناعية ، تلك البروليتاريا « المتمدينة » التي لا يمكن ان تغريها البتة صورة اشتراكية « متخلفة » تبنى في روسيا بمساعدة الفلاحين .

وكتقييم اخير لنظرية الثورة الدائمة يمكن ان نلاحظ ما يلي : ان أصالة هذه النظرية وعبقريتها تبرزان بمقدار ما يدلل تروتسكي على عمق فهمه للواقع الروسي وللخصوصية الروسية ، وتتراجعان وتتقلصان الى حد تتحول معه هذه النظرية الى تجريد عقيم عندما تطغى الرؤيا الاوروبية على فكر تروتسكي وتقيم حاجزا فاصلا بينه وبين السيرورة الفعلية للثورة الروسية .

ان نظرية الثورة الدائمة أصيلة وعبقرية عندما تلاحظ ان الاصل غير الحرفي للبروليتاريا الروسية قد هيأها لان تلعب دورا قياديا في الثورة الديموقراطية، بعكس البروليتاريا الاوروبية التي لم تلعب في هذه الثورة غير دور الذيل التابع سياسيا للبورجوازية . ولكن رؤيا تروتسكي الاوروبية جعلته ينسى بالمقابل ان الاصل غير الحرفي للبروليتاريا الروسية يعني على وجه التحديد انه أصل فلاحي، وأن هذا يتيح بالتالي للعامل الروسي امكانية للتحالف مع الفلاح لم تكن متاحة للعامل الاوروبي .

ونظرية الثورة الدائمة أصيلة وعبقرية عندما تلاحظ ان قانون التطور المركب قد اتاح لروسيا المتأخرة تاريخيا امكانية الوصول الى دكتاتورية البروليتاريا قبل اوروبا المتقدمة . ولكن رؤيا تروتسكي الاوروبية حالت بينه وبين تعميم هذا القانون ليشمل سائر الاقطار الفلاحية المتأخرة .

ونظرية الثورة الدائمة أصيلة وعبقرية عندما تلاحظ ان التأخر التاريخي للقطر الذي تقوم فيه الثورة الاشتراكية يجعل الاشتراكية هشة في هذا القطر ما لم تهب لنجدته قوى الثورة العالمية . ولكن رؤيا تروتسكي الاوروبية جعلته يصر بعناد على ان هذه النجدة لن تأتي الا من الغرب .

ولعل من بين كل الانتقادات **الجدية** التي وجهت الى تروتسكي اثناء الحملة الرعناء على نظرية الثورة الدائمة ، تستأثر انتقادات بوخارين دون سواها باهتمامنا لانها هي التي ربطت دون سواها اهمية المسألة الفلاحية بأهمية المسألة الكولونيالية . ولهذا على وجه التحديد نختتم بها هذا الفصل .

يقول نيقولا بوخارين في مقاله **حول نظرية الثورة الدائمة** المنشور في اوائل عام ١٩٢٥ : «ان خطأ الرفيق تروتسكي يكمن في افتراضه ان الصراع بين البروليتاريا والطبقة الفلاحية محتم . والحال ان هذا الصراع ممكن فحسب ، وهو لن يكون محتما الا اذا وجدت الطبقة الفلاحية في النظام الراسمالي فوائد اكبر مما في النظام الاشتراكي . ولا داعي للخوف من نزاع بين الطبقتين الكادحتين اذا ما أولى حزب البروليتاريا المنتصرة اهتمامه لمسألة تدعيم حلف العمال والفلاحين ... هذا الحلف الذي اصبح المشكلة المركزية في الثورة العالمية . فالمسألة الكولونيالية التي يتعلق بها مصير الراسمالية ليست في جوهرها الا مسألة تحالف البروليتاريا الصناعية الاوروبية والاميركية مع فلاحي

المستعمرات . وبديهي ان المسألتين ليستا متماثلتين ، ولكن هذا لا يعني ان المسألة الكولونيالية ليست في أسسها الاجتماعية مسألة فلاحية . والطبقة العاملة ، بدعمها الانتفاضات التي يدك بها فلاحو المستعمرات أسس المجتمع الرأسمالي ، تضمن من هنا بالذات هيمنتها على الحركة الفلاحية الكولونيالية . والاشتراكية الاوروبية لم تعترف بالاهمية الثورية للمشكلة الكولونيالية او هي تغاضت عنها . والتقييم الاوروبي لدور الطبقات هو الذي يفسر وجهة نظر الرفيق تروتسكي التي تقول بأن الثورة الروسية مقضي عليها بالانهيار الاكيد اذا لم تدعمها الدول الاوروبية بعد استيلاء البروليتاريا على السلطة فيها . وبموجب مخطط تروتسكي المجرد فان كل ثورة «غير كلاسيكية» مقضي عليها بالهلاك سلفا. وهو يقصد بالثورة البروليتارية الكلاسيكية الثورة التي تشكل فيها البروليتاريا الطبقة «الشعبية» الوحيدة .

«وبعبارة اخرى ، ان الثورة المثالية لن يكون لها وجود الا في مجتمع لا اعتبار فيه للطبقة الفلاحية . وهذا التصور لا يتلاءم البتة مع الواقع . فمن وجهة نظر الاقتصاد العالمي ، تمثل البروليتاريا بالمعنى المحض للكلمة أقلية لامتناهية الضآلة من السكان . وأكبر الاقطار تتألف من متروبولات ذات كثافة سكانية بروليتارية ومن مستعمرات فلاحية هائلة . فالجزء الاكبر من الامبراطورية الفرنسية موجود في افريقيا ، والجزء الاكبر من الامبراطورية الانكليزية موجود في آسيا ... وتروتسكي يعرف بلا شك الاهمية الضخمة للمسألة الكولونيالية ، ولكن نظريته عن الثورة الدائمة لا تعطي مع الاسف تقييما مناسبا لدور الفلاحين» .

ماو تسي تونغ
ثورة الفلاحين

ان روسيا ليست قطرا آسيويا . وانما هي ، بتعبير مجازي ، آسيا اوروبا، القطاع الآسيوي من اوروبا . والنظرية البلشفية او اللينينية لم تكن هرطقة آسيوية كما حاول بعضهم ان يتهمها، وانما كانت مجهودا عبقريا لأقلمة الماركسية، بنت الغرب الصناعي المتطور ، مع الشروط الخاصة بقطر اوروبي زراعي ومتخلف . ولئن كانت الماركسية الروسية قد خصت الطبقة الفلاحية بنصيب أوفر من الاهتمام ، فهذا لا يعني انها قد مست بجوهر الماركسية الاورثوذكسية، وذلك بقدر ما تتمثل هذه الاورثوذكسية في نظرية الثورة البروليتارية . فالاستراتيجية البلشفية لم تكتف بتبني هذه النظرية ، بل اكدت ايضا بأن الثورة البروليتارية ممكنة حتى في قطر متخلف من وجهة النظر الصناعية . وبالفعل لا يجوز لاحد ان ينسى ان البروليتاريا الصناعية في العاصمتين ، موسكو وبتروغراد ، هي التي استولت على السلطة وان ثورة اوكتوبر كانت ثورة بروليتارية بالرغم من كل ما يمكن قوله عن الدور المساعد الذي لعبته الحركة الفلاحية والمسألة الفلاحية .

ان روسيا قد تبدو ، بالمقارنة مع فرنسا وانكلترا مثلا ، آسيوية ، ولكنها لن تكون الا اوروبية بالمقارنة مع الصين . فالصين ليست قطرا آسيويا نموذجيا ، بل هي ايضا اكبر أقطار آسيا : قارة آسيوية في قلب القارة الآسيوية . ولكن ليست المقاييس الجغرافية هي وحدها التي تحدد آسيوية الصين بالمقارنة مع اوروبية روسيا . فهناك ايضا المعايير اللغوية ، والمعايير السوسيولوجية ، وحتى

المعايير الحضارية . وما هو اهم من هذا كله المعايير السياسية ـ الاقتصادية : فروسيا اوروبية لانها كانت بالرغم من كل تأخرها التاريخي دولة امبريالية ، أما الصين فآسيوية لانها كانت علاوة على تأخرها التاريخي (وبسببه) دولة مستعمَرة ونصف مستعمَرة من قبل اوروبا بالذات ومن قبل المخفر المتقدم لاوروبا في آسيا ، أعني اليابان .

ولئن كانت هيمنة الطابع الفلاحي على البنية السكانية لكل من روسيا والصين تغري الباحث بالحديث عنهما بلغة مشتركة ، فان الموقع الذي كانت تحتله كل منهما في العلاقات الامبريالية العالمية يحفر بينهما هوة عميقة لا تستطيع ردمها المورفولوجيا السكانية المشتركة .

وهذه الواقعة هي التي تحدد نقطة انطلاقنا في محاولتنا تفسير تلك المفارقة الكبرى في تاريخ الماركسية : هجرتها الآسيوية ، انتصارها في الصين ، رايتها الحمراء (١) المرفرفة على عالم أصفر . وهذه الواقعة هي التي تقدم الينا ايضا مفتاح «الهرطقة» الماوية او الصيغة التي وضعها ماوتسي تونغ للثورة في قطر آسيوي متخلف نصف مستعمَر ونصف اقطاعي : الريف لا المدينة كبؤرة ثورية ، والطبقة الفلاحية لا البروليتاريا كقوة قائدة للثورة ، والجيش الشعبي لا حزب الثوريين المحترفين كأداة للكفاح ، وحرب الانصار لا الاضراب العام والمظاهرات السياسية كشكل للكفاح .

السور الصيني

حتى منتصف القرن التاسع عشر كانت الصين هي العالم ، في نظر نفسها بالطبع . ولم تكن الحضارة الصينية واحدة من الحضارات العالمية ، بل كانت هي الحضارة . وكان كل ما هو غير صيني بربريا . وليس من قبيل الصدفة ان يكون الصينيون قد لقبوا قارتهم ب «الامبراطورية السماوية» . فالصين تعني في الصينية «امبراطورية الوسط» ، وهي تتمتع بحكم موقعها هذا بنعم السماء. أما سائر شعوب الارض التي تقطن في «الاطراف» فلا يمكن ان تكون ندا للشعب الصيني حضارة ومدنية وتهذيبا . وليس حجم الصين هو وحده الذي عزز لدى الصينيين الشعور بمركزية الذات ، وانما ايضا تاريخ تعاملهم الطويل مع الشعوب المجاورة التي كانت بالفعل أقل رقيا منهم ، شعوب بدوية او جبلية لم يكن تبنيها للكتابة الصينية هو المظهر الوحيد لتبعيتها الحضارية للصين .

ومن هنا كان عنف الصدمة التي انتابت الصين عند اول لقاء لها مع الغرب. فالاوروبيون الذين كان يفترض فيهم انهم برابرة لم يأتوا الى الصين ضيوفا

---

١ ـ حمراء لا بمعنى انها ثورية ، وانما بمعنى انها اوروبية . فقد كان الصينيون يطلقون على أوائل السفراء او الغزاة الاوروبيين اسم «البرابرة الحمر» .

متواضعين يحملون الهدايا التقليدية ، وانما جاؤوا سادة وغزاة أدعياء يريدون فرض انفسهم ومشيئتهم بالقوة . ولقد كانوا اقوياء فعلا ، والدليل ان الصين قبلت مكرهة بالمعاهدات التجارية التي فرضوها وفتحت موانئها للبضائع الاوروبية ، ولاسيما الافيون .

لقد اقترف الغرب جريمة نكراء لا لانه استغل ونهب ثروات الصين فحسب ، وانما لانه أشعرها بنسبيتها في المقام الاول . فالصينيون شعب كريم مع الضيوف المتواضعين ، وكان أباطرتهم يقدمون مقابل الغرامات التي يدفعها التجار الاجانب من الشعوب المجاورة هدايا «تليق بالمقام» وتفوق قيمتها أضعافا مضاعفة مبلغ تلك الغرامات . ولكن الاوروبيين لم يقبلوا بهذه المقايضة التقليدية، ورفضوا التعامل بأي قانون غير قانونهم . وهذا على وجه التحديد ما أثار حفائظ الصينيين : ليس جشع الاوروبيين وانما صلفهم وادعاؤهم . والانكى من ذلك ان الصين اضطرت صاغرة ، تحت تهديد السلاح ، الى القبول ب «التعامل» مع الغرب على اساس قانونه هو . ومما زاد الطين بلة ان هذا القانون كان ، بالبداهة، قانونا امبرياليا .

ومن هنا نشأ لدى الصينيين ما أجمع المؤرخون على تسميته بنزعة العداء للاجانب . والواقع ان هذه النزعة لم تكن شوفينية بغيضة وانما كانت رد فعل أولي وبدائي ولاشعوري على الامبريالية . وبالفعل ان اللقاء الذي تم إبان حرب الافيون لم يكن لقاء بين اوروبا والصين ، وانما بين الامبريالية الاوروبية والصين التي بدأت تتحول الى نصف مستعمَرة .

ولم تكد الصين تفيق من وقع الصدمة الاولى حتى جاءتها الصدمة الثانية ، ومن جارتها اليابان هذه المرة . فاليابان ، هذا البلد الذي يصغر الصين عشر مرات بعدد السكان وثلاثين مرة بالمساحة ، قد استأسد هو الآخر وأعلن عن رغبته صريحة في ان تكون له هو الآخر حصة من جسد الامبراطورية السماوية المنهارة ، وفرض رغبته هذه بقرقعة السلاح في أواخر القرن التاسع عشر .

وتضاعف شعور العداء للاجانب ، ولاسيما لاوروبا . فاليابان ما كان في وسعها ان تفعل ما فعلته وأن تلحق بجيوش الامبراطورية السماوية الجرارة هزيمة منكرة لولا انها تخرجت من مدرسة اوروبا . ولكن شعور العداء للاجانب انصب على السلالة الحاكمة . ففي الصين كان كل شيء صينيا باستثناء الاسرة المالكة : أسرة تسينغ المنشورية التي حكمت البلاد حوالي ثلاثة قرون . ولقد كان من السهل على الصينيين ان يتصوروا ، بدافع كبريائهم الجريح ، ان الاسرة الحاكمة الاجنبية هي المسؤولة عن كل الكوارث التي حلت بهم . وقد انعكس هذا الكبرياء الجريح وهذا الحقد على الاسرة المالكة الاجنبية العاجزة عن مقاومة «الشياطين البيض» في الابيات الملتاعة التالية التي كان يرددها الطلاب الثوريون في السنوات الاخيرة من حكم آل تسينغ :

شيء واحد يخيفنا :
ان نشبه الهنود العاجزين عن الدفاع عن ارضهم .
شيء واحد يخيفنا :
أن نفقد مثل بلاد الآنام كل أمل في البعث .
وفي هذه الصين التي هي صيننا
ليس لنا من حصة البتة .
وهذه السلالة لا وجود لها الا بالاقوال .
يزعمون انهم سادتنا
مع أنهم هم أنفسهم عبيد الاجانب !

من الممكن القول اذن ان الاقتحام الامبريالي للصين كان عاملا اساسيا في ولادة القومية الصينية (١) . فقد كانت هذه القومية غافية ما دامت الصين معزولة عن العالم ، متقوقعة على نفسها ، داخل السور الصيني الكبير الذي هو بالفعل رمز الانعزالية ومركزية الذات . ومن وجهة النظر هذه فان الامبريالية كانت ، بالرغم من شرورها وجرائمها ، عامل تقدم بالنسبة الى الصين . فقد كانت الصين القديمة ببنيتها الاقطاعية ونظام حكمها المطلق والاستبدادي الآسيوي تستمد من العزلة مقومات حياتها . وقد كانت الجائحة الامبريالية الاشارة التي قرعت ناقوس موت الصين القديمة . وقد نوه ماركس بهذا الدور «التقدمي» للامبريالية في كتاباته الضئيلة التي خص بها الصين . فقد كتب منذ عام ١٨٥٣ يقول ان المدافع البريطانية قد دكت السور الصيني ومزقت أسطورة أزلية الامبراطورية السماوية ومرغت في الوحل سمعة السلالة المنشورية وهيبتها وقوضت العزلة البربرية التي كانت تفصل الصين عن العالم المتمدين : «لقد كانت العزلة الكاملة الشرط الاول لاستمرار الصين القديمة . وبمجرد ان قضت هذه العزلة نحبها على نحو عنيف عقب تدخل انكلترا ، كان لا بد ان يبدأ التفسخ مثلما تتفسخ المومياء المحفوظة في تابوت محكم الاغلاق بمجرد تعرضها لتأثير الهواء » .

وبديهي أن الصين لم تكن قد سمعت بأسم كارل ماركس عندما كان نبي الثورة هذا يتحدث عن الاثر الكبير الذي يمكن ان تمارسه الثورة الصينية على مصائر الثورة العالمية . ولكن الصين كانت قد بدأت تسير فعلا في الدروب التي رسمها ماركس . فلقد راحت الصين بعد هزيمة الافيون (١٨٤٠ ــ ١٨٤٢) وذل نتائجها تتساءل ، لاول مرة في تاريخها ، عن شرعية الحكم المطلق والسلطة «الالهية» . ولقد اخذ هذا التساؤل في البداية شكل عرائض ونصائح وجهها المثقفون الى الامبراطور ، ولكن حركة الاحتجاج سرعان ما اخذت شكلا اكثر

---

١ ــ بديهي ان الامة الصينية قديمة عريقة في تكوينها التاريخي . ولكننا عندما نتكلم عن ولادة القومية الصينية انما نقصد الشعور القومي الحديث المستقل بنفسه .

جذرية لتتحول الى حرب شعبية حقيقية شنها أفراد جماعة التايبينغ ضد السلالة المنشورية . ولئن كانت هذه الثورة الصينية الاولى قد سحقت بفضل تدخل الاسطول الانكليزي على وجه التحديد ، الا ان سيرورة الوعي الثوري لم تتوقف وظلت الجذوة مضطرمة وان تحت الرماد .

وحدث الانفجار الثاني عقب الحرب الصينية ـ اليابانية (١٨٩٤) . وهنا ايضا كان الشعور بالمهانة القومية عاملا اساسيا في ثورة «الملاكمين» الذين رسخوا ، بكراهية ما بعدها كراهية ، نزعة العداء للاجانب . فقد هاجموا حي السفارات في بكين واغتالوا الوزير الالماني المفوض فون كتلر وقتلوا عددا من المبشرين وسمموا خبز الجالية الاجنبية . وهذا كله رشح «الملاكمين» لان يحتلوا في كتب التاريخ الاوروبية مكانة الصدارة في قائمة البرابرة . ولكن هنا ايضا لا بد ان نقول ان نزعة العداء للاجانب لم تكن في حقيقتها الا شكلا بدائيا من نزعة العداء للامبريالية ، وبالتالي لم تكن الا شكلا أوليا للقومية الصينية الوليدة . وعلاوة على ذلك ، وما دام الاوروبيون يعاملون الصينيين كبرابرة ، كما لاحظ انجلز منذ عام ١٨٥٧ ، فباسم اي منطق «ينكرون عليهم الحق في استغلال جميع مزايا بربريتهم» ؟

والواقع ان الغزاة الاوروبيين ما كانوا يعاملون الصينيين كبرابرة ، بل كانوا يعتبرونهم جنسا لا صلة له بالآدمية . فقد كانت اللافتات المرفوعة على واجهات عدد من المطاعم والمحلات العامة تقول : «يحظر دخول الكلاب والصينيين !» . وانما من مدرسة المهانة هذه تخرجت القومية الصينية واكتسبت في مدى أعوام قليلة طابعا جذريا حادا لم تكتسبه القوميات الاوروبية في مدى قرون . والواقع ان السنوات المئة التي تفصل بين المحاولة الاولى لتحويل الصين الى مستعمرة (١٨٤٠) وبين قيام الجمهورية الشعبية المستقلة (١٩٤٩) لم تكن الا سلسلة متصلة من حروب شعبية دامية (١) في سبيل الحفاظ على الامة الصينية وصيانتها من الهلاك . ولئن كانت هذه الحرب القومية المستمرة قد شابها ، ولاسيما في مرحلتها الاولى ، الكثير من الآراء المسبقة والخرافات والتعصب ، فانها تبقى مع ذلك حربا قومية تقدمية ، سياقها هو سياق نضال شعوب المستعمرات ضد الغزو الامبريالي .

ما العمل ؟

ان العنف الذي يستعبد لا بد ان يولد عنفا يحرر . والقومية الصينية التي

---

١ ـ هذه الحروب هي على التوالي : حرب الافيون ، التايبينغ ، الحرب الصينية ـ اليابانية ، الملاكمين ، ثورة ١٩١١ ، حركة ٤ ايار ١٩١٩ ، حملة الشمال (١٩٢٦) ، الثورة الفلاحية (١٩١٧ ـ ١٩٣٧) ، حرب المقاومة (١٩٣٧ ـ ١٩٤٥) .

ولدها او بعثها العنف الامبريالي ما كان لها من خيار في السير في غير طريق العنف . وطريق العنف هو طريق الثورة واختصار الطريق ، لا طريق الاصلاح والتطور البطيء . وقانون التطور غير المتكافيء الذي مكّن دولا امبريالية صغيرة نسبيا من استعباد اكبر امة في الارض هو الذي طرح ايضا على هذه الامة مهمة قطع مراحل التاريخ قفزا ووثبا بحيث تدرك في عشرات السنين ما ادركته تلك الدول في مئاتها .

ان الامبريالية لم تكن ، بالنسبة الى الصين ، مهانة ومذلة واستعبادا ، بل كانت ايضا تحديا . فالسور الصيني الذي دكته المدافع الغربية كان يخفي وراء انهياره سؤالا كبيرا : هل تنهار الامة الصينية بدورها وتنقرض ؟ واذا كانت الامة الصينية لا تريد ان تنهار وتنقرض ، فما العمل ؟

ما العمل ؟ انه السؤال نفسه الذي طرحه الديموقراطي الثوري الروسي تشيرنيشفسكي ، ومن بعده لينين . انه البداية التي لا بد منها لكل ثورة لا بد منها ، بداية البحث عن صيغة ثورية مناسبة قوميا .

ما العمل ؟ سؤال . وطرح الاسئلة هو دوما من اختصاص المثقفين . وفي الصين كما في روسيا تولت الانتلجانسيا الاجابة . وفي الصين كما في روسيا كان الجواب الاول : العودة الى التراث ، الى الاصالة ، الى الحضارة القومية التقليدية ، الى الحكمة العريقة التي لم يشوهها تجار العصر وعطاروه وبقالوه . فلئن كان الاوروبيون الدخلاء قد قوضوا السور الصيني ، فهذا سبب اضافي آخر يدعو الى اعادة بنائه على نحو أمتن وأرسخ . ولئن كان الاوروبيون الغرباء يضمرون الشر لعزلة الصين الازلية ، تلك العزلة التي هي مصدر أصالتها ، فليس على الصينيين الا ان يزدادوا تعلقا بتعاليم الاسلاف . وتعاليم الاسلاف هي في الصين تعاليم كونفوشيوس ، كما كانت في روسيا تعاليم الكنيسة الاورثوذكسية.

النزعة السلافية تعاود اذن ظهورها ، ولكنها هذه المرة صينية . أيكرر التاريخ نفسه ؟ أجل ، بمعنى من المعاني . النزعة السلافية ، وكذلك نقيضتها النزعة الغربية . فالصين تشهد بدورها ولادة انتلجانسيا جديدة : الطلاب الذين يمموا بوجوههم شطر الجامعات الاوروبية ، وكذلك الضباط الذين قضت الضرورات الحربية بارسالهم الى الاكاديميات العسكرية الغربية ليتعلموا كيف يقاتلون الدخلاء بنفس اسلحتهم . والاحتياطات على كثرتها لن تجدي هذه المرة ايضا . فالمرشدون الروحيون الذين طلب اليهم مرافقة البعثات التعليمية الى اوروبا حتى لا ينقطع اتصال الشبان الاغرار بالحكمة الكونفوشية لن يستطيعوا بفصاحتهم وبلاغتهم الذهبية اقناع اولئك الاغرار بأن النور الذي تعاينه أعينهم في العواصم الاوروبية ان هو الا ظلام دامس بالمقارنة مع النور الحقيقي ، نور كونفوشيوس الذي رسم للانسان دربه الازلي الابدي . ولكن ما تراه العين ليس كما تسمعه الاذن . والعين ترى عكس ما تسمعه الاذن : ان الصين لم تعش حتى الان في ظلام دامس الا لانها كانت كونفوشية .

اذن سيعود الطلاب من اوروبا وسيكرسون كل جهودهم ليدفعوا بالصين على

طريق «التغريب» . وهذا التغريب لن يكون في بداية الامر الا نقدا لاذعا لكل القيم التقليدية المتوارثة ولكل المذاهب السلافية الصينية . وقبل كل شيء على صعيد الثقافة : تبني منهج الشك الديكارتي في تقييم التراث الكونفوشي (١) ، والثورة على الاشكال البلاغية السائدة (٢) ، واعتماد اللغة الدارجة الشعبية بدلا من اللغة البلاغية التي لا يفهمها سواد الشعب .

في هذه الخصومة بين التقليديين والغربيين ستتكرر معظم الاتهامات التي رافقت خصومة الاربعينيات من القرن الماضي في روسيا . وسينتصب هرزن الصين ، شن دو ـ كسيو (٣) ، ليرد الصاع صاعين : «تتهموننا بأننا نهدف الى تدمير الكونفوشية والطقوس والاصالةالقومية وعفاف النساء والاخلاق التقليدية.. ونحن نعترف بصحة هذه الاتهامات كلها . ولكننا لا نقر بالذنب . واذا كنا قد ارتكبنا كل هذه الجرائم ، فهذا فقط لاننا نمحض تأييدنا لسيدين : الديموقراطية والعلم ... اننا لا نعرف حقا اي مؤسسة من مؤسساتنا يمكن ان تكون قابلة للتكيف مع شروط البقاء في العالم الحديث . وانني لأحبذ ان ارى هلاك «أصالتنا القومية» بدلا من استئصال شأفة عرقنا لعجزه عن البقاء . ان البابليين لم يعد لهم وجود : فما فائدة حضارتهم لهم اليوم ؟.. واذا ما ثابرنا على الحلم بسلالاتنا الماضية ، فان شعبنا سيجد نفسه خارج القرن العشرين وقد قضي عليه بأن يحيا كالعبيد والدواب» .

ولكن لنكن على بينة من امرنا : ان الغرب لم يكن بالنسبة الى الانتلجانسيا الصينية مثالا اعلى فحسب ، بل كان ايضا عدوا . فروسيا التي احتكت بالغرب منذ أواخر القرن السابع عشر لم ترَ منه سوى وجهه العلمي والديموقراطي والثوري . ولكن الصين التي احتكت به ابتداء من منتصف القرن التاسع عشر من خلال حرب الافيون ومناطق نفوذه في المدن الصينية الساحلية قد رأت ايضا وجهه الامبريالي . والروس في نظر الاوروبيين كانوا أنسباء وما كانوا غرباء ، ولكن الصينيين كانوا في نظر المستعمرين الاوروبيين كلابا ، او على الاقل برابرة . ومن هنا فان النزعة الغربية المحضة كانت مستحيلة في الصين . فالروس يستطيعون ان يكونوا غربيين لا أقل ولا اكثر لانهم في خاتمة المطاف غربيون ، ولكن الصينيين مهما أوغلوا في التغرب فلن يصبحوا غربيين . والحقيقة انهم لا يريدون ان يكونوا غربيين الا ليصبح في مقدورهم ان يطردوا الغربيين . والغرب لن يكون مثالهم الاعلى الا لانه عدوهم .

لقد امكن المغرب ان يقهر الصين لانه غرب . والصين تريد بدورها ان تكون

---

١ ـ مثلما فعل عندنا طه حسين «في الادب الجاهلي» ، قبل خيانته للعقل والعقلانية .

٢ ـ التي تذكرنا الى حد بعيد بالاساليب الادبية العربية السائدة في عصر الانحطاط .

٣ ـ الذي سيؤسس بعد تحرره من النزعة الشعبية الحزب الشيوعي الصيني ويتولى زعامته.

غربا لكي تقهر الغرب . ومثال اليابان شاهد قريب . فاليابان الاضعف من الصين بما لا يقاس حجما وعدد سكان قد قهرت الامبراطورية السماوية لانها تمثلت التقنية الغربية . وهذا بالضبط ما تريده الصين : ان يكون التغريب وسيلة لقهر الغرب . ومهما بدت المفارقة كبيرة ، فان أنصار النزعة الغربية من الصينيين ما كانوا كذلك الا لانهم صينيون ، وصينيون قوميون .

وعلى ضوء هذه الحقيقة يجب ان نفهم الثورة الثقافية الصينية الاولى (حركة ٤ ايار ١٩١٩) . فهذه الحركة التي سددت ضربات قاصمة للكونفوشية وللثقافة الصينية القومية كان باعثها الاول سببا سياسيا قوميا . فالطلاب الذين تظاهروا بأعداد هائلة في الشوارع وهم يهتفون «ليسقط دكان كونفوشيوس !» انما تظاهروا في الحقيقة احتجاجا على مؤتمر باريس الامبريالي (١٩١٩) الذي أقر لليابان بحقها في الاحتفاظ بامتيازاتها الاستعمارية في الصين . وعلى هذا فان حركة ٤ ايار التي رفعت عاليا راية التغريب كانت حركة قومية موجهة ضد الامبريالية . وهي لم تعاد الثقافة الصينية القديمة الميتة الا دفاعا عن الامة الصينية الحية ، ولم تكن مناهضة للثقافة الصينية الا بدافع النزعة القومية .

ولأن الثورة الثقافية كانت ثورة قومية ، لذا لم يكن من الممكن ان تقتصر على الثقافة . وكما انقسمت النزعة الغربية على نفسها بعد انتصارها على السلافيين في روسيا ، كذلك انقسمت حركة ٤ ايار على نفسها بعد انتصارها على الكونفوشيين . وبرز في الصين كما في روسيا تيار ليبيرالي وتيار شعبي. فالجناح الليبيرالي من حركة ٤ ايار قنع بالثورة الثقافية والادبية ولم يحاول تخطيها ، في حين أصر الجناح الجذري او الشعبي على الانتقال من «الثورة الأدبية الى الادب الثوري» واعتبر الثورة الثقافية مجرد شرط وتمهيد لثورة سياسية واجتماعية . وفي الصين كما في روسيا تراجع التيار الليبيرالي بسرعة ليحصر نفسه في نزعة غربية ضيقة وفي البحث الجامعي والاكاديمي مستلهما مثال الولايات المتحدة الاميركية التي كان لفلاسفتها وعلمائها نفوذ كبير في أوساط الجامعات الصينية . وبالمقابل تقدم التيار الجذري الذي استحق صفة الشعبية اكثر من الشعبيين الروس لانه انتمى الى الشعب فعلا لا الى مفهوم معين عن الشعب ، ولانه انتهى ، تحت تأثير ثورة اوكتوبر الروسية على وجه التحديد ، الى مواقع الاشتراكية الماركسية لا الى مواقع الاشتراكية الطوبائية النارودنية .

وهنا لا بد ان نتوقف قليلا عند الثورة الروسية وما مارسته من جاذبية على الانتلجانسيا الصينية . فحتى الحرب العالمية الاولى كان المثال الياباني مصدر وحي المثقفين الصينيين . ولكن هذا المثال كان محرجا بعض الشيء . اولا لان اليابان أسفرت عن أطماعها في ثروات الصين ، وثانيا لان المثقفين الصينيين ما كانوا يملكون اي دليل على ان دفة السفينة لم تفلت نهائيا من أيدي اليابانيين وعلى ان هؤلاء الاخيرين لم يكتفوا بتبني تقنية الغرب بل روحه ايضا وعلى انهم لم يفقدوا نهائيا ذاتيتهم القومية الخاصة . ولقد كان مثال اليابان جذابا لانه كان

المثال الوحيد على نجع التغريب ، ولكنه كان ايضا مفزعا لانه ما كان يشير الى الحدود التي يجب ان يتوقف عندها التغريب : أتغريب القالب ام تغريب القلب والقالب معا ؟ والحال ان فجيعة الذات القومية الصينية هي التي قادتها كما رأينا في دروب التغريب . وهذا التغريب يجب ألا يكون اكثر من وسيلة لصيانة تلك الذات . ومن هنا كان التباس المثال الياباني ، ومن هنا ايضا كان تفوق المثال الروسي ، بمجرد ظهوره ، في أنظار الانتلجانسيا الصينية . فالاتحاد السوفياتي اولا لم يظهر أي مطامع توسعية تجاه الصين ، بل انه تنازل من تلقاء نفسه — وهذا ما لم يحدث قط في التاريخ — عن امتيازاته التقليدية في الصين . والاتحاد السوفياتي سار ثانيا في طريق التغريب من غير ان تنسيه الوسيلة الهدف . والاتحاد السوفياتي قرن ثالثا الثورة التقنية بثورة اجتماعية . والاتحاد السوفياتي يقدم رابعا وأخيرا ايديولوجية غربية تدين الغرب . ولعل النقطة الاخيرة هي اهم النقاط . ذلك ان الماركسية ، وقد أكسبها لينين طابعا معاديا للامبريالية ، صارت برسم الاستهلاك المباشر في البلدان المستعمَرة ونصف المستعمَرة . واذا ما أضفنا الى ذلك المسحة الفلاحية التي أضفتها عليها الاستراتيجية البلشفية ، أمكن لنا ان نتصور كيف استطاعت الماركسية في مدى ربع قرن لا اكثر ان تجتاح القارة الصينية وأن تقود ربع البشرية قاطبة على طريق الاشتراكية .

ولكن هنا ايضا لا بد ان نشير الى ان الماركسية قبل ان تحقق هذا النصر الباهر وحتى تحققه ، كان عليها اولا ان تتحول الى ماركسية صينية ، اي ان تتحول من ماركسية كلاسيكية ومن ماركسية — لينينية الى ماركسية — لينينية — ماوية . فما الماوية وكيف تكونت وماذا اضافت الى التراث الماركسي ؟

صن يات صن

بين ماركس ولينين كان يقف كما رأينا في فصل سابق هرزن والشعبيون الروس ، وبين ماركس ولينين من جهة وبين ماوتسي تونغ من الجهة الثانية كان يقف الغربيون والشعبيون الصينيون وفي مقدمتهم صن يات صن . وكما ان اللينينية تبنت العناصر التقدمية والروسية الاصيلة من الشعبية وتمثلت خصوصية الواقع الروسي ضد مخططات المدرسة الماركسية الغربية المجردة (بليخانوف والمناشفة) ، كذلك ستتبنى الماوية العناصر التقدمية والصينية الاصيلة من الصنياتصنية وستتمثل خصوصية الواقع الصيني ضد المخططات المجردة للماركسيين الصينيين المناشفة (شن دوكسيو و لي لي سان) .

فماذا كانت تمثل الصنياتصنية ؟

كان صن يات صن ابنا لفلاح صيني ، وطبيبا هجر ممارسة الطب ليكرس حياته للدعاية الثورية . وقد اعتنق المسيحية منذ حداثته مؤكدا بذلك تمرده

المبكر على التقاليد المتحجرة للحضارة الصينية القديمة وتبنيه شبه المطلق لمفاهيم الحضارة الاوروبية . ولكن صن يات صن لم يكن مجرد غربي متحمس ، مثاله الاعلى الولايات المتحدة الاميركية ورئيسها لنكولن ، بل كان ايضا قوميا صينيا متحمسا ، شأنه شأن كل الغربيين الصينيين الذين ارادوا تطبيق الديموقراطية الغربية في بلادهم لا حبا بالديموقراطية كمفهوم مجرد بل لكي تصير بلادهم قوية كما صارت فرنسا أقوى أقطار اوروبا بعد ثورتها الديموقراطية الكبرى . وكان ايمان صن يات صن عارما بعراقة الشعب الصيني وبقدرته على خلق حضارة تضاهي أرفع الحضارات في العالم . وقد اعتبر ان الشرطين الضروريين لتحقيق ذلك هما : اولا استثمار الثروات الطبيعية الهائلة في الصين بواسطة الاساليب التقنية الغربية ، وثانيا تحرير البلاد من حكم السلالة المنشورية الاجنبية التي شوهت روح الحضارة الصينية وأذلت الكرامة القومية للشعب الصيني ومزقت وحدة اراضيه وكيانه .

وقد صاغ صن يات صن مذهبه في **مبادىء الشعب الثلاثة** : القومية والديموقراطية والاشتراكية . واذا كان قد قدم القومية على الديموقراطية والاشتراكية فهذا لانها كانت في نظره الاساس والمنطلق . والواقع ان صن يات صن لم يستخدم مصطلحي الديموقراطية والاشتراكية ، وانما آثر عليهما تعبير سيادة الشعب ورفاهية الشعب تجنبا لاستخدام المصطلحات الغربية . والمنطلق القومي لصن يات صن هو الذي جعله في نزعته الاشتراكية اقرب الى الاشتراكي الاميركي التعاوني هنري جورج منه الى ماركس . فقد رفض صراحة حرب الطبقات اعتقادا منه بأنها تعرض وحدة الامة للخطر ، وقال بأن مبدأه الثالث «توفير الرزق» او «رفاهية الشعب» «هو الشيوعية ، هو الاشتراكية» ، ولكنه اختار عن عمد ذلك التعبير «الصيني» تمايزا عن الاشتراكيين الغربيين الذين يركزون اللهجة على الخلافات الطبقية .

وقد أسس صن يات صن في عام ١٨٩٤ منظمة ثورية عرفت باسم «اتحاد بعث الصين» ، ثم عرفت ابتداء من عام ١٩٠٥ باسم «الحلف الثوري» وابتداء من عام ١٩١١ باسم «الكيومنتانغ» او «الحزب القومي» . وكانت القوة الرئيسية لهذه المنظمة تكمن خارج الصين: في اوساط الطلاب والتجار الصينيين المهاجرين. ولكن الكيومنتانغ اكتسب أنصارا ايضا داخل الصين . بيد ان هذه العناصر الثورية الاولى كانت متباينة عظيم التباين اجتماعيا وطبقيا ، ولم يكن يجمع بينها غير وحدة العداء للاسرة المنشورية وللنفوذ الاجنبي . وهذا ما يفسر اصلا السهولة النسبية التي تمت بها ثورة ١٩١١ ، ولكن هذا ما يفسر أيضا فشلها السريع . ففي «العاشر المزدوج» ، العاشر من الشهر العاشر من عام ١٩١١ وقع تمرد محلي في احد الاقاليم ، سرعان ما تحول الى ثورة عامة على حكم آل تسينغ الذي كان قد تزعزع بنتيجة الصراع الداخلي على السلطة بين أفراد الاسرة المالكة.

وقد أرسل المتمردون في طلب صن يات صن ليتولى زعامة الثورة ورئاسة الجمهورية التي أعلنت في أوائل عام ١٩١٢ . ولكن لم تمض فترة وجيزة حتى

وجد صن يات صن نفسه مضطرا الى التنازل عن رئاسة الجمهورية لصالح يوان شي كاي المستشار السابق للحكومة الامبراطورية . وقد حكم يوان هذا الصين حكما دكتاتوريا ، وكاد يعلن نفسه امبراطورا لولا ان عاجلته المنية في عام ١٩١٦ . ومرت الصين آنذاك بفترة من الفوضى ، وانقسمت الى عدد من الاقاليم المستقلة التي يحكم كلا منها احد «سادة الحرب» دونما اعتبار لاي سلطة مركزية . ودامت هذه الحال عشر سنوات الى ان قام الكيومنتانغ بثورته الثانية في عام ١٩٢٦ .

لقد كانت ثورة ١٩١١ درسا قاسيا . فصحيح انها حررت الصين من حكم المنشوريين ، ولكنها هددت وحدتها القومية بالتجزئة الدائمة . فالعناصر التي وحّدها عداؤها للاسرة المنشورية سرعان ما انفرط عقدها فور الاطاحة بتلك الاسرة ، ووجد صن يات صن وأنصاره انفسهم أسرى القوى الاقطاعية التقليدية التي ما كادت تطيح بالسلطة المركزية حتى انفردت بأقاليم الصين تحكمها كيفما شاءت كما كان نواب الملك يحكمون المقاطعات الاوروبية في العصر الاقطاعي ، ولكن مع فارق وحيد وهو ان الملك في حالة الصين لم يكن له وجود .

وقد انتهزت اليابان فرصة الفوضى هذه (وكذلك فرصة الحرب العالمية الاولى وانشغال الدول الاوروبية الامبريالية فيما بينها) لتتقدم بمطالبها الاحد والعشرين التي اضطر سادة الحرب الى القبول بها صاغرين والتي حولت الصين عمليا الى دولة تابعة مستعمرة لليابان .

وفي اثناء ذلك كان صن يات صن قد تمكن من اقامة حكومة جمهورية ثورية في جزء من جنوبي الصين في كانتون . وكانت سلطته تمتد احيانا لتشمل مناطق واسعة وتتقلص احيانا اخرى لتفقد السيطرة على كانتون نفسها . وقد تقدم اكثر من مرة بطلب المساعدة من الحكومات الاوروبية التي كان يتصور انها تؤيد ولا بد قيام حكومة ديموقراطية على الطراز الاوروبي في الصين ، لكن نداءاته المتتالية ذهبت أدراج الرياح . وازاء خيبة الامل هذه وجد صن يات صن نفسه مضطرا الى التوجه الى الاتحاد السوفياتي الذي دخل الحلبة الدولية مبشرا بمبادىء جديدة تقوم على التعاون الاممي .

واذا كان المؤرخون قد تكلموا كثيرا عن تأثير الثورة الروسية على الثورة الصينية ، فمن الواجب ان نقول ان صن يات صن الذي تكونت افكاره واكتملت قبل قيام الثورة الروسية بحقبة طويلة لم يتحول الى المدرسة البلشفية الا بعد ان يئس من الغرب .

ان الصنياتصنية هي قبل كل شيء مذهب قومي . واذا كان صن يات صن قد اتجه الان نحو التحالف مع البلشفية ، فان ذلك كان بدافع قومي محض . والبيان المشترك الذي اذاعه في ١٣ كانون الثاني ١٩٢٣ كل من الدكتور صن ومبعوث الحكومة السوفياتية إيوفي بمناسبة قبول المساعدة السوفياتية صريح كل الصراحة حول تلك النقطة .

فقد جاء في هذا البيان : «ان الدكتور صن يات صن يعتقد ان النظام الشيوعي ، او حتى النظام السوفياتي ، لا يمكن تطبيقه في الصين في الوقت الحاضر بسبب عدم توفر الظروف التي تسمح باقامة الشيوعية او السوفياتية بنجاح . ويشاركه السيد إيوفي في وجهة النظر هذه تماما ، وهو يعتقد بدوره ان اهم مشكلات الصين وأكثرها الحاحا تحقيق الوحدة القومية وبلوغ الاستقلال القومي الكامل» .

ان فشل ثورة ١٩١١ وخيبة الامل بالمساعدة التي يمكن ان تقدمها الدول الغربية قد أقنعا صن يات صن في أواخر حياته بأن النظام الديموقراطي الدستوري لا يمكن ان يكون طريق الصين الى القوة والعزة القومية . وبالمقابل فان التجربة البلشفية في الاتحاد السوفياتي قد قادته الى الاعتقاد بأن الثورة قد تكون هي أمل الصين في الخلاص . وليس الحس الطبقي او حس العدالة الاجتماعية هو الذي جعل صن يات صن ثوريا على الطريقة البلشفية في أواخر حياته ، وانما الحس القومي والرغبة في ان تتبوأ الصين المكانة التي تؤهلها لها حجمها وتطلعها . كتب قبل عام واحد من وفاته : «اذا بلغت الصين مستوى اليابان ، فانها ستصبح قوية بقوة عشر دول . وفي الوقت الراهن ليس في العالم سوى خمس دول كبرى : انكلترا والولايات المتحدة وفرنسا واليابان وايطاليا . وعندما سيشتد ساعد المانيا وروسيا من جديد ، فلن يزيد ذلك العدد عن ست دول او سبع . ولكن يكفي ان تدرك الصين مستوى اليابان لا اكثر حتى تعادل بمفردها عشر دول ، وآنذاك تستطيع ان تستعيد مركزها المتفوق » .

ولكن هل يعني هذا ان تجربة التعاون الاقتصادي والسياسي والحزبي مع الاتحاد السوفياتي مرت بدون ان تخلف اي انعكاسات على جوهر الصنياتصنية ؟ بديهي ان لا . ويكفي هنا ان نذكر ان صن يات صن اعطى بنتيجة تلك التجربة تفسيرا جديدا لمبادىء الشعب الثلاثة التي اصبحت تعرف باسم مبادىء الشعب الثلاثة الجديدة ، وهي التحالف مع العمال والفلاحين والتحالف مع الحزب الشيوعي الصيني والتحالف مع الاتحاد السوفياتي . وهذه التحالفات الثلاثة قد اعطت في الواقع للثورة الصينية بعدا جديدا : فمن ثورة ديموقراطية بورجوازية تحولت الى ثورة ديموقراطية شعبية ، اي ثورة ديموقراطية تمهد لا لتطور الرأسمالية ولدكتاتورية البورجوازية بل لتطور الاشتراكية ولدكتاتورية الطبقة العاملة المتحالفة مع الفلاحين الفقراء .

ومن هذه الزاوية فان الماوية هي استمرار للصنياتصنية وتجاوز لها في آن واحد . استمرار لها لانها أقرت مثلها بشرعية المنطلق القومي للثورة ، وتجاوز لها لانها اخرجت مفهوم الامة من سديميته وأعطته مضمونا طبقيا محددا .

والواقع أن الماوية لم تتكون في معرض النضال ضد الصنياتصنية كما تكونت اللينينية في معرض النضال ضد الشعبية . وكتابات ماو لا تنطوي على اي نقد للصنياتصنية ، بل كانت تؤكد دوما ان الماركسيين الصينيين ، لا تشان

كاي شيك ، هم الورثة الشرعيون والمخلصون والمنطقيون لتراث صن يات صن. والى عهد قريب (١) كان صن يات صن في نظر ايديولوجيي الصين الشعبية ومؤرخيها أبا القومية الصينية وبشيرها ورائد ثورتها .

وليس من قبيل الصدفة اصلا ان يكون الحزب الشيوعي قد ولد من صلب حركة ٤ ايار ١٩١٩ ، وأن يكون ماو نفسه قد لعب دورا كبيرا في هذه الحركة قبل ان يصبح ماركسيا : فالماركسية الصينية والماوية لا تمثلان قطيعة مع تراث الحركة القومية الديموقراطية الثورية ، بل هما استمرارها وتتويجها وتجذيرها .

وبالمقابل فان الماوية قد تكونت في معرض النضال ضد المناشفة الصينيين، اي على وجه التحديد ضد الماركسيين الصينيين الاوائل الذين أنستهم ماركسيتهم الفتية انهم صينيون والذين ارادوا مثل بليخانوف روسيا ان يطبقوا على خصوصية الواقع الصيني صيغا ثورية جاهزة و«مستوردة» .

فجيعة الثورة الصينية الاولى

في تموز ١٩٢١ ، وبناء على قرار المؤتمر الثالث للاممية الشيوعية ، اجتمع في شنغهاي بحضور مارينغ، مندوب الاممية الشيوعية ، اثنا عشر مندوبا يمثلون سبعة وخمسين عضوا لا غير هم كل عدة الحزب الشيوعي الصيني الذي أعلن عن تأسيسه رسميا . وبالرغم من ان شن دوكسيو ، هرزن الصين ، كان غائبا عن الاجتماع ، فقد انتخب أمينا عاما للحزب الوليد . وكان بين الحاضرين في ذلك الاجتماع شاب قاد في ٤ ايار ١٩١٩ مظاهرات الاحتجاج ضد المطالب اليابانية الاحد والعشرين : ماوتسي تونغ الذي جاء مندوبا عن اقليم هونان .

وبعد ثلاثة اشهر من ذلك المؤتمر التأسيسي اجرى مارينغ اتصالاته الاولى مع صن يات صن في كانتون لحمله على التعاون مع الاتحاد السوفياتي والشيوعيين الصينيين . ولكن صن يات صن اجاب بالرفض القاطع . وفي الشهر الخامس من ١٩٢٢ عقد الحزب الشيوعي الصيني مؤتمره الثاني وأصدر على اثره بيانا يدعو الى اقامة جبهة معادية للامبريالية مع حزب صن يات صن : الكيومنتانغ . ولكن صن يات صن رفض من جديد . بيد انه اضطر الى التراجع عن موقفه السلبي قليلا عندما وجد نفسه مطرودا هو وهيئة أركان حزبه وحكومته خارج كانتون بنتيجة تآمر احد جنرالاته مع «سادة الحرب» . وبالفعل ، وفي آب ١٩٢٢ ، دعا مندوب الاممية الثالثة مارينغ اعضاء اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الصيني الى اجتماع طارىء اقترح فيه ان ينضم الشيوعيون الصينيون

---

١ ـ اي حتى الى عهد الثورة الثقافية الكبرى التي وجهت فيها الانتقادات ، ولاول مرة ، الى صن يات صن .

بصورة افرادية الى الكيومنتانغ باعتبار ان الكيومنتانغ ليس حزبا بورجوازيا وانما حزب ثوري يضم طبقات شتى وان من واجب الشيوعيين ان ينتسبوا اليه حتى يدفعوا به على طريق الثورة . بيد ان اعضاء اللجنة المركزية الخمسة رفضوا هذا الاقتراح حرصا على استقلال التنظيم الشيوعي وتمايزه الطبقي . ولكن مارينغ أصر على اقتراحه ، واتهم اعضاء اللجنة المركزية بمخالفة انضباط الاممية الثالثة وبالتمرد على تعليماتها . ولم يكن هناك مفر من الاذعان .

وأثناء ذلك كان مندوب الحكومة السوفياتية ، آدولف إيوفي ، قد تمكن من اقناع صن يات صن بضرورة التعاون ، وأصدر معه ذلك البيان المشهور الذي أقر فيه بأن الشيوعية لا تصلح للصين . ومقابل هذا التعهد ، ومقابل مساعدات مالية وعسكرية هامة ، وافق صن يات صن على اعادة تنظيم الكيومنتانغ على أيدي خبراء سوفييت ، وسمح بقبول الشيوعيين الصينيين فرديا . ولكن صن يات صن كان ــ لنكرر ذلك ــ واضحا صريحا ، فقد قال لمارينغ : «ما دام الحزب الشيوعي الصيني قد انتسب الى الكيومنتانغ ، فان عليه ان يتقيد بانضباط الكيومنتانغ. واذا ما وقفت روسيا السوفياتية الى جانب الحزب الشيوعي الصيني ، فانني سأقف فورا ضد روسيا السوفياتية» .

وفي مطلع عام ١٩٢٤ عقد الكيومنتانغ بعد ان أعيد تنظيمه على الطريقة البلشفية مؤتمره الاول وأقر سياسة التحالفات الثلاثة ، وانتخب عددا من الشيوعيين اعضاء في لجنته التنفيذية ، ومن بينهم ماوتسي تونغ كعضو وكيل .

وقد أحسن الشيوعيون الصينيون ، والحق يقال ، انتهاز الفرصة التي اتاحها لهم العمل ضمن اطار الكيومنتانغ . ويكفي ان نقول ان عدد اعضاء الحزب قد ارتفع من ٣٠٠ في عام ١٩٢٤ الى ٥٨٠٠٠ في نيسان من عام ١٩٢٧ . ولكن سرعة النمو الفائقة هذه كانت تحمل في ذاتها مخاطرها . فهذا النمو لم يكن طبيعيا ، وانما كان أشبه بتورم متضخم سببته السياسة الانتهازية للاممية الثالثة ، تلك السياسة التي ضربت عرض الحائط بالمبدأ اللينيني الاساسي عن استقلالية الحزب البروليتاري . ولسوف يدفع الشيوعيون الصينيون ثمن هذه السياسة ، ولسوف يدفعونه غاليا .

ذلك ان صن يات صن كان قد توفي في ١٢ آذار ١٩٢٥ ، وخلفه في زعامة الحزب القومي تشان كاي شيك الذي كان يكنّ عداء لدودا للشيوعيين والذي كان مؤهلا اكثر من غيره لمكافحة الشيوعيين لانه كان قد تلقى في موسكو بالذات دروسه العسكرية والحزبية . ولسوف يحرز تشان كاي شيك نتائج باهرة في فن استخدام التكتيك الشيوعي في حرب ابادة الشيوعيين .

ان اول ما فعله وريث صن يات صن هو طرحه نفسه على الجماهير على انه منفذ وصية صن والزعيم الذي القى التاريخ على عاتقيه بمهمة تحرير الصين وتوحيدها . ولقد كان بحاجة الى هذه الهالة القومية حتى يبرر سلفا المجزرة الطبقية التي يعدها للشيوعيين . وليس من قبيل الصدفة ان يكون قد اتخذ قراره بمكافحة الشيوعيين في اجتماع عقده في خريف ١٩٢٥ مع قادة الجناح

اليميني من الكيومنتانغ امام ضريح صن . فلكأنه اراد ان يقول بذلك انها ارادة رائد القومية الصينية .

اما التغطية اليسارية لمشروعه الاجرامي فلم يكن بحاجة الى اختراعها : فأعداؤه انفسهم متكفلون بها . فالكيومنتانغ عضو نصير في الامية الشيوعية ، وتشان كاي شيك عضو فخري في لجنتها التنفيذية ، واللقب الرسمي لحكومته هو حكومة كانتون الثورية ، وستالين بشخصه يصفه بأنه حليف موثوق وقائد الثورة الصينية .

وعبثا سيحاول الشيوعيون الصينيون ان يقنعوا الامية الشيوعية بضرورة انسحابهم من الكيومنتانغ والاستعداد لمواجهة الثورة المضادة التي تشير كل الدلائل الى انها واقعة حتما . ولكن تعليمات الامية الثالثة كانت صريحة قاطعة : البقاء بأي ثمن داخل الكيومنتانغ .

وفي ٢٠ آذار ١٩٢٦ ، اي بعد ايام من تسمية تشان كاي شيك عضوا فخريا في مجلس رئاسة الامية الثالثة ، قام «الحليف الموثوق» بمراجعة عامة للمجزرة التي سينفذها بعد عام . فقد اعلن في ذلك اليوم الاحكام العرفية وأغلق مقرات المنظمات العمالية في كانتون وجرد العمال من اسلحتهم واعتقل العديد من الشيوعيين . ولكن ستالين رفض ان يصدق النبأ وتولت الصحافة السوفياتية بالفعل تكذيبه ووصفته الصحيفة الرسمية للامية الثالثة بأنه «مناورة امبريالية بريطانية» تهدف الى بث الفرقة في معسكر الثورة والايقاع بين أشقاء المعركة الواحدة .

وكانت الاسلحة السوفياتية تتدفق بغزارة آنذاك على تشان كاي شيك استعدادا لشن «حملة الشمال» التي كانت تستهدف القضاء على سادة الحرب واعادة توحيد الصين . وقد ارسلت اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الصيني مندوبا عنها الى كانتون لمقابلة بورودين ، ممثل الامية الثالثة ، ولاقناعه بضرورة اقتطاع ٥٠٠٠ بندقية من البنادق المرسلة الى قوات تشان كاي شيك وتسليمها الى الحزب الشيوعي ليسلح بها انصاره .

ولكن بورودين رفض وألح على ضرورة تأييد الشيوعيين المطلق لقائد حملة الشمال وقال : «ان الفلاحين المسلحين لا يستطيعون مقاومة قوات سادة الحرب ولا الاشتراك فيحملة الشمال. انهم لا يستطيعون الا ان يثيروا ريبة الكيومنتانغ». ويعلق شن دوكسيو ، زعيم الحزب الشيوعي الصيني آنذاك ، على هذه الحادثة بقوله : «كانت مرحلة حرجة للغاية ، مرحلة أرغم فيها كيومنتانغ البورجوازية البروليتاريا على اتخاذه دليلا وعلى اتباعه ، مرحلة اعلنت فيها البروليتاريا جهارا استسلامها للبورجوازية ورغبتها في السير في ركابها وفي الانضواء تحت رايتها .

«وقد قال مندوب الامية الشيوعية بالحرف الواحد : ان المرحلة الراهنة هي مرحلة يتوجب فيها على الشيوعيين ان يقوموا بعمل العتالين لحساب الكيومنتانغ.

ومنذ تلك اللحظة لم يعد الحزب حزب البروليتاريا ، بل راح يتحول ليصبح الجناح اليساري المتطرف من البورجوازية وليغوص في الانتهازية» .

وفي ١٥ ايار ١٩٢٦ اتخذت اللجنة المركزية للكيومنتانغ قرارات سافرة في عدائها للشيوعيين : اقالة جميع العناصر الشيوعية من المناصب القيادية في الكيومنتانغ ، وتحريم انتقاد الشيوعيين للصنياتصنية ، وتسليم الكيومنتانغ قائمة بأسماء جميع الشيوعيين المنتسبين اليه . وبالرغم من قسوة هذه الشروط ، قبل بها الشيوعيون تحت ضغط بورودين الذي استمر في عمله كمستشار لتشان كاي شيك وحكومة كانتون ولكن الى حين . فقد أمر تشان كاي شيك بطرده بدوره ، وذلك قبيل بدء حملة الشمال الكبيرة ، في تموز١٩٢٦ .

وبالرغم من هذه الوقائع كلها بقي الكومنترن متمسكا بضرورة التعاون مع الكيومنتانغ والانصياع لنزوات تشان كاي شيك . وقد بعث في ٢٦ تشرين الاول ببرقية الى الشيوعيين الصينيين يطلب اليهم فيها عرقلة الحركة الفلاحية وعدم القيام بأي شيء من شأنه احراج حملة الشمال .

وفي ٣٠ تشرين الثاني ١٩٢٦ ، وأمام الشعبة الصينية من اللجنة التنفيذية للاممية الشيوعية ، القى ستالين خطابا عن «آفاق الثورة الصينية» وصف فيه جيش تشان كاي شيك بأنه «جيش ثوري وعامل هام في نضال العمال والفلاحين من اجل تحررهم» ووصف تقدمه نحو الشمال بأنه «ضربة مسددة الى الامبريالية وعملائها في الصين» وبأنه يعني «حرية الاجتماع وحرية الاضراب وحرية الصحافة وحرية التنظيم لجميع العناصر الثورية الصينية بوجه عام وللعمال بوجه خاص» وانتهى الى الاستنتاج بأن فكرة خروج الشيوعيين الصينيين من الكيومنتانغ «فكرة غير معقولة» و«خطأ كبير» وبأن من واجب الشيوعيين الصينيين ان يبقوا فيه وأن يضاعفوا نشاطهم .

وبالفعل كانت حملة الشمال تتقدم ، لا بقوة جيش تشان كاي شيك ، وانما ، وقبل كل شيء ، بقوة الاضرابات العمالية والتمردات الفلاحية التي أنهكت قوات سادة الحرب قبل مواجهتها لبعثة الشمال . ولكن تقدم حملة الشمال لم يكن تقدما نحو الحريات الديموقراطية كما خيل لستالين او كما خيل لنفسه . ولئن كان صن يات صن قد أكد ذات يوم ان تقدم الصين نحو الديموقراطية سيكون بنفس قوة تدفق مياه اليانغسي ، فان منفذ وصيته ، تشان كاي شيك ، عرف كيف يعكس الآية ويقيم الدليل على ان الصين تتقدم بقوة لا تقهر نحو الدكتاتورية. ولقد تمت عملية اقامة البرهان هذه عند ابواب مدينة شانغهاي ، ثم في داخلها، ثم على نطاق الصين قاطبة .

ففي الحادي والعشرين من آذار ١٩٢٧ نظم شيوعيو شانغهاي ونقابتها العامة اضرابا شاملا انتهى في اليوم التالي بسقوط المدينة بين أيدي المتمردين الذين دعوا تشان كاي شيك الى دخولها . ولكن هذا امتنع عن تلبية نداء المتمردين آملا ان يتمكن قائد حامية المدينة من قمعهم . ولم تدخل قوات تشان كاي شيك شانغهاي الا في يوم ٢٦ بعد ان تأكد ان التمرد قد نجح نهائيا . وكان همه الاول

بعد دخوله المدينة اعادة الامور الى نصابها وتوطيد «الامن والقانون» . وهكـــذا اتصل من فوره برجال الاعمال في شانغهاي وبالجالية الاوروبية وبرجــــال العصابات ليشكل منهم «شرطة مساعدة» . ولقد كان الهدف التآمري من كـل هذه الاستعدادات واضحا الى درجة ان الكيومنتانغ نفسه قرر في مؤتمـــره المنعقد في مدينة هانكيو اقالة تشان كاي شيك من جميع مناصبه ونقل سلطاته الى حكومة مدنية يرأسها وانغ وينـغ وي زعيم الجناح « اليساري » فـــي الكيومنتانغ .

وفيما كانت الصحافة الشيوعية العالمية تحيي تشان كاي شيك على انه قائد الثوريين والعمال الصينيين وتصف دخوله الى شانغهاي على انه «مرحلة جديدة في تطور الثورة العالمية» وتجديد لكومونة باريس والكومونة الروسية ، كـــان مندوب الكومنترن يصدر أوامره الى الشيوعيين الصينيين والى عمال شانغهاي بإخفاء اسلحتهم او طمرها تجنبا لكل صدام مع قوات تشان كاي شيك .

وفي ٥ نيسان ١٩٢٧ ، وأمام ثلاثة آلاف من موظفي الحزب في موسكو ، أكد ستالين ان تشان كاي شيك ما يزال مخلصا : «قد لا يكون تشان كاي شيك يضمر ودا كبيرا للثورة ، ولكنه يقود الجيش وهو لا يستطيع الا ان يقوده ضـد الامبرياليين » .

وبعد اسبوع واحد بالضبط من هذا التصريح بدأ تشان كاي شيك ، بدعم من الاوساط الامبريالية والبورجوازية ورجال العصابات في شنغهاي ، بتنفيذ انقلابه . ففي صبيحة ١٢ نيسان ١٩٢٧ احتلت قواته مقرات المنظمات النقابية والعمالية ، وسحقت مقاومة الشيوعيين المباغَتين ، وأبادت الآلاف منهم . ويروي اندريه مالرو في **الشرط الانساني** ان العديد من الشيوعيين القي بهم في مراجل القطارات أحياء !

وجريا على العادة لم يصدق ستالين وقادة الكومنترن في البداية نبأ المجزرة، ولم تخرج الصحافة السوفياتية عن صمتها لتقر بخيانة تشان كاي شيك الا بعد حوالي عشرة ايام .

ولكن هل كان درس مجزرة شانغهاي القاسي كافيا ؟ هل شعرت قيـــادة الكومنترن بضرورة تبديل تكتيكها بعد ان دفع الآلاف من الشيوعيين أرواحهـــم ثمنا لسياساتها الخاطئة ؟

ان الجواب هو ، مع الاسف ، بالنفي . وكل ما فعلته قيادة الكومنترن هو انها استبدلت الحصان الذي كانت تراهن عليه : فهو الان وانغ وينغ وي قائـد الجناح «اليساري» بدلا من تشان كاي شيك قائد الجناح اليميني . وكل الالقاب الثورية والتقدمية التي كانت تضفى على تشان كاي شيك اصبحت الان برسـم وانغ وينغ وي وحكومته «اليسارية» في ووهان . وعلى الشيوعيين الصينيين ان يقدموا اليه ضروب الطاعة والتذلل كما قدموها من قبل لتشان كاي شيك . واذا كان ضباط وانغ وينغ وي ـ وجلهم من كبار الملاك العقاريين ـ لا ينظرون

بعين الرضى الى حركات تمرد الفلاحين التي كانت ناشطة في اقليمي هونان وهوبي ، واذا كانت هذه الحركات قمينة بتنفيرهم ، فان من واجب الشيوعيين ، بكل بساطة ، ان يوقفوا حركة الفلاحين وأن يدينوا شططهم .

ولا يحجم ستالين بعد هذا كله عن توجيه اللوم اللاذع ، من على منبر اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفياتي ، الى اولئك القادة البيروقراطيين الذين يتصورون ان «من الممكن توجيه الثورة في الصين بالطريق التلغرافي ان جاز التعبير» والذين لا يملكون من القيادة والزعامة غير «بضع صيغ جاهزة قابلة للتطبيق على كل الاقطار وإلزامية في جميع الشروط» والذين لا يقيمون اي اعتبار « للخصوصية القومية لكل قطر » . لا يحجم ستالين عن ترداد هذه الانتقادات التي تدينه هو اكثر من اي زعيم آخر ، وهذا بكل بساطة لان ستالين هو بالتحريف الزعيم الذي أتقن فن تحويل اخطائه وجرائمه الى اتهامات بحق الآخرين !

وبديهي ان المصير الذي ناب الشيوعيين الصينيين على يد وانغ وينغ وي لم يكن بأفضل من المصير الذي لاقوه على يد تشان كاي شيك . وما هي الا اشهر قلائل حتى كان وانغ وينغ وي قد انقلب على حلفائه وبدأ بمطاردتهم وإبادتهم اثباتا منه لحسن نيته تجاه تشان كاي شيك الذي كان قد عاد للتصالح والتعاون معه .

والحق ان هذا المصير كان متوقعا . وقد ضغط بعض القياديين في الحزب الشيوعي الصيني ، في محاولة منهم لتجنب الكارثة قبل وقوعها ، على بورودين لاقناع قيادة الاممية بضرورة انسحاب الحزب من الكيومنتانغ قبل فوات الاوان . وقد رد عليهم بورودين ، الذي لم يكن دوره يتعدى حدود نقل الاوامر التلغرافية، رد بقوله : «انني أوافقكم تماما ، ولكني أعرف ان موسكو لن تسمح ابدا بخروجنا من الكيومنتانغ» . وبالفعل ، ان بورودين نفسه لم يخرج من الكيومنتانغ الا مطرودا ، ومن الصين الا هاربا بعد ان كاد يفقد حياته .

لم يكن انقلاب وانغ وينغ وي آخر فجائع الثورة الصينية . فالسياسة الستالينية ، التي قادت هذه الثورة الى التهلكة ، بحاجة الان الى ان تغسل يديها والى ان تجد «المذنبين» الذين يجب ان يُحمَّلوا تبعة كل ما حدث . ولم يكن هناك من مجال للخلاف على كبش الفداء : انه سيكون شن دو كسيو وغيره من قادة الحزب الشيوعي الصيني الذين يتحملون بالاصل قسطا وافرا من المسؤولية بنتيجة قبولهم الاعمى بالسياسة المرسومة من قبل الكومنترن وتنفيذهم اللامشروط (بالرغم من احتجاجاتهم الواهنة) للاوامر التلغرافية . وهكذا وجهت تهمة الانتهازية الى شن دو كسيو ، واعتبر مسؤولا عن هزيمة الثورة الصينية لعدم تقيده بتعليمات الكومنترن (كذا !) ولضعف ايمانه بقوى الحزب الشيوعي ، وأقيل من زعامة الحزب ، ثم فصل منه لرفضه «الذهاب الى موسكو لمتابعة تعليمه داخل الاممية الشيوعية» . وفي الوقت نفسه عين كوكيوبي امينا عاما للحزب .

وبلهجة لا تخلو من قدر من التعالي الشوفيني راحت القيادة الستالينية «تبرر» أخطاء قادة الحزب الشيوعي الصيني بضعف تكوينهم الماركسي بالمقارنة مع عراقة الماركسية الروسية وأصالتها : «ان شيوعيينا الصينيين ليسوا بلاشفة مئة بالمئة ، نحن نعرف ذلك حق المعرفة . ومن التوهم ان نطلب حتى من الشيوعيين مئة بالمئة من البلشفية . ان حزبنا ، عندما تكوّن ، كان مجموعة من المثقفين والعمال الذين اكتسبوا كل التجربة الماركسية لكل الحركة الاشتراكية ــ الديموقراطية في اوروبا الغربية . لقد كان مؤسسو الاشتراكية ــ الديموقراطية الروسية ماركسيين رفيعي الثقافة . اما حزبنا الشيوعي الصيني فقد انبثق من أرضية مغايرة تماما . فلقد تحدر من حزب صن يات صن الشعبي ، من دون ان يكون قد عرف أسس الماركسية. وانما في الآونة الاخيرة فقط ، وبفضل الاحتكاك مع الاتحاد السوفياتي والاممية الشيوعية ، بدأ يتكون كادر ماركسي . وينبغي علينا ألا ننسى خصائص تكوين الحزب الشيوعي الصيني هذا» (١) .

ولكن تحميل المسؤولية للآخرين لم يكن كافيا لحفظ ماء وجوه اصحاب النفوذ في الكومنترن ، ولاسيما ان المعارضة التروتسكية استغلت فجيعة الثورة الصينية على نطاق واسع وأبت ان تحمِّل مسؤوليتها لغير اصحابها الحقيقيين : الستالينيين . وكان المؤتمر الخامس عشر للحزب الشيوعي السوفياتي الذي سيأخذ على عاتقه مهمة تصفية التروتسكيين على وشك الانعقاد . ومن هنا فقد كان من الضروري ان يتواقت تاريخ انعقاده مع حدوث شيء ما في الصين يقدم البرهان على ان ستالين المعصوم لم يخطىء قط . وهكذا افتعلت في كانتون ثورة مسلحة نظمها المندوبان الجديدان للكومنترن لوميناندزه ونيومان . وبديهي ان الحزب الشيوعي الصيني ، الذي كان قد انهكه قمع الكيومنتانغ اليميني واليساري على حد سواء والذي وجد نفسه مطالبا على حين بغتة بتبديل تكتيكه وبالقيام بثورة لحسابه الخاص بعد ان طالت تبعيته الذيلية للكيومنتانغ ولم يعد له اي « حساب خاص » ، لم يكن قادرا على انجاح اي مبادرة ثورية جديدة .

وهكذا فان مغامرة «الجمهورية السوفياتية» في كانتون لم تعش سوى ثلاثة ايام ، من ١١ الى ١٤ كانون الاول ١٩٢٧ ، وكانت حصيلتها اربعة آلاف قتيل شيوعي جديد . بيد ان هذه المغامرة الفاجعة سمحت لستالين بأن يعلن بأن الثورة الصينية لم تهزم كما تدعي المعارضة ! واذا كانت قد فشلت وسحقت بالدم والنار ، فان المسؤولية ستقع من جديد على قادة الحزب الشيوعي الصيني ، ولسوف توجه تهمة البلانكية والانقلابية ونزعة المغامرة الثورية الى كوكيوبي

---

١ ــ من تقرير بوخارين باسم الكومنترن امام لجنة موسكو للحزب الشيوعي السوفياتي في ٤ حزيران ١٩٢٧ .

الذي سيقال من منصبه ليحل محله لي لي سان في زعامة الحزب الشيوعي الصيني . اما لوميناندزه ونيومان اللذان نظما مغامرة كانتون ، فسينفذ فيهما حكم الاعدام ، بعد انتقالهما الى صفوف المعارضة ، في حملة التطهير الكبرى في أعوام ١٩٣٦ — ١٩٣٨ .

من المسؤول ؟

لقد كانت حصيلة السياسة الستالينية في الصين ثلاثين الف قتيل من الشيوعيين والعمال في غضون اشهر تسعة . فما الاسباب التي جعلت مثل هذه الفجيعة الكبرى ممكنة ؟

ان ضرورة الاجابة التفصيلية على هذا السؤال لا تمليها اعتبارات تاريخية محضة ، وانما تمليها بالدرجة الاولى محاولة فهم الماوية بوصفها صيغة ثورية أصيلة ملتزمة بخصوصيات الواقع الصيني واستراتيجية ناجحة تجاوزت كل الاخطاء السابقة وحددت نفسها من خلال هذا التجاوز وكف معها التاريخ الثوري للصين عن ان يكون فاجعا .

١ — ان اول تلك الاسباب يتمثل في السياسة الاممية او الخارجية للاتحاد السوفياتي في مستهل مرحلة الانحطاط الستالينية . فقد كان ستالين بحاجة بأي ثمن الى حلفاء خارجيين ، ولاسيما بعد فشل الثورة الالمانية في عام ١٩٢٣ . وبالرغم من كل الظواهر الخارجية واللفظية الثورية ، فان ستالين لم يكن متابعا وفيا للينين في المسألة الاممية . فلقد كان لينين وسائر البلاشفة يعتبرون ان الثورة الروسية لا امل لها في البقاء الا اذا كانت مقدمة للثورة العالمية . اما ستالين فقد عكس الآية بنظريته عن «الاشتراكية في بلد واحد» : ان الثورة العالمية لن تكون من الان فصاعدا الا وسيلة لخدمة الثورة الروسية ولضمان استمرارها ، وبدلا من ان تكون الثورة الروسية مرتبطة بمقدرات الثورة العالمية، فان مصائر الثورة العالمية ستكون رهنا بتقلبات الثورة الروسية . ولو ان نظرية «الاشتراكية في بلد واحد» كانت تعكس مجرد الايمان بقدرة روسيا على الصمود وعلى الاستمرار في بناء الاشتراكية رغم الحصار الامبريالي ، لما كان عليها من تثريب . ولكن نظرية «الاشتراكية في بلد واحد» كانت نظرية ماجنة تكاد تنزلق الى مواقع شوفينية صرفة . فهي قد اعتبرت صمت الثورة العالمية حقيقة دائمة من حقائق العصر ، وبنت حساباتها على هذا الاساس . وهذا معناه ان قوى الثورة العالمية لم تعد تمثل ذلك الحليف الاستراتيجي الطويل النفَس والبعيد الامد ، وانما باتت تمثل حليفا تكتيكيا عاجلا ومتقلبا .

ان الميزة الاساسية لسياسة ستالين الاممية هي البحث عن حلفاء عاجلين ومباشرين وان كانوا غير موثوقين تماما والى النهاية . وفي سبيل كسب هؤلاء الاصدقاء ، فلا بأس من التضحية حتى بالاصدقاء الموثوقين ولكن الضعيفين مؤقتا وفي الساعة الراهنة . وهذه الحقيقة هي وحدها التي تفسر كيف امكن

لستالين ان يفضل حلف تشان كاي شيك على حلف الشيوعيين الصينيين . فلقد كان تشان كاي شيك هو رجل الساعة في الصين ، في حين لم يكن الشيوعيون الصينيون يمثلون من قوة الا في المستقبل . وبديهي ان ستالين كرجل دولة ما كان يستطيع ان يسقط من حسابه القوة الحاضرة باسم مستقبل ممكن وغير اكيد . ولا احد يلوم ستالين بالاصل لانه آثر التعامل مع الواقعي على التعامل مع الممكن ، ولكنه استحق هذا اللوم من اللحظة التي اختار فيها الواقعي ضد الممكن ، وضحى بمستقبل الممكن على مذبح الراهن .

وبعبارة اخرى ، لا احد يلوم ستالين لانه تعاون مع تشان كاي شيك ، وانما لانه تعاون مع هذا الاخير على حساب الشيوعيين الصينيين ، ولانه ضحى بالمصالح الواقعية والبعيدة للثورة الصينية على مذبح المصالح الآنية والظاهرية للثورة الروسية .

٢ ــ ان تضحية ستالين بالمصالح الاستراتيجية والبعيدة المدى للثورة الصينية تتجلى في الامر الذي أصدره الكومنترن الى الحزب الشيوعي الصيني بالانتساب الى الكيومنتانغ وبالعمل تحت رايته . وهذه في الحقيقة سابقة خطيرة وخرق فظ للمبدأ الماركسي واللينيني عن استقلالية الحزب البروليتاري .

صحيح ان مبدأ الاستقلال السياسي والتنظيمي للحزب الماركسي ليس مبدأ مطلقا ، وصحيح ان لينين نفسه قد أقر بأن الظروف القطرية الخاصة قد تفرض احيانا ضرورة انتماء الحزب الشيوعي الى منظمة غير شيوعية (ومثال على ذلك القرار الذي اتخذه المؤتمر الثاني للاممية الثالثة بضرورة انتساب الشيوعيين الانكليز الى حزب العمال) ، ولكن تجاوز مبدأ استقلالية الحزب الماركسي يشكل استثناءاً نادرا ومرهونا بعدد من الشروط .

ففي مثال حزب العمال الانكليزي ، اوضح لينين ان هذا الحزب ذو بنية فريدة من نوعها ، لانه لا يشكل حزبا بالمعنى المعهود للكلمة ، وانما يتألف من اعضاء جميع النقابات العمالية ، ويمنح جميع الاعضاء المنتسبين اليه «حرية سياسية كافية» . وقد قال لينين : «ان الشيوعيين الانكليز أحرار بما فيه الكفاية ليكتبوا ان هذا الزعيم او ذاك من زعماء حزب العمال خونة ، يحامون عن البورجوازية ، ويمثلون عملاءها داخل الطبقة العاملة ... وعندما يتمتع الشيوعيون بمثل هذه الحرية ، فان عليهم ان ينتموا الى حزب العمال ، وفي حال امتناعهم عن الدخول اليه يقترفون غلطة» .

واضح اذن ان تجاوز مبدأ الاستقلال الحزبي مرهون بشرطين اثنين اساسيين : ظروف خاصة وحرية كافية . والحال ان هذين الشرطين ما كانا متوفرين البتة بالنسبة الى الكيومنتانغ . فالكيومنتانغ حزب قومي وبورجوازي ، ليس له اي بنية فريدة تميزه عن سائر الاحزاب ، ولم يكن عدد اعضائه يتجاوز الثلاثمئة الف ، في حين كان عدد اعضاء حزب العمال اربعة ملايين (اي مجمل الطبقة العاملة الانكليزية) . وعلاوة على ذلك ، لم يسمح

الكيومنتانغ للشيوعيين الصينيين بأي نوع من الحرية . فقد حظر عليهم انتقاد الصنياتصنية ، وعلق حق الاضراب ، ولم يسمح لهم باصدار صحف خاصة بهم بالرغم من انه كان لهم في حكومته عدد من الوزراء . وبذلك تحول انتماء الشيوعيين الى الكيومنتانغ الى تبعية شبه مطلقة ، وتحول الحزب الشيوعي الصيني الى زائدة دودية للكيومنتانغ لا قدرة لها ولا حق لها في انتقاد اخطائه وفي تمييز نفسها عنه امام الجماهير .

٣ ـ ان سياسة الانتماء اللامشروط الى الكيومنتانغ قادت قيادة الحزب الشيوعي الصيني الى انتهاج سياسة انتهازية وتصفوية . فقد كان الهم الاول لهذه القيادة ارضاء تشان كاي شيك وسائر المسؤولين في الكيومنتانغ ، ولجم كل مبادرة ثورية او جماهيرية من شأنها اثارة حساسيات هؤلاء المسؤولين وتعويض «تحالف» الحزب الشيوعي والكيومنتانغ للخطر .

وهكذا وجد الحزب الشيوعي الصيني نفسه منقادا الى هذه المفارقة القاتلة : فارتضاؤه بأن يكون اسير الكيومنتانغ وأسير الخوف من غضب الكيومنتانغ قاده الى الخوف من حركة الجماهير بالذات . والحال ان ضرورة حركة الجماهير للحزب الثوري الماركسي هي كضرورة ماء البحر للاسماك . وبدون الماء ، بدون الجماهير ، يصبح الحزب الثوري مؤسسة منغلقة على نفسها ، هشة الى أبعد حدود الهشاشة ، حرصها على ارضاء السلطة يجعلها تعيش في عزلة عن الجماهير ، وعزلتها عن الجماهير تزيدها خوفا من السلطة ورغبة ذليلة في ارضائها .

وبدلا من ان تكون حركة الجماهير وسيلة للضغط على السلطة ولدفعها نحو اليسار ولتعزيز مواقع الحزب الشيوعي في التحالف او الجبهة المتحدة ، تصبح حركة الجماهير خطرا يتوجب لجمه ، وعند الضرورة قمعه ، حتى لا تنفر السلطة باتجاه اليمين ولا تفك «تحالفها» مع الحزب الشيوعي . ولقد جاء في تقرير اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الصيني الى دورتها العامة في ١٣ كانون الاول ١٩٢٦ هذه العبارة الفذة في انتهازيتها : «ان الخطر الاكبر يكمن في ما يلي : أن تتقدم حركة الجماهير نحو اليسار ، وأن يستولي الخوف في الوقت نفسه على السلطات السياسية والعسكرية فتشرع ازاء النمو السريع لحركة الجماهير بالاتجاه نحو اليمين . واذا ما استمرت هذه الميول المتطرفة في التطور في المستقبل ، زادت الهوة بين الجماهير والحكومة اتساعا ، وتمزقت في النهاية الجبهة الحمراء المتحدة ، وتعرض مجمل الحركة القومية للخطر» .

وما دام الخطر الاكبر يتمثل في «تقدم حركة الجماهير الى اليسار» ، فان واجب الحزب الشيوعي يصبح في هذه الحال ، ومهما بدا ذلك غريبا ، لجم حركة الجماهير الصاعدة التي توصف آنذاك بأنها تظاهرة من تظاهرات مرض الطفولة اليساري . وهكذا يضيف قرار اللجنة المركزية الآنف الذكر : «ان علينا ، على صعيد الممارسة النضالية للعمال والفلاحين ، ان نتجنب الاوهام (المطالب المتطرفة للصناع اليدويين والعمال ، ومساهمة الفصائل العمالية في الاعمال

الادارية ، واستيلاء الفلاحين على ملكية الارض ، الخ) . وهذا حتى نشفى من مرض الطفولة اليساري» .

وقد لخصت الرسالة المعروفة باسم «رسالة شانغهاي» والتي بعث بها في آذار ١٩٢٧ ثلاثة من اعضاء بعثة الاممية الشيوعية في الصين الى الكومنترن ، لخصت السياسة الانتهازية والتصفوية للقيادة الصينية بقولها : «ان قيادة الحزب الضيقة لا تفهم حركة الجماهير . بل انها ، علاوة على ذلك ، تخشاها ، وتعتبرها من قبيل الجنون ، وعلى كل الاحوال ظاهرة غير مناسبة تحول دون قيام الجبهة المشتركة مع البورجوازية . ولهذا فانها تلحق مصالح الطبقة العاملة والفلاحين بمصالح البورجوازية ، وتسير في ركاب هذه الاخيرة، وتعرقل حركة الجماهير.. وهي اذ تعتبر نفسها موظفا مساعدا يلعب دورا ثانويا في الثورة الصينية ، فانها تتوارى عن مسرح الاحداث من تلقاء نفسها وتواري معها الحزب وحركة الجماهير، وتصبح ألعوبة بين أيدي اليمين» .

وبالفعل ، ان قيادة الحزب الشيوعي الصيني لم تكتف بمعارضة مطالب العمال ومصادرة الفلاحين للملكيات الاقطاعيين ارضاء لحساسيات قادة الكيومنتانغ، بل تعدت ذلك الى حد تقليص دور الحزب الشيوعي نفسه ، وأصدرت أوامرها الى عدد من لجان الحزب الاقليمية بألا توسع نشاطها وبأن توقف حملة التنسيب حتى لا يتململ البورجوازية الصغيرة الذعر وبأن تكتفي «بشرح أحداث الحياة السياسية العملية من غير ان تقوم بالدعاية» وبأن تقلص نشاطها الدعاوي والتحريضي لان «تقدم الدعاية الشيوعية المعادية للامبريالية على دعاية الكيومنتانغ يشكل غلطة فادحة» .

وما دام الحزب الشيوعي الصيني قد تخلى عن استقلاله السياسي والتنظيمي، وتنازل عن حقه في انتقاد اخطاء الكيومنتانغ وأنصاف تدابيره ، واتبع سياسة لجم حركة الجماهير والانعزال عنها ، وفقد وجهه المتميز بالنسبة الى الجماهير ، وقبل بأن يلعب دور الزائدة الدودية للكيومنتانغ لا اكثر ، وأسقط من حسابه كل احتمالات الثورة المضادة وضرورة الاستعداد لمواجهتها عن طريق توعية الجماهير وتسليحها ، فهل نعجب بعد هذا كله ان كانت الثورة المضادة في الصين قد حققت نجاحا سريعا وسهلا وأبادت في مدى تسعة شهور ثلاثين الفا من الشيوعيين وأخرت انتصار الثورة الصينية اكثر من عشرين سنة ؟

٤ ــ ان النظرية الثورية الصحيحة ليست عاصما من الاخطاء العملية ، ولكن الاخطاء العملية تصبح فادحة الخطورة اذا كانت منبثقة اصلا عن اخطاء نظرية ، كما هي الحال مع السياسة الستالينية في الصين . فالاوامر التي صدرت من الكومنترن الى الحزب الشيوعي الصيني بالعمل تحت راية الكيومنتانغ لم تكن الا تعبيرا عمليا عن سياسة نظرية مغلوطة جذريا . فالكيومنتانغ لم يكن في التحليل الاخير غير حزب البورجوازية الوطنية في الصين. ومن هنا فان الاقرار له بالدور القيادي للثورة كان يعني عمليا الاقرار بالدور القيادي للبورجوازية الصينية ، كما

ان ارغام الشيوعيين على العمل تحت رايته كان يعني ارغام العمال والفلاحين الصينيين على القبول بالقيادة البورجوازية . وصحيح ان ستالين وسائر منفذي سياسته كانوا يرددون صيغا وشعارات محفوظة عن ظهر قلب تؤكد ان قيادة الثورة الصينية يجب ان تكون للبروليتاريا ، ولكن السياسة الستالينية العملية كانت تؤكد وجود تناقض مستعص بين النظرية والممارسة وتنفي بالافعال ما يجري توكيده بالاقوال .

والحق ان الستالينية لم تكن تملك الجرأة الكافية للخروج على الاورثوذكسية اللينينية من وجهة النظر النظرية . وحتى عندما كانت تقدم على خرق فظ على الصعيد العملي للاستراتيجة اللينينية ، فانها كانت تحاول ان تخفي هرطقتها هذه بتوكيد تمسكها بالاورثوذكسية اللينينية . وهكذا ، وفي الوقت الذي كان فيه الحزب الشيوعي الصيني قد فقد هويته الخاصة المتميزة وتحول الى استطالة شوهاء للكيومنتانغ ، كانت قرارات الكومنترن النظرية تؤكد بكل صفاقة ان الحزب الشيوعي الصيني لا يستطيع ان يؤدي الواجبات الملقاة على عاتقه بوصفه طليعة الطبقة العاملة الا اذا كانت له «سيماؤه السياسية الخاصة ، المتميزة عن السيماء السياسية حتى للثوريين البورجوازيين الصغار الاكثر تطرفا الى اليسار » .

واذا كانت السياسة الستالينية لا تملك الجرأة الكافية للخروج جهارا على الاورثوذكسية اللينينية ، واذ كانت بحاجة الى ستار هذه الاورثوذكسية النظري لتغطية انتهازيتها العملية ، فانها لم تكن تملك ، والحالة هذه ، من خيار غير ان تعمل مبضعها في النظرية اللينينية تشويها وتحريفا وانتقاء يحفظ للينينية حرفها ويقتل روحها. وهذا بالضبط ما فعلته بالمقولات اللينينية عن الثورة الديموقراطية البورجوازية وعن حركة التحرر القومي المعادية للامبريالية عندما حللت على اساسها واقع الثورة الصينية. فمقولات الثورة الديموقراطية البورجوازية والثورة القومية التحررية لم تكن عند لينين كما رأينا مقولات مطلقة وتجريدات تاريخية عقيمة ودرجات حتمية على نحو مسبق في التطور التاريخي، وانما كانت فرضيات للعمل تسمح للحزب الثوري بأن يحدد مواقعه ومهامه تبعا لكل مرحلة تاريخية واقعية محددة بدالّة الهدف النهائي الذي هو الثورة الاشتراكية . ولكن ستالين أضفى على هذه المقولات صفة الاطلاق ، واعتبرها نقطة الوصول بدلا من ان تكون مجرد نقطة للانطلاق ، وتوقف عندها بدلا من ان يبدأ منها ، وأسقط من حسابه كل اعتبار للهدف النهائي . وهكذا ، وبدلا من ان تكون الثورة الديموقراطية البورجوازية والثورة القومية التحررية بمثابة مدخل الى الثورة الاشتراكية ، انتهى ستالين الى ان يجعل من الثورة الديموقراطية البورجوازية والثورة القومية التحررية سدا في وجه الثورة الاشتراكية . وبعبارة اخرى ، ان برنامج الحد الادنى لم يعد عند ستالين الطريق الى برنامج الحد الاعلى ، بل اصبح هدفا بذاته ومرحلة قائمة بذاتها ومستقلة عما بعدها استقلالا متشنجا متحجرا .

ان تاريخ الثورات قد برهن ، كما يقول زينوفييف ، على ان «كل ثورة

ديموقراطية بورجوازية اذا لم تتحول الى ثورة اشتراكية ، تسير حتما في طريق الرجعية البورجوازية . واذا لم تتقدم الى الامام تراجعت الى الوراء . وهي لا تراوح ابدا في مكانها . إما منحنى صاعد ، وإما منحنى نازل . وهذا القانون هو سمة جميع الثورات الكبيرة» . وخطيئة ستالين تكمن في انه توقف عند حاضر الثورة الديموقراطية البورجوازية في الصين ، ولم يأخذ في حسابه مستقبلها واحتمالات تطورها . والحال ان ما يميز الموقف الماركسي الثوري عن الموقف الديموقراطي المبتذل من مسألة الثورة الديموقراطية البورجوازية هو النظرة الى هذه الثورة من خلال استمراريتها لا انقطاعها . ان الديموقراطي المبتذل يقول : ثورة ديموقراطية بورجوازية وكفى ، اما الماركسي الثوري فانه يتساءل : أهي ثورة ديموقراطية بورجوازية على الطراز البلشفي أم ثورة ديموقراطية بورجوازية على الطراز الأتاتوركي ؟ أثورة تشق طريق التطور اللارأسمالي أم ثورة تمهد لدكتاتورية الرجعية البورجوازية ؟

صحيح ان الثورة الديموقراطية البورجوازية في الصين هي في الوقت نفسه ثورة تحرر قومي ، وان البورجوازية الوطنية مؤهلة بالتالي لان تلعب فيها دوراً ايجابيا لم تلعبه في الثورة الروسية ، ولكن الماركسي الثوري لا يستطيع ان يتناسى لحظة واحدة ان الاضطهاد الامبريالي لا يلغي الصراع الطبقي وان تطور هذا الصراع هو الذي سيقرر مستقبل الثورة القومية أباعتبارها جزءا من الثورة الاشتراكية العالمية أم جزءا من الثورات الديموقراطية القديمة التي لا تطيح بالاضطهاد الامبريالي الاجنبي المباشر الا لتؤسس اضطهادا قوميا وطبقيا لا يقل عنه مباشرة .

واذا كانت مقولة ثورة التحرر القومي لا تلغي على نحو مسبق دور البورجوازية الوطنية في هذه الثورة ، فان هذا لا يعني ان الحزب الثوري الماركسي لا يستطيع ان ينفصل عن البورجوازية الا بعد ان تكون هذه الاخيرة قد سحقت قوى الثورة وجردتها من سلاحها وسحقتها بالأقدام . ان مقولة ثورة التحرر القومي تعني ان التعاون مع البورجوازية الوطنية ممكن ، ولكنها لا تعني البتة ان على الحزب الثوري ان يتخلى عن هويته الخاصة وأن يجرد نفسه من اسلحته حتى لا يثير فزع البورجوازية . والحال ان السياسة الستالينية في الصين لم يكن لها غير مضمون واحد : ان على قوى الثورة الاساسية ، اي قوى العمال والفلاحين ، ان تبقى بلا سلاح حتى تبقى البورجوازية الوطنية في معسكر الثورة .

واذا كانت السياسة الستالينية في الصين تستحق الادانة ، فليس ذلك لانها دعت الى التحالف مع الكيومنتانغ ، وانما لانها جعلت من الشيوعيين مطية ذليلة له . وقد لخص تروتسكي أخطاء هذه السياسة بقوله : «ان الشرط الاوحد لكل تفاهم مع البورجوازية ، لكل تفاهم منفصل ، عملي ، محدود بتدابير واجب اتخاذها ، متكيف مع كل حالة خاصة ، هو الا يحدث خلط في المنظمات وفي الرايات ، لا بصورة مباشرة ولا بصورة غير مباشرة ، لا ليوم واحد ولا لساعة

واحدة ، وأن يجري على الدوام التمييز بين الاحمر والازرق ، وألا يسود الاعتقاد بأي صورة من الصور بأن البورجوازية قادرة او مستعدة لخوض نضال فعلي ضد الامبريالية ولإفساح المجال حرا امام العمال والفلاحين ... لقد قيل منذ عهد بعيد ان التفاهمات العملية الصرفة ، التي لا تقيدنا بأي صورة من الصور ولا تلزمنا بأي شيء من وجهة النظر السياسية ، يمكن ان تعقد ، اذا كان ذلك مفيدا في اللحظة المحددة ، مع الشيطان نفسه . ولكن من الجنون ان نطلب من الشيطان بهذه المناسبة ان يرتد الى المسيحية وأن يستخدم قرونه لا ضد العمال والفلاحين وانما في سبيل أعمال التقى والورع . ولو تقدمنا بمثل هذا الطلب ، لما كنا في حقيقتنا غير محامي الشيطان الذي يستأذنونه في ان يصبحوا عرابيه ...» .

٥ ـ بالرغم من انتقاد ستالين اللاذع للقادة الذين يوجهون الثورة بالاوامر التلغرافية ولا يقيمون اعتبارا للخصائص القومية للثورة الصينية ، فان الاستراتيجية التي وضعها الكومنترن لهذه الثورة كانت نفيا جذريا لكل خصوصية قومية . فلقد تصورت قيادة الكومنترن ان تجربة الثورة البلشفية قابلة للتكرار في الصين ، ومن هنا فانها وجهت كل ثقل الحزب الشيوعي الصيني نحو العمل في المدن ، وفي الاوساط العمالية والنقابية .

والواقع ان الدرجة العالية من الكفاحية التي برهنت عليها الطبقة العاملة الصينية في أعوام ١٩٢٤ ـ ١٩٢٧ كانت تبرر الى حد بعيد اختيار الكومنترن ذاك . ولكن هذا لا يمنع من ان يكون هذا الاختيار خاطئا كما برهنت على ذلك الاحداث اللاحقة .

ان الدرجة العالية من الكفاحية التي برهنت عليها الطبقة العاملة الصينية الفتية تعود قبل كل شيء الى اسباب قومية لا الى اسباب طبقية . والطابع المستعمَر ونصف المستعمر للصين هو الذي فجر في وقت مبكر التناقضات القومية والطبقية بين البروليتاريا الصينية وبين الرأسمال الامبريالي الاجنبي . صحيح ان الرأسمال في روسيا ايضا كان اجنبيا الى حد كبير ، ولكنه في الصين كان اجنبيا بصورة مباشرة بدون وساطة البورجوازية الصينية او مشاركتها. وبعبارة اخرى ، لم يكن الرأسمال هو وحده الاجنبي ، بل ايضا رب العمل . وليس من قبيل الصدفة ان تكون المدن الساحلية الصينية هي التي شهدت أشمل موجة من الاضرابات العمالية : ففي تلك المدن على وجه التحديد كانت تتركز الجاليات الاوروبية .

لقد برهنت البروليتاريا الصينية على نضج سريع . هذا أمر لا مراء فيه . ولكن هذا لا يعني في حال من الاحوال ان الطبقة العاملة كانت هي القوة الرئيسية في الثورة الصينية . فالبروليتاريا الصينية كانت ضعيفة للغاية عدديا (نصف بالمئة فقط من مجموع السكان) . ثم انها لم تكن على نفس الدرجة من تركز البروليتاريا الروسية . ولم يكن في الصين مراكز تجمع سكانية وعمالية يمكن ان تلعب دورا حاسما على نطاق البلاد بأسرها ، كما كانت الحال بالنسبة الى بتروغراد وموسكو في روسيا . ولقد كانت القوات العسكرية التي يملكها سادة

الحرب والكيومنتانغ قمينة بسحق كل تمرد عمالي محصور بالمدن .

ومن هنا على وجه التحديد كانت اهمية الحركة الفلاحية في الصين . نقول الحركة الفلاحية ولا نقول المسألة الفلاحية ، وهذا حتى نميز الاوضاع في الصين عن الاوضاع في روسيا . فبفضل تأخر حل المسألة الفلاحية في روسيا ، اي تأخر حل مسألة الارض ، أمكن للبروليتاريا هناك ان تستولي على السلطة . اما في الصين فان الاعتماد على المسألة الفلاحية وحدها لم يكن كافيا ، بل كان لا بد ايضا من اعتماد الحركة الفلاحية نفسها ، اولا لان هذه الحركة ذات تقاليد ثورية عريقة في الصين ، وثانيا لان الحركة الفلاحية كانت تمثل القوة الرئيسية في الثورة ، وثالثا لان الكيان القومي للصين كان ممزقا ولان اعادة توحيد البلاد لم تكن ممكنة الا عن طريق شمولية الحركة الفلاحية وامتدادها على نطاق البلاد بأسرها لا عن طريق الثورات المعزولة في المدن المعزولة .

وأهمية الحركة الفلاحية هذه كانت احدى السمات القومية الرئيسية للثورة الصينية . ولكن استراتيجية الكومنترن الجاهزة والمنقولة نقلا ميكانيكيا ومباشرا عن تجربة الثورة البلشفية لم تدرك هذه الحقيقة ، بل سارت في متاهات نوع من الحقيقة المضادة . فهذه الاستراتيجية لم تكتف بتجاهل اهمية الحركة الفلاحية ، بل اتخذت منها في كثير من الاحيان مواقف معادية . وقد أدان ممثلو الكومنترن ومعهم قيادة الحزب الشيوعي الصيني اكثر من مرة «شطط» الفلاحين ووصفوا محاولات استيلائهم على اراضي الاقطاعيين بأنها عرَض ضار ومؤذٍ من أعراض مرض الطفولة اليساري . وقد اعتبرت قيادة الكومنترن ان الجماهير الفلاحية هي جماهير طبيعية للكيومنتانغ ، ووجهت الحزب الشيوعي الصيني لكي يمارس تأثيره على الفلاحين من خلال الكيومنتانغ وحكومته «الثورية» في كانتون. تقول احدى أطروحات المجلس التنفيذي للاممية الشيوعية عن الوضع في الصين في أوائل عام ١٩٢٧ : «ان الضرورة المطلقة لممارسة التأثير على الفلاحين تحدد هي الاخرى موقف الحزب الشيوعي من الكيومنتانغ ومن حكومة كانتون . فجهاز الحكومة الوطنية الثورية وسيلة ناجعة للغاية للاتصال بالفلاحين ، وعلى الحزب الشيوعي ان يستخدمه ... ولهذا السبب ولاسباب اخرى هامة فان من الخطأ التفكير بأن على الحزب الشيوعي ان يترك الكيومنتانغ» .

وحتى بعد الهزيمة المنكرة التي منيت بها الثورة الصينية ، استمر الكومنترن في توجيه الشيوعيين الصينيين لتركيز جهودهم على العمل في المدن والاوساط العمالية . وفيما يلي طائفة من هذه التوجيهات والقرارات الموجهة اصلا ضد «انحراف» ماوتسي تونغ الفلاحي :

ــ من قرار الدورة العامة العاشرة للجنة التنفيذية للاممية الشيوعية بصدد المسألة الصينية في شباط ١٩٢٨ : «يجب ان يضع الحزب نصب عينيه ، وهو يقود الاعمال العفوية للانصار الفلاحين في اقاليم منفصلة، ان هذه الاعمال لا يمكن ان تتحول الى نقطة انطلاق لثورة مظفرة للشعب بأسره الا بشرط ارتباطها بنهضة

جديدة للموجة الثورية في المراكز البروليتارية ... ومن هذه الزاوية فان من الواجب النضال ضد الانحراف نحو نضالات الانصار ، المتبعثرة واللامرتبط بعضها ببعض ، والمقضي عليها بالهزيمة (وقد وجد مثل هذا الخطر في هونان وهوبي [1] وفي أمكنة اخرى) » .

– من رسالة اللجنة التنفيذية للاممية الشيوعية الى اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الصيني في شباط ١٩٢٩ : «في جميع الاعمال الجماهيرية ، في الاضرابات ، في اعمال الفلاحين ، في الحركات الجماهيرية المعادية للامبريالية ، يجب ان يتوجه تدخل الشيوعيين الحاسم نحو تحقيق الهدف الاستراتيجي المتمثل في تطوير المبادهة الثورية للطبقة العاملة ، وفي تعبئة الملايين من جماهير الشغيلة في المدن والارياف حول الطبقة العاملة ، وفي ضمان الدور القيادي للبروليتاريا في التحرير . ومن هذه الزاوية يتوجب على الرفاق الصينيين ان يولوا كبير اهتمامهم للتحضير الدقيق والتنظيم الجاد وتطبيق الاساليب النضالية الثورية البروليتارية من خلال الوضع الثوري المعطى كالاضراب العام الثوري والاضراب العام للسكك الحديدية ، آخذين بعين الاعتبار ان هذا الشكل النضالي ، القمين بأن يعبىء حول البروليتاريا جميع العناصر الثورية في البلاد ، يستطيع ويجب ان يلعب دورا بالغ الاهمية في الثورة الصينية» .

– من رسالة اللجنة التنفيذية للاممية الشيوعية الى اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الصيني في كانون الاول ١٩٢٩ : «ان الخاصة التي تميز الازمة القومية والنهضة الثورية في الصين هي حرب الفلاحين ... ولكن أصدق علامات النهضة النامية وأهمها هي انتعاش الحركة العمالية التي خرجت من حالة الانهيار التي اعقبت هزيمة ١٩٢٧ الفادحة . ان النضال الاقتصادي للبروليتاريا بواسطة الاضرابات يتطور ... وهذا التطور أدى الى تقوية الحزب الشيوعي » .

– من قرار اللجنة التنفيذية للاممية الشيوعية حول المسألة الصينية في حزيران ١٩٣٠ : «ان مهمة تحقيق هيمنة البروليتاريا تفترض نضال الحزب في سبيل تطوير حركة الاضرابات وتنظيم وقيادة النضالات الاقتصادية للبروليتاريا الصينية . وعلى الحزب ، من خلال ربطه النضال الاقتصادي بالنضال السياسي، ان يكرس جميع جهوده لتطوير الاضرابات السياسية ، وأن يتجه نحو تهيئة اضراب عام سياسي في جميع المراكز الصناعية» .

– من قرار رئاسة اللجنة التنفيذية للاممية الشيوعية بصدد مهام الحزب الشيوعي الصيني في آب ١٩٣٢ : «ان هيمنة البروليتاريا والتطور المظفر للثورة لا يمكن ضمانهما الا بشرط ان يصبح الحزب الشيوعي الصيني حزبا بروليتاريا لا في خطه السياسي فحسب ، بل ايضا في تركيبه ودور العمال في جميع اجهزته

---

١ – حيث كان ماوتسي تونغ يقود حرب الانصار الفلاحية !

القيادية . ومن اهم المهام السياسية لجميع خلايا الحزب ولجانه العمل على تنسيب خيرة العناصر العمالية ... وعلى الحزب الشيوعي الصيني ان ينشىء منظمات قاعدية في المشاريع الكبيرة والكبيرة جدا ... وعلى اللجنة المركزية للحزب ان ترفع بقدر الامكان دور خلايا المصانع في كل حياة الحزب ... ويجب ان يتوجه خيرة موظفي الحزب نحو خلايا المصانع ، وأن يصبح عملهم قدوة لجميع منظمات الحزب» .

وبالرغم من الدور الهام الذي لعبته المعارضة التروتسكية في فضح اخطاء السياسة الستالينية في الصين ، فقد دللت هي الاخرى على جهل مطبق بالخصائص القومية للثورة الصينية وعلى تشنج ايديولوجي مسبق بصدد دور كل من الطبقة العاملة والفلاحية في هذه الثورة . واذا كان الكومنترن قد تجاهل ماوتسي تونغ لحقبة طويلة وأدان حربه الفلاحية وفصله في احدى الفترات من الحزب ، فان التروتسكيين لم يظهروا ازاءه موقفا أقل سلبية . فقد شبه تروتسكي الماويين بأنهم شعبيون (نارودنيون) ، وسخر شن دو كسيو بعد انضمامه الى المعارضة التروتسكية من ماركسية ماو «الجبلية» . وخطأ المعارضة كخطأ الستالينيين يكمن في تمسكها بمخطط ثورة اوكتوبر الذي يصبح مجردا وعقيما في حال تطبيقه بحذافيره على الصين . وفي مثل هذا التجريد العقيم يقع تروتسكي عندما يردد على نحو ببغاوي بصدد الثورة الصينية ما قاله لينين بصدد دور الفلاحين في الثورة الروسية : «ان المدينة لا يمكن ان تكون عديل الريف . والريف لا يمكن ان يكون عديل المدينة ، في الشروط التاريخية لهذا العصر . ولا مناص من ان تجر المدينة الريف وراءها ولا مناص من ان يتبع الريف المدينة ... وقد يستطيع الفلاحون الفقراء في هوبي وكوانتونغ والبنغال ان يلعبوا دورا ، لا قوميا فحسب بل أمميا ايضا ، ولكنهم لن يلعبوه الا اذا سندوا عمال شانغهاي وهانكيو وكانتون وكالكوتا ...» .

وما يتجاهله تروتسكي وهو يستشهد بالقانون العام الذي صاغه لينين عن تبعية الريف للمدينة هو ان الجدل الماركسي لا يقر بتطبيق القوانين العامة تطبيقا ميكانيكيا على جميع الحالات الخاصة العينية ، وان هذا الجدل لا يحافظ على حيويته الا اذا جرى إغناء القانون العام بمضامين جديدة عن طريق تحليل الحالة الخاصة والعينية ، وبعبارة اخرى ، الا اذا فسرت الحالة الخاصة والعينية القانون العام المجرد وأغنته بقدر ما يفسرها هو ويغنيها .

ان الريف يتبع المدينة . هذا قانون . ولكن الصحة العامة لهذا القانون لا تعني ، في كل حالة خاصة ، ان قيادة المدينة للريف يجب ان تكون مباشرة . فمن الممكن تماما ، كما اثبت ذلك المثال الصيني ، ان تقود المدينة الريف لا بصورة مباشرة ، اي من المراكز المدينية اياها ، وانما بصورة غير مباشرة ، اي من الريف نفسه ، وبعبارة أدق ، من خلال انتقال المدينة الى الريف .

لقد صاغ لينين ذلك القانون العام ليستنتج ان من واجب البروليتاريا

الروسية ألا تهدر قواها بالذهاب الى الريف . اما ماوتسي تونغ فقد عكس الاستنتاج من غير ان يخرق القانون اذ قال بأن من واجب العناصر الثورية في المدن ان تنتقل الى الارياف لتقود فيها الحركة الفلاحية . وهذا ما لم يفهمه قط لا تروتسكي ولا التروتسكيون . ومن هنا كانت قراراتهم الاستراتيجية بصدد الثورة الصينية لا تقل عقما وتجريدا وضلالا عن قرارات منافسيهم الكومنترنيين. ومن الامثلة على ذلك القرار الذي اتخذته «السكرتارية الامية المؤقتة للمعارضة الشيوعية» (التروتسكية) في ايلول ١٩٣٠ ، والذي جاء فيه : «ان الشيوعيين الصينيين بحاجة في الوقت الراهن الى سياسة طويلة النفَس . وليست مهمتهم ان يقذفوا بقواهم في البؤر المبعثرة للتمرد الفلاحي ، ما دام حزبهم العمالي الضعيف والضئيل عدديا عاجزا على كل الاحوال عن استيعابه . ان واجب الشيوعيين يكمن في تركيز قواهم في المصانع والورشات وفي الاحياء العمالية ، وفي ان يفسروا للعمال ما يجري في الريف ، وفي ان يبعثوا دبيب الحياة في من تثبطت عزائمهم وأخلدوا الى الخمول واليأس ، وفي ان يجمعوا صفوفهم للنضال من اجل المطالب الاقتصادية وشعارات الديموقراطية والثورة الزراعية . وانما عن هذا الطريق وحده ، طريق ايقاظ العمال واعادة تجميعهم ، يمكن للحزب ان يصبح قائد التمرد الفلاحي ، اي قائد الثورة القومية في مجموعها» .

وإزاء مثل هذه النصوص المناقضة لدروس الثورة الصينية وروحها ، لا نملك الا ان نعلن بطلان الاسطورة التي تزعم ان ماوتسي تونغ مارس التروتسكية وطبقها من غير ان يعي انها هي التروتسكية (كما يعتقد اسحق دويتشر) . بل نرى على العكس ان الماوية بوصفها نظرية الثورة الصينية واستراتيجيتها وتكتيكها قد تكونت وتطورت وانتصرت بالرغم من الستالينية والتروتسكية وضدهما على حد سواء .

تصيين الماركسية

لقد اعلن الماركسيون الصينيون ما لم يجرؤ قط اي ماركسي قبلهم على اعلانه : أعلنوا ضرورة تأميم الماركسية ، تصيينها ، الانتقال بها من شكل اوروبي الى شكل صيني ، تطويرها لاستخدامها في حل المشكلات النوعية الخاصة بالثورة الصينية . وقد أوضح ليوشاوشي في ايار ١٩٤٥ الظروف التي أملت على الشيوعيين الصينيين رفع شعار تصيين الماركسية فقال : «ان الكثير من المشكلات التي نصادفها لم يطرحها ولم يحلها قط في الماضي ماركسيو العالم . فالجماهير في بلادنا تتألف في جوهرها من الفلاحين لا من العمال، ونحن نناضل لا ضد رأسمالنا القومي الخاص ، بل ضد اضطهاد الامبريالية الاجنبية وضد مخلفات القرون الوسطى» .

وربما استطعنا ان نستشف بعض تظاهرات هذه «الماركسية الصينية» في الامر الذي تلقته الجامعات الصينية في عام ١٩٥٨ بتدريس الطب الصيني القديم

الى جانب الطب الغربي الحديث لان «الطرائق العلاجية القديمة تنجح حيث يفشل الطب الغربي» .

وربما استطعنا ان نستشف بعض تظاهراتها ايضا في حملة «اصنعه بنفسك» التي أريد بها اطلاق طاقات الشعب الصيني من عقالها حتى يصبح في وسعه الاستغناء عن المعونة الاجنبية ، بما فيها معونة البلدان الاشتراكية الشقيقة ، والتي كان من نتائجها انتاج الفولاذ بواسطة الافران الفلاحية الصغيرة التي اصبحت رمز الامة الصينية القادرة على ان تفعل كل شيء بنفسها .

ومن تظاهراتها ايضا ان تكون كتابات القادة الصينيين حافلة بالاستشهادات والاقتباسات من الادب الصيني القديم ، وبالمجازات والاستعارات السلفية ، مع ندرة الاقتباس في الوقت نفسه حتى عن كلاسيكيي الماركسية .

ومن تظاهراتها ايضا تمجيد ماوتسي تونغ للحضارة الصينية القديمة التي انتجت «عددا من كبار المفكرين والعلماء والمخترعين والسياسيين والكتاب والفنانين» والتي كانت لها الاسبقية في اختراع البوصلة وصناعة الورق والطباعة والبارود ، وتغنيه بالشعب الصيني «ذي التقاليد الثورية الماجدة» والذي اشتهر بين سائر شعوب العالم بشغفه بالحرية و«لم يحنِ قط رأسه للنير الاجنبي» و«لم يقبل قط بسيادة القوى الغاشمة» (١) .

وليس من قبيل الصدفة كما ذكرنا آنفا ان تكون الماركسية الصينية قد تحدرت من صلب حركة ٤ ايار القومية . فالمسألة القومية في الصين كانت مسألة مركزية ، من مسائل الثورة ، بعكس ما كانت عليه الحال في روسيا القيصرية حيث لم تكن المسألة القومية مطروحة الا بالنسبة الى شعوب الاطراف غير الروسية .

وما يميز لينين عن ماوتسي تونغ من وجهة النظر هذه هو ان الاول واجه المسألة القومية باعتبارها فعلا «مسألة» تستوجب الحل وإلا عرقلت وحدة النضال الثوري ضد القيصرية ، أما الثاني فقد كانت المسألة القومية بالنسبة اليه «قضية» ثورية رئيسية هي الحافزة على ما سواها من القضايا النضالية .

ولقد ناضل لينين في سبيل حل المسألة القومية حتى يشرك في النضال الثوري ضد القيصرية عمال جميع شعوب الامبراطورية الروسية، أما ماوتسي تونغ فقد ناضل في سبيل القضية القومية لانها قضية جماهير الشعب الصيني كله . وبعبارة اخرى ، ان المسألة القومية كانت بالنسبة الى لينين ، والى حد كبير ، مسألة سلبية من مسائل النضال الثوري ، ولهذا كان حلها سلبيا هو الآخر الى حد ما : الاعتراف لجميع شعوب روسيا بحقها في تقرير مصيرها وفي الانفصال عن روسيا حتى لا تنفصل عن الحركة الثورية للعمال الروس في نضالهم ضد

---

١ ـ «الثورة الصينية والحزب الشيوعي الصيني» ـ المؤلفات المختارة ـ المجلد ٣ ـ ص ٨٥ـ٨٦ .

القيصرية . اما بالنسبة الى ماوتسي تونغ فقد كانت المسألة القومية قضية ايجابية وأساسية من قضايا النضال الثوري ، ولم يكن حلها نظريا (**الحق** في تقرير المصير) بقدر ما كان عمليا (**النضال** في سبيل وحدة الكيان القومي الصيني واستقلاله) .

لقد كان لينين يقول : نحن أمميون ، ولهذا نقر لجميع شعوب الامبراطورية بحقها في تقرير المصير والانفصال . اما ماوتسي تونغ فكان يقول : «ان الصين هي ضحية العدوان . ولهذا فان على الشيوعيين الصينيين ان يجمعوا بين الوطنية والامية . اننا أمميون ونحن في الوقت نفسه وطنيون ، وشعارنا هو : النضال من اجل الوطن ضد العدوان» (١) .

ولأن المسألة القومية كانت المسألة المركزية في الثورة الصينية ، لذا لم يكن من الممكن للماركسية ان تصبح نظرية هذه الثورة الا اذا اصبحت ماركسية صينية . يقول لنا مؤرخ سيرة حياة ماوتسي تونغ ان شن دوكسيو ، بليخانوف الماركسية الصينية ، اتصل بماوتسي تونغ على اثر الدور الكبير الذي قام به في مظاهرة ٤ ايار ، وحاول ان يقنعه بالانتماء الى الماركسية . فاعترض ماو على ذلك بقوله : ان ماركس اوروبي ونظريته نظرية اوروبية . وكان رد شن :

ـ تذكر ان ماركس كان المانياً ، وأنه امضى جل حياته في المنفى ، وانه كان يهوديا . انه اذن رجل بلا وطن . ولسوف نعطيه وطنا ، ونجعل منه صينيا !

وهذه الكلمة التي نسيها المعلم نفسه فيما بعد ، لم ينسها ماو قط ، بل جعل منها برنامج عمله .

ولقد برهن ماو منذ وقت مبكر على ان الاورثوذكسية لا تناسب ذوقه . ففي عام ١٩٢٢ (اي في المرحلة العمالية الاورثوذكسية من حياة الحزب الشيوعي الصيني) ، وعقب النجاح الكبير الذي حققه اضراب عمال البحر والموانىء في هونغ كونغ بالرغم من القسوة الهمجية التي حاولت بها السلطات الانكليزية ان تقمعه ، كتب يؤكد أولوية المسألة القومية في الصين على كل مسألة اخرى : «لقد أيد كل صيني الاضراب لانه كان موجها ضد الاجنبي ، اي ضد البريطانيين. وقد ارسل الصينيون المهاجرون ، بمن فيهم الراسماليون الذين لا يكنون اي حب للثورة ، المال الى المضربين . ولم يكن الوضع يشبه البتة الوضع في روسيا حيث لم يساعد الرأسماليون الروس العائشون في البلدان الاجنبية سوى الطبقة الرأسمالية طوال فترة الثورة . أما في الصين فقد تغلب الشعور القومي على الحاجز الطبقي !» .

والواقع ان مقولة «**الامة**» هي واحدة من المقولات الاساسية في الماوية ، بعكس ما هي عليه الحال في الماركسية وحتى في اللينينية . ولئن كان مصطلح **الامة** قد حدد بالنسبة الى اوروبا عصرا تاريخيا بكامله هو عصر الثورة الديموقراطية

١ـ «دور الحزب الشيوعي الصيني في الحرب القومية» ـ المؤلفات المختارة ـ المجلد٢ ـ ص٢٢٩ .

القومية البورجوازية ، ولئن كان مصطلح **الطبقة** قد حدد بالنسبة اليها ايضا عصرا تاريخيا جديدا هو عصر الثورة الاشتراكية البروليتارية ، فان ماوتسي تونغ قد حرر نفسه والثورة الصينية من إسار المخطط الاوروبي عندما قرن مقولة الامة بمقولة الطبقة واستولدهما مقولة جديدة هي مقولة **الامة ـ الطبقة** التي حددت بالنسبة الى الصين عصر الثورة القومية الديموقراطية والاشتراكية في آن واحد.

وقد يتبادر الى ذهن بعضهم (اسحق دويتشر) ان ماو كان هنا ايضا يمارس التروتسكية عن غير وعي ، ولكننا هنا ايضا نؤكد ان الماوية ليست وريثة التروتسكية . فلقد رأينا ان تروتسكي قد حدد طرق التطور الثوري للتاريخ بأحد طريقين : إما طريق انتفاضة الامة بأسرها كانتفاضة الاسد بقيادة الطبقة البورجوازية الصاعدة ، وإما طريق تبلور الصراع الطبقي وانفجار الامة الطبقي العنيف من خلال انفصال البروليتاريا وقيادتها للثورة . بيد ان ماوتسي تونغ تجاوز هذا الإحراج عن طريق مقولة **الامة ـ الطبقة** والجمع بين انتفاضة الامة بأسرها وبين الانفجار الطبقي العنيف ، اي انتفاضة الامة بأسرها على الخوارج على الامة .

ان ماوتسي تونغ عندما يحدد الامة بأنها «جماع الامة ناقص الخارجين على الامة» ينقذ مقولة الامة من التفجير الماركسي لها وينقذها في الوقت نفسه من التمييع البورجوازي لمضمونها الطبقي . وما المساهمة الكبرى لماو في تطوير النظرية الجدلية الماركسية ، تلك المساهمة المتمثلة في تمييزه بين التناقضات العدائية والتناقضات اللاعدائية ، الا تعميم عبقري للنتائج المنبثقة عن نظرية **الامة ـ الطبقة** . فالتناقضات بين الامة والخارجين عليها هي تناقضات عدائية ليس لها من حل غير العنف المباشر ، والتناقضات بين شتى طبقات الامة هي تناقضات غير عدائية يمكن تسويتها سلميا . والامة التي تخوض نضالا قوميا ضد الامبريالية الاجنبية الطامحة الى تحويل الصين الى مستعمرة ، تخوض في الوقت نفسه نضالا طبقيا ضد «خونة الامة» . وإزاء هذا التناقض المركزي ، الرئيسي بين «الامة» وبين «عدو الامة» و«خونة الامة» تتراجع التناقضات داخل «الامة» نفسها الى مرتبة ثانوية ويُرجأ حلها الى أجل غير مسمى .

وعلى ضوء هذه الاعتبارات كلها يمكن ان نقول ان تصيين الماركسية لم يكن يعني بالنسبة الى ماوتسي تونغ ضرورة التعامل مع الواقع الصيني فحسب بدلا من التعامل مع الاوامر التلغرافية ، ولم يكن يعني ضرورة فهم الثورة الصينية من الداخل فحسب بدلا من انتظار توجيهات «جهابذة» الكومنترن الخارجية ، بل كان يعني ايضا وبالاساس وضع استراتيجية قومية خاصة بالثورة الصينية ، استراتيجية قومية في اهدافها (تحرير الصين من نير الامبريالية الاجنبية وتوحيدها) وقومية في وسائلها (تحديد دور جميع طبقات الامة الصينية في الحرب القومية على ضوء مساهمتها الواقعية لا على ضوء المخططات الايديولوجية المسبقة والمجردة) . ولئن كان ماوتسي تونغ قد احتل مكانه جنبا الى جنب مع

اسماء القادة التاريخيين للماركسية : ماركس وانجلز ولينين ، فهذا على وجه التحديد لانه اعاد تحديد الاستراتيجية الطبقية للثورة وأعاد تقييم فعالية القوى الطبقية على ضوء واقع جديد لم يتح لماركس او انجلز او لينين التعامل معه : واقع النضال في سبيل انتصار الثورة الاشتراكية من مواقع قطر متخلف لا وجود فيه للبروليتاريا بالمعنى الماركسي الكلمة ومن مواقع أمة لم تنجز ثورتها الديموقراطية لا بشقها الفلاحي (حل مسألة الارض) ولا بشقها القومي (توحيد الكيان القومي وتحريره) .

لقد حدد ماركس الاستراتيجية الطبقية للثورة بالنسبة الى أقطار بورجوازية متقدمة انجزت ثورتها الديموقراطية وانطرحت عليها بإلحاح الثورة الاشتراكية . كما حدد لينين تلك الاستراتيجية بالنسبة الى روسيا التي استطاعت فيها البروليتاريا ان تستغل تأخر الثورة الديموقراطية لتخرج البورجوازية من معسكر الثورة ولتنجز الثورتين الديموقراطية والبروليتارية معا ، وهذا بفضل تحالفها مع الفلاحين الذين رجحوا كفة الميزان لصالحها بالرغم من ضعفها العددي . اما في الصين فقد كانت المهمة التي تواجهها الثورة جديدة لان هذه الثورة كانت ثورة قومية ، اي ثورة موجهة ضد الامبريالية الاجنبية ، قبل ان تكون ثورة ديموقراطية او اشتراكية . ومن هنا فان الماركسية لم تكن تملك ، حتى بعد ان اصبحت لينينية ، جوابا جاهزا على الاسئلة التي تطرحها الثورة الصينية . وهذا ما يفسر بالاساس ريبية ماو اللاذعة تجاه المتمركسين الصينيين الذين أنزلوا الماركسية ـ اللينينية التي لا يجب ان تكون اكثر من دليل للعمل منزلة العقيدة الدينية المطلقة . أفلم يخاطب مثقفي الحزب في عام ١٩٤٢ بقوله : «ان عقيدتكم أقل نفعا حتى من البراز . فبراز الكلاب يمكن ان يخصب الحقول ، وبراز البشر يمكن ان يغذي الكلاب . اما العقائد ؟ انها لا تستطيع لا ان تخصب الحقول ولا ان تغذي الكلاب . فما نفعها ؟» .

وان تكون الثورة الصينية ثورة قومية فهذا معناه ان تعيد النظر في كل الصيغ الثورية المتوارثة عن أقطار ومراحل تاريخية لا تعيش الصين في مثل شروطها . ويكفي هنا ان نأخذ مثالا واحدا : الموقف من البورجوازية . فالبورجوازية بالنسبة الى ماركس هي القائدة التاريخية للثورة الديموقراطية ورأس حربة الثورة المضادة في مرحلة الثورة الاشتراكية . اما بالنسبة الى لينين فهي ، على الصعيد الروسي ، الطبقة الهزيلة ديموقراطيا ، بل الخائنة للثورة الديموقراطية ، لتواطئها مع بيروقراطية دولة امبريالية اقطاعية وعسكرية . ولو اعتمد ماوتسي تونغ على التراث الماركسي وحده لكان عليه ان يخرج البورجوازية الصينية من معسكر الثورة . ولكن الطابع المستعمر ونصف المستعمر للصين قسم في الحقيقة البورجوازية الصينية الى معسكرين : البورجوازية الكومبرادورية التي تعمل مباشرة في خدمة الامبرياليين ، والبورجوازية الوطنية التي ما تزال تحافظ على شيء من الروح الثورية بحكم اصطدام مصالحها مع مصالح الامبريالية الاجنبية . ومن هنا فان سياسة الجبهة المتحدة مع

البورجوازية القومية ليست ممكنة فحسب ، بل هي ايضا واجبة . وحتى البورجوازية الكومبرادورية نفسها التي تقف بمجملها في معسكر «خونة الامة» يمكن ان تتسع لها صفوف الجبهة المتحدة المعادية للامبريالية . فنظرا الى «ان شتى فئات البورجوازية الكومبرادورية الصينية الكبيرة تدعمها دول امبريالية مختلفة ، فمن الممكن ان يحدث ، عندما تتفاقم التناقضات بين بعض الدول الامبريالية ، وعندما تكون رأس حربة الثورة مسددة بصورة رئيسية ضد دولة امبريالية محددة ، ان تساهم الفئة المرتبطة بدولة امبريالية اخرى من البورجوازية الكومبرادورية في النضال الى حد ما وفي بعض الاحيان ضد الدولة الامبريالية الاولى» (١) . وهكذا فان سياسة الجبهة المتحدة كانت ممكنة ، اثناء حرب المقاومة ضد الغزو الياباني ، مع الفئات البورجوازية الكومبرادورية التابعة للامبريالية الفرنسية او الانكليزية بحكم تناقض مصالح هاتين الامبرياليتين مع مصالح الامبريالية اليابانية .

وفي كراس **الديموقراطية الجديدة** الصادر في مستهل عام ١٩٤٠ تبلغ حماسة ماوتسي تونغ لقضية الصين القومية درجة يبدي معها استعداده للاعتراف بالبورجوازية قائدة للثورة الصينية اذا ما أدت واجبها في النضال ضد الامبريالية وفي تحرير البلاد . ويقول بالحرف الواحد : «ان المسألة في الصين واضحة كل الوضوح . فمن سيكون قادرا على قيادة الشعب في النضال من اجل الاطاحة بالامبريالية وبالقوى الاقطاعية فسيحظى بثقة الشعب ، لان الاعداء الألداء للشعب هم الامبريالية والقوى الاقطاعية ، ولاسيما الامبريالية .

«ومن سيكون قادرا اليوم على قيادة الشعب على طريق طرد الامبريالية اليابانية واقامة حكومة ديموقراطية ، فانه سيكون منقذ الشعب . واذا ما عرفت البورجوازية الصينية كيف تفي بهذه المسؤولية ، فلن يكون في وسع احد ان يضن عليها باعجابه . ولكن اذا لم تعرف كيف تفي بها ، فان جوهر هذه المسؤولية سيقع حتما على عاتق البروليتاريا» .

وقد حذف ماوتسي تونغ في الطبعات اللاحقة هذه العبارة الحاسمة عن الدور الذي يمكن ان تلعبه البورجوازية في الحرب القومية ، واستبدلها بعبارة اخرى تؤكد ان «التاريخ قد برهن على ان البورجوازية الصينية لا تستطيع الوفاء بهذه المهام وعلى ان هذه الاخيرة تقع على عاتق البروليتاريا» (٢) .

والواقع ان البورجوازية الصينية كانت أضعف من ان تتصدى للعب دور قيادي في الثورة الصينية ، ولم يعلق الماركسيون الصينيون قط الآمال ، كما فعل لينين والماركسيون الروس ، على مستقبل التطور الرأسمالي للصين . ولئن

---

١ ـ من اجل العدد الاول من مجلة «الشيوعي» المؤلفات المختارة ـ المجلد ٣ ص ٦٩ .

٢ ـ «الديموقراطية الجديدة» ـ المؤلفات المختارة ـ المجلد ٣ ـ ص ١٣٧ .

كان ماوتسي تونغ قد تمسك هو الآخر بمقولة الثورة الديموقراطية البورجوازية، الا ان هذه الثورة لم تكن تعني في نظره بناء مجتمع رأسمالي على اساس من الدكتاتورية البورجوازية. فطريق مثل هذا التطور كان مسدودا في الصين، لاسباب داخلية وخارجية على حد سواء. فعلى الصعيد الداخلي، وعلاوة على ضعف القوى الذاتية السياسية والاقتصادية للبورجوازية الصينية، كانت القوى الذاتية للثورة الصينية (الحزب الشيوعي) تسد طريق التطور الرأسمالي.

أما على الصعيد العالمي فقد كان واضحا ان الامبريالية الاجنبية، الطامعة في تحويل الصين الى مستعمرة، لن تسمح بتطور رأسمالي مستقل للصين ولن تسمح بنمو البورجوازية الصينية الا في حدود ضيقة بحيث لا تخرج على تبعيتها للبورجوازية المتروبولية. وعلى هذا فان الثورة في الصين ستكون ثورة بورجوازية ديموقراطية ولكن بدون قيادة البورجوازية.

صحيح انها لن تكون موجهة ضد البورجوازية الوطنية، ولكنها لن تستهدف ايضا اقامة دكتاتورية البورجوازية. وبهذا المعنى فان الثورة الصينية «لن تعود ثورة ديموقراطية بورجوازية عادية من النمط القديم» بل ستكون «ثورة ديموقراطية بورجوازية مبتكرة من نمط جديد».

وهذه الثورة، ككل الثورات التي تتطور في البلدان المستعمَرة ونصف المستعمَرة، تنتمي الى معسكر «الديموقراطية الجديدة» المعادي للاقطاع وللامبريالية، اي للرأسمالية العالمية، وتشكل بالتالي جزءا من الثورة الاشتراكية العالمية. وبكلمة واحدة، ان الثورة الديموقراطية البورجوازية «ستبعد الصين عن طريق التطور الرأسمالي وستضعها على الطريق الاشتراكي» (١). فهي اذن في الصين كما في روسيا تمثل الطريق المختصر الى الاشتراكية، مع فارق واحد وهو ان مرحلة ثورة شباط، اي مرحلة الدكتاتورية البورجوازية، لن تكون ضرورية في الصين ولا حتى ممكنة، لان كل تاريخ الصراع السياسي في الصين لم يكن الا صراعا بين الحزب الذي يريد ان يوقف الثورة الديموقراطية البورجوازية عند مرحلة شباط (حزب الكيومنتانغ) والحزب الذي يريد ان يضع تلك الثورة مباشرة على عتبة اوكتوبر (الحزب الشيوعي). وفي حين ان مرحلة شباط كان يمكن ان تكون في روسيا نقطة الوصول (فيما لو كتب النصر النهائي لكيرنسكي) فانها في الصين لم تكن الا نقطة الانطلاق (فتشان كاي شيك هو بالفعل كيرنسكي الصين). ولئن كان كيرنسكي روسيا قد استولى على السلطة السياسية بعد انتصار الثورة الديموقراطية البورجوازية، فان هذه الثورة ما كان ممكنا لها ان تنتصر في الصين الا في حال سقوط تشان كاي شيك. ولئن كان الحزب الشيوعي في روسيا احدى القوى الرئيسية التي

---

١ ـ «الثورة الصينية والحزب الشيوعي الصيني» ـ المؤلفات المختارة ـ المجلد ٣ ـ ص ١١٤ ـ ١١٨.

صنعت ثورة شباط ١٩١٧ ، فان الحزب الشيوعي لم يولد في الصين الا لينقذ الثورة البورجوازية من انحطاط شباط او من الانحطاط الأتاتوركي بالمقارنة مع تركيا .

والواقع اننا اذا كنا قد أثرنا مشكلة مرحلة شباط واحتمالاتها بالنسبة الى الثورة الصينية ، فليس ذلك من قبيل الصدفة التي يقود اليها سياق الكلام ، وانما لانها مرتبطة بجوهر الاستراتيجية الماوية ونقطتها المحورية . فمرحلة شباط لم تكن ممكنة بالنسبة الى الثورة الروسية الا لان الحزب الفلاحي (الحزب الاشتراكي ـ الثوري) آثر في النهاية ان يسير في ركاب البورجوازية ، وما أمكن للبلاشفة ان يتقدموا بثورة شباط نحو اوكتوبر الا بعد ان ثبت عجز كيرنسكي والاشتراكيين ـ الثوريين عن حل المسألة الفلاحية ، حل مسألة الارض . ولكن ماو يفترق عن لينين من حيث انه راهن لا على المسألة الفلاحية وحدها ، وانما على الحركة الفلاحية نفسها ؛ ولئن كان البلاشفة قد مثلوا بالنسبة الى الفلاحين الوعد بحل مسألة الارض ، فان الحزب الشيوعي الصيني قد جسَّد الحركة الفلاحية وضمن لها القيادة الصحيحة . ومن هنا على وجه التحديد كانت استحالة مرحلة شباط بالنسبة الى الثورة الصينية : فالانتصار على الطريقة الكيرنسكية غير ممكن بدون فلاحين مخدوعين ، وفي الصين كان تشان كاي‌شيك مؤهلا لان يلعب دور كيرنسكي ولكن لم يكن هناك من وجود لفلاحين مخدوعين ، وهذا بفضل استراتيجية ماو الفلاحية .

الاستراتيجية الفلاحية

لعل الاختيار الفلاحي لماوتسي تونغ تحدد منذ عامه الثالث عشر عندما خرج ، في احد ايام عام ١٩٠٦ ، عام المجاعة ، ليتجول في مزرعة والده فوجد رؤوس العمال الزراعيين المجتزة معلقة على أوتاد سور المزرعة . كان اكثرهم من اصدقائه ، وكان الجوع قد دفع بهم الى محاولة نهب مخازن السيد . وبعد قمع التمرد ، حوكم فلاحو المزرعة والقرية المجاورة امام «محكمة» يرأسها والد ماو نفسه ، الذي اصدر الحكم بقطع رؤوسهم جميعا وبمصادرة اراضي المالكين منهم لصالحه . ولم ينسَ ماو الصورة الرهيبة لرؤوس اصدقائه التي كانت تبتسم له مكشرة فوق أوتاد سور المزرعة . وحاول ان يقتل والده . ولكنه لم يفلح . فحاول ان ينتحر . ولكنه لم يفلح ايضا . بيد ان قراره كان قد اصبح نهائيا : انه سينذر حياته للعمل من اجل انقاذمعذبي الارض من ظلم سادة الارض والحرب .

وبعد عشرين عاما من تلك الحادثة ، وبعد ان كان ماو قد صار شيوعيا ، قررت اللجنة الفلاحية التابعة للحزب الشيوعي الصيني ارساله الى اقليم هونان ، مسقط رأسه ، ليقوم بتحقيق حول التمرد الفلاحي الذي أقض مضاجع الملاك الاقطاعيين في ذلك الاقليم والذي اخذ من البداية طابعا جذريا وعنيفا جعل منه

بالفعل نقطة انطلاق الثورة الفلاحية الحديثة في الصين . وقضى ماو في هونان خمسة اسابيع نشر بعدها في آذار ١٩٢٧ تقريره المشهور المعروف باسم **التحقيق بصدد الحركة الفلاحية في هونان** الذي هو بحق من أروع ما كتبه ماو وأثر كلاسيكي في الادب الثوري العالمي .

كان الحزب آنذاك ما يزال في مرحلته الاورثوذكسية ، مرحلة تركيز النشاط على التحريض العمالي والنظر بعين الريبة الى الحركة الفلاحية «العفوية» و«الضيقة الافق» . وكانت سياسة الحزب الرسمية اعاقة تلك الحركة الفلاحية حرصا على مصالح «حملة الشمال» وتجنبا لاثارة حساسيات ضباط جيش تشان كاي شيك الذين كان جلهم من ملاك الاراضي .

وقد أدان الحزب اكثر من مرة وفي اكثر من نص ما أسماه بأوهام الفلاحين البورجوازية الصغيرة الضارة (مصادرتهم لملكية الاقطاعيين) وشططهم (تصفيتهم الجسدية للاشرار من كبار الملاك العقاريين) . ولكن الاسابيع الخمسة التي قضاها ماو في هونان جعلته يدرك فداحة خطأ سياسة قادة الحزب ، وهكذا تحول تحقيقه عن الحركة الفلاحية الى دفاع لاهب عنها . والواقع ان ماو لم يكتف في تقريره بالمطالبة ب «ضرورة تصحيح الآراء المسبقة المغلوطة بصدد الفلاحين» ، بل اعتبر ان الموقف من الفلاحين يحدد انتماء المرء الى معسكر الثورة او معسكر الثورة المضادة . فالثوري هو من يقف الى جانبهم ، والمناهض للثورة هو من يقف ضدهم او يدين «شططهم» . ويشير ماو بسخرية الى «مشكلة ما يسمى بالشطط» ويتساءل : هل يمكن لحركة فلاحية تضم الملايين ، وستضم مئات الملايين ، أن تهب كالإعصار لتحطم قيودها وتحفر قبر الامبرياليين والاقطاعيين من غير ان ترتكب «شططا» ؟ ان «الثورة ليست حفلة عشاء راقصة ولا عملا ادبيا ولا رسما ولا تطريزا . ولا يمكن ان تتم بمثل تلك الاناقة وذلك الهدوء وتلك الرقة والحفاوة والدقة .

«ان الثورة هي فعل عنيف ، العمل اللامشفق لطبقة تطيح بسلطة طبقة اخرى . والثورة في الريف هي اطاحة الطبقة الفلاحية بالسلطة الاقطاعية للملاك العقاريين . والشطط ... في مثل هذه الثورة ... لا غنى عنه ... وله اهمية ثورية . ومن الضروري ان تقوم في الريف مرحلة قصيرة من الارهاب ، وإلا فانه سيكون من المستحيل سحق نشاط العناصر المضادة للثورة في الريف والاطاحة بسلطة الاقطاعيين». وبالاصل ، ان شطط الفلاحين ليس الا ردا طبيعيا على شطط الاشرار من الملاك العقاريين ، و«عين الفلاح ثاقبة النظر . والفلاحون يدركون تماما من هو الخطِر (من الاقطاعيين) ومن هو غير الخطر ، وما اذا كان هذا بالغ القسوة وما اذا كان ذاك أقل قسوة ، وما اذا كان من الواجب معاقبة هذا بصرامة ومعاقبة ذاك برحمة. ومن النادر ألا يكون الحكم متناسبا والجريمة».

وأولئك الذين «ينتقدون» شطط الفلاحين هم إما عملاء للاقطاعيين واما ثوريون ثرثارون . وبديهي انه لا حاجة للنقاش مع عملاء الاقطاعيين . أما الثوريون الثرثارون فليعلموا ان الثورة الفلاحية هي «امتحان لجميع الاحزاب

والفئات الثورية» . والمسألة كلها تنحصر في الاجابة على واحد من الاسئلة التالية : «هل ينبغي ان نقف على رأس الفلاحين ونقودهم ؟ ام هل ينبغي ان نبقى وراءهم مكتفين بانتقادهم بهيبة الاساتذة ؟ ام هل ينبغي ان نسير للقائهم لمقاتلتهم؟ ان كل صيني حر في اختيار احد هذه الطرق الثلاثة ، لكن مجرى الاحداث يقرّب بالنسبة الى الجميع ساعة الاختيار» .

وينهي ماو تحقيقه بسخرية لاذعة من انبياء الثورة الكذبة الذين يتحدثون ليل نهار عن «يقظة جماهير الشعب» ثم ترتعد فرائصهم هلعا بمجرد ان تستيقظ الجماهير فعلا ، ويتساءل : الا يذكرنا هؤلاء الكذبة بقصة ييكونغ المشهورة وحبه للتنانين ؟ (وردت قصة ييكونغ في كتاب الاديب الصيني ليو سيانغ المكتوب في عهد سلالة هان التي حكمت الصين في القرنين الاخيرين قبل الميلاد : «كان ييكونغ يحب التنانين ، وكان كل شيء لديه ، اسلحته وأدواته والنقوش التي تزين منزله ، على شكل تنين . وعلم بالامر تنين حقيقي . فنزل من السماء وألقى نظرة خاطفة من النافذة على ييكونغ ، ولكن ذنَبه اخترق الباب . ولما رأى ييكونغ التنين ترك كل شيء وأخذ يركض وقد جن خوفا وجحظت عيناه . ذلك ان ييكونغ لم يكن يحب التنانين البتة ، وانما كان يحب فقط كل ما له شكلها ! ») .

ولكن تقرير ماو لم يلق أذنا صاغية من الدوائر العليا في الحزب ، ولم يجد صاحبه بدا بدوره من خرق انضباط الحزب ومن العودة في ايلول ١٩٢٧ الى مسقط رأسه ليحاول هناك ان يتزعم التمرد الفلاحي الذي كانت شعلته قد أوشكت على الانطفاء . وفي الوقت الذي كانت فيه قوات تشان كاي شيك تطارد الشيوعيين كالطاعون وتفتك بهم بلا رحمة في جميع مدن الصين ، كان ماو الذي شهد بأم عينه تنفيذ حكم الاعدام في زوجته على يد أنصار تشان كاي شيك وكاد هو نفسه يفقد حياته ، كان يؤسس قاعدته الفلاحية الثورية الاولى عند تخوم اقليم هونان .

ولقد عاشت هذه القاعدة الثورية الاولى في البداية عيشة الكفاف ، وتجاهلها قادة الكومنترن ، ان لم نقل انهم نظروا اليها بعين الغضب . ولكن ماو كان مصمما على متابعة الطريق الذي اختطفه لنفسه دونما اعتبار لتعليمات الكومنترن. وقد حدد برنامجه السياسي على النحو التالي : «تجاهل المدن والقتال في الارياف . الفلاحون اولا ، ثم العمال . اصلاح الملكية العقارية وعدم الاهتمام بالمصانع . تجنيد جيش أحمر جديد في الارياف والحياة فيها الى حين نضوج الوقت لثورة فلاحية» . وما كان مثل هذا البرنامج ليحظى برضى الاورثوذكسيين في الكومنترن وفي الحزب الشيوعي الصيني . وبالفعل ، قامت اللجنة المركزية في ٩ شباط ١٩٢٩ بـ «لفت نظر» ماو الى «خطأ» السياسة التي ينتهجها مؤكدة ان مصير الثورة الصينية رهن بتطور النضال العمالي في المدن . ولكن ماو ابى الانصياع ، ورد على رسالة اللجنة المركزية برسالة اخرى مضادة في ٥ نيسان

١٩٢٩ مؤكدا ان «تطور النضال في الريف» هو شرط «تطور النضال في المدن» وأنه لا داعي للخوف من «غرق قوى الطبقة العاملة» بنتيجة «التطور السريع للحركة الفلاحية» لان الشروط التاريخية للصين كبلد نصف مستعمر تجعل من النمو السريع للحركة الفلاحية شرطا لشمول الثورة وعمومها واكتسابها صفة الثورة القومية حقا .

وإزاء هذا الرفض من ماو لنقد نفسه ذاتيا وجدت لجنة الحزب المركزية وعلى راسها لي لي سان انه لا مناص من فصل ماو من الحزب ، ولاسيما ان الكومنترن كان يريد هذا الفصل حرصا على «سمعة الحزب الشيوعي» التي اساء اليها ماو بالحملات الانتقامية التي كانت عصابات الانصار تشنها ردا على محاولات قوات تشان كاي شيك لتطويقها وسحقها . وصدر قرار الفصل في بحر عام ١٩٢٩ ، وكان من اكبر الغلطات التي ارتكبها الكومنترن في تاريخه . ولكن ماو وأنصاره رفضوا الاقرار بشرعيته نظرا الى ان النظام الداخلي للحزب الشيوعي الصيني كان ينص على انه لا يجوز فصل اي عضو من اعضاء اللجنة المركزية اذا لم يكن حاضرا بشخصه ليرد على الاتهامات الموجهة ضده . والحال ان اللجنة المركزية كانت تقيم سرا في كانتون في حين كان ماو يختفي في الجبال . وعلى كل ، فقد بقي هذا النزاع الداخلي سريا وغير معلن ، واستمر ماو في تطوير تكتيك حرب الانصار ، واستمر الكومنترن في تجاهله (ولم يكن يملك اصلا قوة فعلية لمعارضته او لتنفيذ قرار فصله) .

بيد ان سياسة التجاهل هذه لم تعد ممكنة من اللحظة التي بدأ فيها العالم يسمع بأنباء الانتصارات الاولى للجيش الاحمر . وهكذا خرجت صحافة الكومنترن عن صمتها لتنسب هذه الانتصارات الى الرفيق «بينغ-شو-ماو» . ولم يكن اسم هذا الرفيق الا مزيجا من اسماء بينغ بي مؤسس «الاتحادات الفلاحية» وشوته قائد الجيش الاحمر وماوتسي تونغ. كما ان الصحيفة الرسمية الناطقة بلسان الاممية الثالثة اعلنت في ١٣ آذار ١٩٣٠ عن وفاة زعيم فلاحي مناضل يدعى ماو قضى نحبه بعد مرض طويل بالسل ، ولكن بعد شهر تشرين الثاني ١٩٣١ ، وعلى اثر اعلان قيام «الجمهورية السوفياتية الصينية» وانتخاب ماوتسي تونغ رئيسا لها ، لم يعد هناك مجال لاي التباس . وحيث الصحافة الشيوعية العالمية الجمهورية الجديدة ورئيسها ولكن بشيء من الحذر : فقد تعمدت الا تذكر صفة ماو الحزبية والا تحدد طبيعة روابطه بالحزب . وهكذا كان في وسعها ، كما يقول لوسيان بلانكو ، الانتظار : فاذا ما نجح ماو في خاتمة المطاف حيت فيه القائد المظفر لجميع الشيوعيين الصينيين في المدن والارياف ، واذا ما أخفق فانه لن يكون في هذه الحال سوى مغامر فلاحي «أنكر دور البروليتاريا الطليعي» .

ولم يتمكن ماو من فرض نفسه كزعيم أوحد للماركسية الصينية الا اثناء المسيرة الطويلة التي كرست في الوقت انتصار الثورة الصينية والاستراتيجية الفلاحية . ففي اجتماع تاريخي عقد في كانون الثاني ١٩٣٥ انتخب المكتب

السياسي ماوتسي تونغ امينا عاما للحزب الشيوعي الصيني . ولن نتوقف هنا عند المأثرة الكبرى للمسيرة الطويلة . ويكفي ان نقول ان هذه المأثرة وكل الانتصارات التي سبقتها والتي ستتلوها ما كانت لتكون ممكنة بالاعتماد على الاستراتيجية الفلاحية وحدها ، وبدون تراكم الخبرة العسكرية . وهذا التوكيد يجب ألا يفاجئنا : فالاستراتيجية الفلاحية نفسها ليست بذات قيمة ان لم تكن مقترنة بتكتيك مناسب ، هو على وجه التحديد تكتيك حرب الانصار التي هي حرب فلاحية قلبا وقالبا .

ولقد جاءت حرب المقاومة ضد الغزو الياباني ابتداء من عام ١٩٣٧ لتؤكد من جديد عمق الارتباط بين الثورة القومية والثورة الديموقراطية ، بين تحرير الارض وتحرير الفلاح ، بين حرب الانصار وحرب الفلاحين . فالتفوق التقني والعسكري لليابان اتاح لها ان تحتل بسرعة وسهولة نسبيتين عددا كبيرا من المدن والخطوط الهامة للمواصلات في الصين . ولكن اليابان كانت عاجزة بسبب النقص النسبي في رجالها عن احتلال الريف الواسع . وهكذا بقي الريف الحلقة الضعيفة في نظام الاحتلال الياباني ، ومنه امكن شن حرب التحرير وحرب العصابات على نطاق واسع . ولما كان الفلاح هو المنبع الاساسي الذي يتكون منه جيش التحرير وقوات الانصار ، ولما كان الفلاحون يشكلون غالبية الامة الساحقة، ولما كانت حرب المقاومة هي حرب الامة بأسرها ضد اعداء الامة وخونة الامة ، فقد كان من الطبيعي ان تأخذ الحرب القومية صفة الحرب الفلاحية ، والحرب الفلاحية صفة الحرب القومية . وقد عبر ماو عن ذلك بقوله : «ان المهمتين الكبيرتين للثورة الصينية (الاطاحة بنير الامبريالية الاجنبية والاطاحة بنير الملكية الاقطاعية) مترابطتان كل الترابط . لاننا ان لم نطح بسيطرة الامبريالية ما استطعنا ان نلغي السيطرة الطبقية للملاك العقاريين الاقطاعيين باعتبار ان الامبريالية هي سندهم الرئيسي . واذا لم نساعد ، من الجهة الثانية ، الطبقة الفلاحية على الاطاحة بطبقة الملاك العقاريين الاقطاعيين ، ما أفلحنا في منح الثورة الصينية جيشا عرمرما وفي الاطاحة بسيطرة الامبريالية باعتبار ان طبقة الملاك العقاريين الاقطاعيين هي القاعدة الاجتماعية الرئيسية للسيطرة الامبريالية في الصين وان الطبقة الفلاحية هي الجيش الرئيسي للثورة الصينية . ومن هنا فان هاتين المهمتين الاساسيتين — الثورة القومية والثورة الديموقراطية — هما في الحقيقة مهمة واحدة بالرغم من اختلاف احداهما عن الاخرى» (١) .

هذه هي الملامح الكبرى للاستراتيجية الفلاحية ، جوهر الماوية وابتكارها الاصيل . ويبقى علينا بعد ذلك ، وكمرحلة اخيرة ، ان نحدد موقع هذه الاستراتيجية من الاستراتيجية الطبقية العامة التي وضعتها الماركسية

---

١ — «الثورة الصينية والحزب الشيوعي الصيني» — المؤلفات المختارة — المجلد٣ — ص ١٠٣ .

ـ اللينينية للثورة .

ان النظرية الماركسية تظل ، بالرغم من كل التطويرات الممكنة ، نظرية الثورة البروليتارية . فهل يمكن ، من وجهة النظر هذه ، القول بأن الماوية هي هرطقة ماركسية ؟

في الحقيقة ، وعلى الصعيد النظري المحض ، من الصعب ومن الشطط في آن واحد ان نسير وراء مثل ذلك الاغراء . فماوتسي تونغ قد أكد على الدوام ، ومن البداية ، وعلى الصعيد النظري المحض على الاقل ، ان قيادة الثورة الصينية يجب ولا يمكن ان تكون لغير البروليتاريا . بل هو يذهب الى أبعد من ذلك ويؤكد ان الجماهير الفلاحية عاجزة عن ان تكون القائدة الحقيقية للثورة وللحرب القوميتين بحكم وضعها في عملية الانتاج وبالنظر الى ضيق الافق السياسي المميز لكل منتج صغير (١) .

ولكن ما المبرر النظري في هذه الحال للاستراتيجية الفلاحية وأين يفترق ماو عن لينين ؟

ان التجديد الذي اتى به ماو هو تمييزه بين قوة الثورة الرئيسية وبين قوتها القيادية . فبالنسبة الى لينين كانت القوتان تتحدان في شخص البروليتاريا (قد يكون الحصان فلاحيا ولكن الفارس هو ابدا بروليتاري) .

أما ماو فقد ميز بين البروليتاريا كقوة قائدة للثورة وبين الفلاحين كقوتها الرئيسية . وفي الوقت الذي يقترب فيه ماو من لينين عندما يؤكد بأن القيادة البروليتارية هي شرط انتصار الثورة الفلاحية وضمانة نجاحها ، يبتعد عنه بعض الشيء عندما يصنف الفلاحين طبقيا كأنصاف بروليتاريين لا كبورجوازيين صغار .

يخيل الينا بعد هذا ان توكيدات ماو الاورثوذكسية بصدد القيادة البروليتارية تظل الى حد بعيد مجرد توكيدات نظرية . وكما يلاحظ لوسيان بلانكو ، فان ماو قد ابدى على الدوام ، وتجنبا للصدام المباشر مع الكومنترن ، اهتماما كبيرا بإلباس ممارسته غير الاورثوذكسية لباسا ايديولوجيا اورثوذكسيا . ومن وجهة النظر هذه ، فان التجديد الماوي يجب ان نبحث عنه على صعيد الوقائع لا على صعيد الصيغ . وهكذا فان من اصل ٨٢١ مندوبا حضروا المؤتمر الثاني لمجالس السوفييت الصينية في كانون الثاني ١٩٣٤ لم يكن هناك سوى ثمانية عمال من المدن !

والحقيقة ان ماو عندما يتكلم عن القيادة البروليتارية فانما يقصد قيادة الحزب الشيوعي : «ان الحزب الشيوعي هو وحده الذي يقود الحرب الثورية ، وقد ضمن من الان هيمنته المطلقة على مجرى الحرب الثورية . وهيمنة الحزب الشيوعي هذه التي لا ينازعه عليها احد هي الشرط الاساسي لمتابعة الحرب الثورية

---

١ ـ «المشكلات الاستراتيجية للحرب الثورية» ـ المؤلفات المختارة ـ المجلد ١ ـ ص ٢٢٦ .

بعناد الى النهاية» (١) .

وبالنظر الى انعدام وجود طبقة بروليتارية بالمعنى الماركسي للكلمة في الصين، فقد قام ماو وأنصاره بما يسميه اسحق دويتشر عملية «استبدال» هائلة . فلقد أحلوا كوادر الحزب الشيوعي الصيني محل الطبقة البروليتارية الهامدة النشاط او العديمة الوجود ، واستعاضوا عن البروليتاريا بأيديولوجيا البروليتاريا . ولا غرو بعد هذا ان وجدنا ماوتسي تونغ يتحدث عن قيادة المذهب الشيوعي للثورة الصينية اذ هو يقول بالحرف الواحد : «منذ ان ظهرت الشيوعية العلمية في الصين اتسع أفق الرجال وتبدل مظهر الثورة الصينية . والثورة الديموقراطية لا يمكنها البتة الانتصار في الصين ما لم يقدها المذهب الشيوعي . وهذا المبدأ اكثر انطباقا ايضا على المرحلة التالية من الثورة ... ان الشيوعية هي بوصلة العالم المعاصر قاطبة بما فيه الصين المعاصرة» (٢) .

والدور الهائل الذي لعبته الايديولوجيا الماركسية في الثورة الصينية يتمثل في ان ماو وأنصاره ركبوا الموجة الفلاحية من غير ان يغرقوا فيها ، وتبنوا الاستراتيجية الفلاحية من غير ان يتبنوا وجهة النظر الفلاحية الضيقة ، وعاشوا كالفلاحين من غير ان يصبحوا فلاحين ، وسعوا الى تطويق المدن بالريف من غير ان ينسوا لحظة واحدة ان الهدف النهائي هو الاستيلاء على المدن وتوطيد سلطتهم والسلطة البروليتارية فيها .

وهذا ما لم يفهمه قط اعداء الماوية في اوساط الحركة الشيوعية العالمية ، سواء أكانوا من الستالينيين ام من التروتسكيين . فلقد خيل اليهم جميعا ان الماوية هرطقة فلاحية ونسخة صينية من النارودنية .

ولقد ظل ستالين يسخر من «الشيوعية الفلاحية» حتى الى عام ١٩٤٤ ، عندما قال للسفير الاميركي هاريمان : «أشيوعيون هم الشيوعيون الصينيون ؟ انهم بالنسبة الى الشيوعية كالسمن النباتي بالنسبة الى الزبدة» . اما التروتسكيون فقد أكدوا على الدوام ان «أنصار ماو مهددون ، عند عودتهم الى المدن، بالاصطدام العنيف مع البروليتاريا المدينية وبالتحول الى عامل مناهض للثورة ، ولاسيما في المرحلة الحرجة التي ستتجه فيها الثورة الى الانتقال من المرحلة البورجوازية الى المرحلة الاشتراكية» . وقد ندد التروتسكيون الصينيون بانتصار الماوية في عام ١٩٤٩ على انه انتصار «ثورة مضادة بورجوازية وستالينية» !

ولئن برهنت الماوية على صواب ضد جميع خصومها ، فليس ذلك لانها انتصرت في عام ١٩٤٩ فحسب ، بل ايضا وقبل كل شيء لانها عرفت كيف تربط

---

١ ــ المصدر نفسه ــ ص ٢٢٧ .

٢ ــ «الديموقراطية الجديدة» ــ المؤلفات المختارة ــ المجلد ٣ ــ ص ١٥١ .

شمولية الماركسية ـ اللينينية بممارسة الثورة الصينية .

أما بصدد المسألة الفلاحية فان الفضل الكبير للماوية يكمن ، بكلمة واحدة ، في انها وضعت حدا لجملة الاساطير السلبية بصدد دور الفلاحين كطبقة ، من غير ان تحوّل قط الحركة الفلاحية الى أسطورة .

فانون

هجاء البورجوازية القومية

لقد قيل : ان العالم الثالث اكتشف ذاته وخاطب نفسه بصوت فرانز فانون. وهذا التوكيد لا يبدو لنا مجانبا للحقيقة بشرط ان نحسن فهم ما المقصود بتعبير العالم الثالث . فاذا فهمنا العالم الثالث على انه القوة الثالثة التي تتميز بأنها ليست رأسمالية ولا اشتراكية ، فاننا لا نكون قد ابتعدنا عن فرانز فانون فحسب ، بل عن العالم الثالث نفسه . صحيح ان التعبير بحد ذاته يحمل على الالتباس (فالعالم الثالث ليس ثالثا الا بالنسبة الى المعسكر الرأسمالي والمعسكر الاشتراكي) ، ولكن دقة التعبير لم تكن في يوم من الايام شرطا لازما لشيوعه وعمومه . ومثال الصين الشعبية ينقض الفهم اللفظي المحض لذلك التعبير . فالصين هي جزء اساسي من العالم الثالث بالرغم من انها في الوقت نفسه جزء اساسي من المعسكر الاشتراكي .

وكذلك فان مفهوم العالم الثالث ليس بمفهوم جغرافي . فصحيح انه درجت العادة على انشاء علاقة تعادل بين العالم الثالث والقارات الثلاث (آسيا وافريقيا وأميركا اللاتينية) . ولكن الجميع يعلم ان انتماء اليابان الجغرافي الى آسيا لا يحدد انتماءها السوسيولوجي الى العالم الثالث . وبالمقابل فان الحركة الزنجية الاميركية التي لا تنتمي جغرافياً الى القارات الثلاث هي الان في تقدير الجميع حركة منتمية ايديولوجياً وسياسيا وسوسيولوجياً الى العالم الثالث .

ما المقصود اذن بالعالم الثالث ؟

يخيّل الينا ان هذا التعبير يشير قبل كل شيء الى علاقة سوسيولوجية

وسياسية وأيديولوجية محددة والى انتماء أممي محدد في عصر العالمية الامبريالية وفي عصر سؤدد الامبريالية العالمية وأفولها . فالعالم الثالث يحتضن تحت لوائه مجموع الامم والشعوب التي استعبدتها الامبريالية والتي اطاحت وتطيح وستطيح بنير الامبريالية العالمية . وبهذا المعنى فان شعوب المعسكر الاشتراكي ليست جزءا من العالم الثالث (باستثناء الصين وفيتنام على سبيل المثال) لان هذه الشعوب كسرت شوكة الامبريالية العالمية من غير ان تمر بمرحلة العبودية الكولونيالية .

ان الانتماء الى العالم الثالث هو انتماء الى العالم الكولونيالي ، سواء أكانت الصفة الكولونيالية ماضية أم حاضرة أم هي في طريقها الى الزوال . ونحن نفهم من هذا المنظار ان يكون عالم الزنوج الاميركيين عالما كولونياليا لان علاقات زنوج اميركا ببيضها هي علاقات مستعمَرين بمستعمِرين ، علاقات سكان «أصليين» بسكان متروبوليين . واذا ما أدركنا ان الاستعمار ليس مجرد ظاهرة بل هو ايضا علاقة وأن وجود المستعمِرين هو الذي يحدد وجود المستعمَرين وبالعكس ، أدركنا ايضا ان الثنائية هي السمة الاساسية للعالم الكولونيالي .

وبقدر ما تكون هذه الثنائية نوعية ، اي غير قابلة للارجاع الى ثنائية أعم او أشمل ، فان صوت فانون هو فعلا صوت العالم الثالث ، صوته النوعي .

وبديهي ان الفانونية ليست تجاوزا للماركسية كما يحلو لبعضهم ان يعتقد ، وانما هي تطوير جديد ، إغناء جديد للماركسية تجاه مشكلة نوعية : الاستعمار وثنائية عالم الاستعمار . واذا كنا نريد هنا ان نشيد بمساهمة فانون ، فان علينا قبل ذلك ان نشيد بالدور الكبير الذي أدته الماركسية في تحليل ظاهرة الاستعمار وفضحها . فبدون التحليل الماركسي ما كان ممكنا البتة فهم طبيعة الاستعمار وأسباب نشوئه وأفوله ، وما كان ممكنا التصدي له . بيد ان الماركسية أولت اهتمامها الاكبر ، بحكم طموحها التاريخي الشمولي ، للاستعمار كظاهرة مرتبطة بنشوء الرأسمالية وبتحولها الى رأسمالية احتكارية ، اكثر مما أولته للاستعمار كعلاقة وجودية بين المستعمِرين والمستعمَرين ، علاقة تحدد وجودهم بأكمله .

ولقد أدركت الماركسية منذ وقت مبكر نسبيا ان العلاقات الاستعمارية هي علاقات ثنائية ، وللينين صفحات رائعة في التوكيد على ضرورة التمييز بين عالم المستعمِرين وعالم المستعمَرين (تمييزه على سبيل المثال بين قومية الامة الظالمة وقومية الامم المظلومة) ، ولكن الماركسية بشكل عام أكدت الثنائية الكولونيالية من غير ان تحلل أواليتها وسيكولوجيتها . وقد ردت ، بشكل أعم ايضا ، هذه الثنائية الى ثنائية سوسيولوجية محضة : الصراع بين المستغِلين والمستغَلين . ولا ريب في ان الصراع بين المستعمِرين والمستعمَرين هو مظهر اساسي من مظاهر الصراع بين المستغِلين والمستغَلين ، ولكن العلاقة بين الصراعين ليست علاقة تماهٍ وإن لم تكن في الوقت نفسه علاقة تناف وتنابذ .

واذا ما فهم الصراع بين المستعمِرين والمستعمَرين على انه **مجرد** صراع بين

المستغِلين والمستغَلين ، فمن الممكن القول ان فانون لم يأت بجديد ، وهو بالاصل لا يتوقف الا فيما ندر عند هذه الثنائية . بيد ان مساهمة فانون الحاسمة تبرز عندما لا يعود الصراع بين المستعمِرين والمستعمَرين يفهم على انه مجرد صراع بين المستغِلين والمستغَلين . وبقدر ما تتميز ثنائية الاستعمار عن ثنائية الاستغلال (وهذا التمايز هو بالبداهة تمايز في اطار وحدة الهوية) ، وبقدر ما تستعصي الثنائية الاستعمارية على الإرجاع الى الثنائية الاستغلالية (علما بأن هذا الارجاع واجب في احدى مراحل التحليل) ، تفرض الفانونية نفسها كأداة تحليل نوعية مكملة للتحليل الماركسي الاكبر وكمساهمة نوعية في إغناء النظرية الماركسية النقدية الكبرى .

الثنائية الكولونيالية

ان الصفحات الاولى من كتاب فانون **معذبو الارض** [1] تنفتح على هذا الوصف المدهش لثنائية العالم الكولونيالي :

«ان العالم الذي يسوده النظام الاستعماري هو عالم مقسم . ومن نافل القول ان نذكر ان هناك مدنا للسكان الاصليين ومدنا للاوروبيين ، أن هناك مدارس للسكان الاصليين ومدارس للاوروبيين .. والمنطقة التي يسكنها المستعمَرون لا تكمل المنطقة التي يسكنها المستعمِرون ... ان مدينة المستعمر مدينة صلبة مبنية بالحجر والحديد ، مدينة أنوارها ساطعة ، وشوارعها معبدة بالاسفلت ، وصناديق القمامة فيها ما تنفك تبلع نفايات ما عرفها الآخرون ولا رأوها يوما ولا حلموا بها يوما ... أما مدينة المستعمَر او مدينة السكان الاصليين ، أما القرية الزنجية ، أما بلدة الاهالي ، أما الحي الذي يحظر على الاوروبيين ان يتجولوا فيه ، فهو مكان سيء السمعة يسكنه أناس سيئو السمعة . فيه يولد المرء اين كان ، وكيف كان . وفيه يموت المرء اين كان ، وبأي شيء كان . هو عالم بلا فواصل ، الناس يتكدسون فيه بعضهم فوق بعض ، والاكواخ تتكدس فيه بعضها فوق بعض . ان مدينة المستعمَر مدينة جائعة ، جائعة الى الخبز ، والى اللحم ، والى الاحذية ، والى الفحم ، والى النور . مدينة المستعمَر مدينة جاثية ، مدينة راكعة ، مدينة متدحرجة في الوحل . انها مدينة زنوج ، مدينة عرب ... وهذا العالم المقسم الى قسمين يسكنه نوعان مختلفان . وما يقسم هذا العالم انما هو اولا انتساب المرء او عدم انتسابه الى نوع معين ، الى عرق معين .. فالمرء هنا غني لانه ابيض وأبيض لانه غني ... وما يميز الطبقة الحاكمة اولا وقبل كل شيء ليست المصانع ولا الاملاك ولا الرصيد في البنك ، اذ ان النوع الحاكم هو اولا وقبل كل شيء النوع الذي جاء من مكان آخر ، النوع الذي

---

١ ـ منشورات دار الطليعة ـ بيروت .

لا يشبه السكان الاصليين ، هو نوع «الآخرين» ... وتمضي هذه الثنائية احيانا الى اقصى منطقها ، فتجرد المستعمَر من انسانيته حتى لتعده حيوانا . انظر الى اللغة التي يتكلمها المستعمِر حين يتكلم عن المستعمَر ، تجد انها اللغة المستعملة في وصف الحيوانات : انهم يستعملون هذه التعابير : زحف العـــرق الاصفر ، ارواث المدينة الاصلية ، قطعان الاهالي ، تفريخ السكان ، تنمل الجماهير ، الخ».

والمبدأ الاساسي الذي يحكم هذه الثنائية هو مبدأ التنافي . ولنحدد على الفور بأنه تنافٍ مطلق ، لا يوصل الى اي وحدة ، ولا يصبو الى اي تركيب ، ولا يترك مجالا لاي مصالحة . ان منطقه أرسطي صرف ، ينبذ الجدل والحوار والتلاحم في وحدة ديالكتيكية اعلى : ان احد الطرفين زائد يجب ان يزول ، وزواله يجب ان يكون تماما شاملا بلا رجعى ، تنافي انقطاع ، لا تنافي استمرار. تنافٍ لا يطل على اي مستقبل ، لان مستقبله الوحيد هو إنفجاره : «ان محـو الاستعمار على أي مستوى درسناه انما هو إحلال نوع انساني محل نوع انساني آخر احلالا كليا شاملا مطلقا بلا مراحل انتقال» .

وهذا التنافي المطلق بين طرفي العالم الكولونيالي يتجلى في انعدام الوساطة بينهما . فالخط القاسم او الحدود الفاصلة بينهما انما هي الثكنات ومراكـــز الشرطة . و«الدركي او الشرطي في المستعمرات هما المرجع القيم الشرعي الذي يستطيع المستعمَر ان يرجع اليه وأن يخاطبه ، وهما الجهة التي تنطق بلســان المستعمِر ونظام الاضطهاد» . وهذا على وجه التحديد ما يضفي على الثنائيـــة الكولونيالية صفة نوعية لا تتميز بمثلها الثنائية الاستغلالية في المجتمعات القائمة على الاضطهاد الطبقي كالمجتمعات الرأسمالية . ففي مثل هذه المجتمعات لا يكون رجل الامن ، بالرغم من اهميته ، هو واسطة الاتصال الوحيدة . فالقيم الدينية والاخلاقية والتربوية السائدة تتدخل ههنا لتحيط المستغَل بجو من الخضـوع والامتثالية ولتخفف العبء عن رجل الامن .

«واننا نرى في البلدان الرأسمالية طائفة كبيرة من اساتذة الاخلاق والموجهين والمصلحين تقف حائلا بين المستغَل والسلطة الحاكمة» . وثمة مكافآت وأوسمة تمنح لكل من يدلل على حب الاتزان والتعقل ، ولكل من يؤدي خدمات «طيبة»، ولكل من يبرهن على احترامه «الديموقراطي» للنظام القائم . والحق ان كل البنى الفوقية في مجتمعات الاضطهاد الرأسمالية و«الديموقراطية» مستنفرة لتمويـــه الاستغلال ولتبريره عن طريق تمويهه . وإحدى المهمات الاساسية للاحـــزاب الثورية في هذه البلدان هي الكشف باستمرار عن الجذور الخفية للاستغـــلال وإظهاره على الدوام على حقيقته عاريا بلا تجميل وبلا زركشة . وعلى العكس من ذلك الوضع في المستعمرات . فالوسيط ، اي رَجل الامن ، لا يحاول هنا ان يموه الاضطهاد ولا ان يسدل عليه حجابا . بل ان مهمته هي بالضبط ان يعرضه ويظهره ، أن «يحمل العنف الى بيوت المستعمَر وأدمغته» حتى يلتزم المستعمر حدوده وحتى لا يحرك ساكنا .

ان التعايش هو شرط بقاء المجتمع الرأسمالي . ولا عجب ان تكون آلـــة الدعاية التي يملكها هذا المجتمع متضخمة الى أبعد الحدود وتنفق عليها الملايين : فمهمتها هي على وجه التحديد ان تجعل ذلك التعايش ممكنا وان تكون هـــي رسول الاندماج ، وبتعبير أدق رسول الدمج لكل القوى الاجتماعية التي يمكن ان تمثل قوة نفي وسلب للنظام القائم . ولكن التعايش ليس مطلوبا في العالـــم الكولونيالي ، وهو ليس شرط بقائه واستمراره . فالعالم الكولونيالي عالمان ، ومطلوب منه ان يبقى عالمين ، وإلا ما عاد كولونيالياً . ومن النادر ان يتحـدث احد عن ضرورة الاندماج ، وهناك على العكس اعتراض حقيقي على فكرة الاندماج. أفلم يقف السيد ماير في الجمعية الوطنية الفرنسية ليعلن : ان علينا ألا نلوث الجمهورية بادخال الشعب الجزائري اليها ؟

ومن هنا كان الخوف هو القانون السائد في المستعمرات . فالمستعمِـــر يخاف الدخول الى الحي الوطني، والمستعمَر يخاف الدخول الى الحي الاوروبي. والشرطي المطالب في كل مكان من العالم بتبديل خوف المواطنين أمنا واطمئنانا مطالب في المستعمرات بالحفاظ على قانون الخوف وتكريسه (١) .

واذا كان الدركي ، اي العنف العاري ، هو صلة الوصل الوحيدة بين هذين العالمين المتناقضين والمتنافيين ، فمن المفهوم ان يكون العنف العاري المحض هـو الوسيلة الوحيدة لحل الثنائية الكولونيالية المستعصية . ولئن قيل عن فانون انه أعاد ، بعد ماركس ولينين ، اكتشاف قوانين التاريخ ، فهذا على وجه التحديد لانه اعاد اكتشاف دور العنف في سيرورة التحرر ومحو الاستعمار . وإطار هذا الكتاب لا يسمح لنا بالتوقف مليا عند نظرية فانون فيَ العنف ، ولكن من اللحظة التي يؤكد فيها فانون في مستهل كتابه ان «محو الاستعمار ، سواء أقلنا تحريرا وطنيا ، ام نهضة قومية ، ام انبعاثا شعبيا ، ام اتحادا بين الشعوب ، وكيـف كانت العناوين المستعملة والمصطلحات الجديدة ، انما هو حدث عنيف دائما» ، تكون قد تحددت سلفا معالم الاستراتيجية الطبقية التـي يضعها للثورة فـــي المستعمرات ، وهي استراتيجية متباينة جذريا ــ ان لم نقل متناقضة ــ عن كل التراث الثوري الماركسي .

هجاء المدن

يتجلى هذا التباين قبل كل شيء بصدد الموقف من المدن . فلقد كانت المدن تمثل بالنسبة الى ماركس الوعد بوضع حد لبلادة الحياة الريفية . اما بالنسبة الى فانون فانالمدن في المستعمرات هي رمز الغزو الكولونيالي ورمز نجاح المشروع

---

١ ــ تقدم لنا رواية آلان باتون «ابك يا بلدي الحبيب» تحليلا أخاذا لهذا الخوف في افريقيا الجنوبية التي هي من اكثر العوالم الكولونيالية «أصالة» .

الكولونيالي . ففي المدن تخف حدة التناقض بين المستعمِر والمستعمَر وتتميع الثنائية الكولونيالية ولا يعود طرفاها متنافيين ذلك التنافي المطلق . وفي المدن يتدبر المستعمَر أمره ليتعايش مع المستعمِر وليحاول ان ينال نصيبه من منافع الاستغلال الاستعماري . وفي المدن تولد الهجنة الكولونيالية وتتطور ، وتتطور معها تلك الطبقة الخلاسية من السكان الاصليين الذين يعيشون عند حدود العالمين ويمثلون القوة الاحتياطية للاستعمار وترشحهم المصالح الاستعمارية للحلول محلها يوم لا يعود هناك بد من الجلاء العسكري . وبكلمة واحدة ، ان المدن هي جزر اوروبية في قلب العالم الكولونيالي ونقطة الاحتكاك والتماس بين العالمين اللذين يفترض فيهما انهما لن يلتقيا ابدا . ولا غرو ان وجدنا فانون يتكلم عن «طاعون المدن» : فالمدن في العالم الكولونيالي ليست ظاهرة شوهاء مستوردة من العالم المتروبولي فحسب ، وليست امتيازاتها اهانة مباشرة للجماهير المحرومة في المناطق الريفية فحسب ، بل ان وجودها بالذات وتضخمها هما بمثابة افتراض بأن الثنائية الكولونيالية غير متنافية وبأن التسوية او التعايش بين المستعمَر والمستعمِر ممكنان .

والواقع ان فانون ينظر الى المدن الكولونيالية بعين الفلاح : «ان الفلاحين يسيئون الظن بابن المدينة ويحذرون منه . فهو يرتدي ملابس كملابس الاوروبيين ويقطن احيانا في الحي الاوروبي . لذلك ينظر اليه الفلاحون نظرتهم الى انسان خرج على قومه وهجر كل ما هو تراث قومي . ان الفلاحين ينظرون الى سكان المدن نظرتهم الى «خونة» ، نظرتهم الى أناس «باعوا انفسهم» فهم متفاهمون مع المحتل ، يحاولون في اطار النظام الاستعماري ان يحققوا النجاح» .

واضح اذن ان عين الفلاح التي يستعيرها فانون ليست هي عين الفلاح الذي أتيح لماركس ان يعرفه ، الفلاح المحافظ ، المتعلق بأرضه الصغيرة ، ذي الافق الضيق الذي تنتهي حدود الوطن بالنسبة اليه عند حدود استثمارته الصغيرة والذي تهدهده أحلام الهدوء الريفي المخدر المبلد . ان فلاح فانون هو الفلاح المعذب ، المتألم ، المجسد للامة المهانة بأسرها . فلاح فانون فلاح «قومي» ، انتماؤه الى الارض هو انتماء الى الامة بأسرها . ذلك ان الارض تمثل القيمة المحسوسة الملموسة ، القيمة الثابتة الراسخة الوحيدة ، رمز الخبز والكرامة ، في عالم كولونيالي ، مزق الاستعمار بنيته التقليدية وحطم شخصيته القومية وشوه ولوث جميع قيمه الروحية والاجتماعية المتوارثة . وفلاح فانون هو فلاح ثوري ، لانه يمثل ذلك العنصر من الامة الذي يأبى كل حوار مع المستعمِر . وهذا بعكس ساكن المدينة الذي لا يعدو وجوده ان يكون حوارا متصلا مع المحتلين ، والذي لا يستطيع بحكم تساكنه معهم الا ان يدخل في حوار معهم حتى ولو كان يرفض وجودهم .

ولو ان فانون أكد بأن الفلاحين هم في المستعمرات طبقة ثورية لما كان اتى بجديد ، ولكن فانون يقول بأن الفلاحين في المستعمرات هم الطبقة الثورية

الوحيدة . وهذا ، من منظور الاستراتيجية الطبقية للثورة ، قلب بل نقض جذري لكل التصورات المتوارثة عن الماركسية . ولكن الفانونية لا تتحول بنتيجة ذلك الى نوع من مذهب شعبوي . ففانون لا يرفض ماركس ، ولكنه يطبق بشكل او بآخر منهجه على العالم الكولونيالي . وليس من قبيل الصدفة ان يكون قد قال بأن الفلاحين هم الطبقة الثورية الوحيدة لان «هذه الطبقة لا تخشى ان تخسر بالثورة شيئا بل تطمع ان تكسب بالثورة كل شيء» ، فهذا التقييم هو اصلا لماركس ، ولكنه هنا مخصوص بالفلاحين في حين ان ماركس كان يقصد به البروليتاريين.

والحقيقة ان الطبقة الثورية ، لدى فانون كما لدى ماركس ، هي عامل التاريخ وذاته الفاعلة . وكل ما هنالك (وهذا ليس بالقليل) ان الطبقة الثورية لدى فانون تتحد في الهوية بالطبقة الفلاحية لا بالطبقة العاملة ، بحكم الشروط الموضوعية الخاصة بالعالم الكولونيالي ، وهي الشروط المتحددة بثنائية المستعمِر والمستعمَر المتنافية .

ان فانون لا يتحدث في المطلق عن ثورية الطبقة الفلاحية ، ولكنه يتحدث عينيا عن ثورية فلاحي المستعمرات . وهو يدرك تماما ان «جماهير الفلاحين كثيرا ما تكون حاجزا يعطل اندفاع الثورة» في البلدان الغربية المتقدمة صناعيا ، وان «الجماهير الفلاحية في البلدان المصنَّعة هي على وجه العموم أقل عناصر المجتمع وعيا وأقلها تنظيما وأكثرها فوضى» ، و«انها تتصف بمجموعة من الصفات هي الصفات التي يمتاز بها السلوك الرجعي ، من ميل الى الفردية ، وبعد عن الانضباط ، وحب للربح ، واستعداد للغضب الشديد تارة ولليأس العميق تارة اخرى» . ولكن وضعية الفلاحين هي على العكس من ذلك تماما في البلدان المستعمَرة والمتخلفة صناعيا . ذلك ان البيئة الفلاحية في المجتمع المستعمر هي البيئة الوحيدة التي تظل محافظة على أصالة تقاليدها وسلامة بناها من كل شوائب الغزو الاستعماري والتلويث الاستعماري . والفلاح الذي «يبقى في مكانه يحمي تقاليده بعناد واصرار يمثل في المجتمع المستعمَر العنصر الانضباطي الذي يظل بنيانه الاجتماعي قائما على التواصل بين أفراد الجماعة وعلى ارتباط بعضها ببعض ارتباطا قويا . وصحيح ان هذا الركود وهذا الانكماش قد يولدان من حين الى حين حركات قائمة على العصبية الدينية ، وقد يولدان حروبا قبلية . ولكن الجماهير الريفية تظل في عفويتها انضباطية بالغيرية . ان الفرد ذائب هنا في الجماعة» .

ولدى فانون كما لدى ماركس يحدد جدل المدينة والريف الطبيعة الثورية او المناهضة للثورة للطبقات والقوى الاجتماعية . فمن هيمنة المدن على الارياف في عصر تطور الصناعة الكبيرة تستمد البروليتاريا في نظر ماركس هيمنتها على القوى الاجتماعية للثورة في اوروبا . وبالمقابل فان نصاعة الارياف وبراءتها من كل شوائب التلوث الاستعماري هي التي تعطي في نظر فانون الطبقة الفلاحية الهيمنة على سائر القوى الاجتماعية في المجتمعات الكولونيالية . ان المدن في اوروبا ، وفي نظر ماركس ، هي المراكز الكبرى للانتاج . اما في المجتمعات

المستعمَرة ، وفي نظر فانون، فانها المراكز الكبرى للتلويث الاستعماري. وفانون اذ يؤكد ان الامة المستعمَرة انما «من الارياف تستمد الحياة والحركة» ، وإذ يدعو الثوريين الى «الفرار من المدن فرارهم من الطاعون» (١) ، فليس ذلك باسم اشتراكية زراعية طوباوية ورجعية ، وهو لا يهجو المدن لانها مدن ، وانما لانها في المجتمعات الكولونيالية ظاهرات اصطناعية ، هجينة ، شوهاء ، ولانها تجمع طرفي العالم الكولونيالي في وحدة كاذبة ، ولأن وجودها بالذات وما يترتب عليه من «تعايش» بين هذين الطرفين هو بمثابة تشويه للاصالة القومية وتمييع للوعي الثوري وتفتيت لارادة الكفاح ضد المحتلين .

والتأثير الانحلالي للمدن الكولونيالية يتجلى على سبيل المثال في المواقف الانتهازية لبروليتاريا المستعمرات من مسألة الكفاح المسلح ضد المحتل . ورأي فانون في هذه الطبقة يكاد يتطابق حرفيا مع رأي لينين في القشرة السطحية من البروليتاريا المتروبولية : ففي كلتا الحالتين نجد انفسنا امام ظاهرة من ظاهرات تميع الوعي الثوري بنتيجة مشاركة الاستعمار فتات مائدته الكولونيالية. يقول فانون : «ان البروليتاريا من الشعب المستعمَر نواة يفيض عليها النظام الاستعماري اكثر ما يفيض من خير . ان البروليتاريا الناشئة التي تعيش في المدن هي طبقة تتمتع نسبيا ببعض الامتيازات . واذا كانت البروليتاريا في البلاد الرأسمالية لا تخشى ان تخسر شيئا لانها الطبقة التي يمكن ان تربح بالثورة كل شيء ، فان البروليتاريا في البلاد المستعمَرة يمكن ان تخسر ، فهي من الشعب المستعمَر ذلك الجزء الضروري الذي لا يستغنى عنه لحسن سير الآلة الاستعمارية : سائقو حافلات الترام وسيارات الاجرة ، عمال المناجم ، عمال الموانىء ، التراجمة ، المرضون ، الخ . وهذه العناصر ، بما لها من امتيازات في ظل النظام الاستعماري ، يمكن ان تعد الجزء البورجوازي من الشعب المستعمَر » . ولا غرو ان وجدنا فانون يتحدث عن «صمت المدن» بنفس المعنى الذي تحدث به البلاشفة عن «صمت الغرب» : ففي كلتا الحالتين تمارس الرشوة الاستعمارية تأثيرا انحلاليا على تطور الصيرورة الثورية .

وبقدر ما ان هذه السيرورة سيرورة عنف في البلدان المستعمَرة ، تخرج البروليتاريا من معسكر قوى الثورة باعتبار انها طبقة مسالمة نسبيا بحكم من انها طبقة مدينية . فمطالبها الاقتصادية لا تتطابق مع المطالب الثورية للامة المستعمَرة ، لانها مطالب اصلاحية قابلة للتلبية في ظل النظام الاستعماري .

---

١ ـ الى مثل هذا الرأي يذهب ريجيس دوبريه ، وهو ماركسي ـ لينيني ناجز ، عندما يقول بأن « المدن هي مقبرة الثوريين » او « ان المدينة تجعل البروليتاري بورجوازيا ، والريف يجعل البورجوازي بروليتاريا » .

وبالمقابل ، فان العنف المطلق العاري المحض هو الوسيلة الوحيدة لتلبية مطالب الفلاحين الذين ليس عندهم من حل وسط ولا مجال لديهم لتسوية اذ ان المسألة عندهم هي مسألة جلاء عن الارض والجلاء عن الارض هو محو الاستعمار لا اكثر ولا أقل .

وليس من قبيل الصدفة ان يكون فانون قد اعتبر البروليتاريا الرثة او البروليتاريا الدون ، التي طالما هاجمها ماركس باعتبارها فئة من «الأوباش» يشتريها الرأسماليون لتحطيم الاضرابات العمالية او لتنفيذ المؤامرات القذرة ، الطبقة الثورية الوحيدة في المدن . فالقوادون والاوباش والعاطلون والمجرمون الذين يلاحقهم الحق العام هم اول من يلبي نداء الثورة المسلحة وينخرط في كفاح التحرير بمجرد ان تقرر قيادة الثورة نقل الحرب الى مواقع العدو ، الى «المدن الهادئة الباذخة» .

وبديهي ان فانون يدرك اهمية وعمق الانقلاب الاخلاقي الذي تتيحه الثورة المسلحة لهؤلاء الخارجين على المجتمع الذين يستردون اعتبارهم في نظر انفسهم وفي نظر التاريخ ويجدون سبيلهم الى الاندماج بمجموع الامة عن طريق القنبلة والمسدس . ولكن المسألة ليست مسألة خلاص فردي كما قد يتبادر الى الذهن. وبالرغم من الاهمية السيكولوجية لظاهرة استرداد التوازن والاعتبار ، فان ما يفسر الانتماء المبكر للبروليتاريا الدون الى الثورة هو قبل كل شيء وضعها الاجتماعي كطبقة تعيش عند تخوم المدن في اكواخ القصدير ، كطبقة مبتورة الجذور رفضت المدن تمثلها ولفظتها وضن عليها النظام الاستعماري بعظمة تقضمها . والحقيقة ان اكواخ القصدير التي تتجمع حول المدن هي رمز لتصميم الارياف على غزو قلعة العدو المحتل ذات يوم . ولان الجماهير التي تسكن أكواخ القصدير هي قبل كل شيء جماهير فلاحية أجبرها تزايد السكان وأجبرها تجريدها من أملاكها من قبل الاستعمار على النزوح عن ارض الآباء والاجداد ، لذا فان الثورة التي تكون قد انطلقت في الارياف لن تدخل المدن الا عن طريق هذا الجزء من سكان المدن المحروم من كل امتيازات المدن .

والواقع ان محور الصراع الاجتماعي ليس في نظر فانون الصراع بين طبقة وطبقة كما تعلم الماركسية ، وانما هو الصراع بين المدينة والريف . وان لم يكن هناك محيد من استخدام مصطلحات الصراع الطبقي ، فلنقل ان الطبقتين الاجتماعيتين الاساسيتين المتناحرتين في نظر فانون هما سكان المدن وسكان الارياف . سكان المدن الذين ينزعون الى المسالمة والتسوية لتمتعهم ببعض منافع النظام الاستعماري ، وسكان الارياف الذين ينزعون الى العنف المطلق لانهم عرفوا وعاشوا النظام الاستعماري (ممثلا بالدركي وبالحملات التأديبية) عنفا مطلقا والذين لا مجال عندهم لاي تسوية لان الاستعمار قد جردهم من كل شيء ، وقبل كل شيء من اراضيهم . وهذا التعارض بين المدينة والريف ليس محض تعارض اقتصادي ، وانما هو تعارض وجود ، وأثره لا يتوقف عند سطح الحياة الاجتماعية بل يمتد الى أعمق أعماق اللاشعور الجمعي في العالم الكولونيالي . ويكفينا ان

نذكر مثالا واحدا : طفولة ابناء المستعمرات . فابن الريف يتعلم أبجدية الثـورة وهو لما يزل في حضن أمه التي تدندن في أذنه ساعة النوم «الاغاني التي رافقت المقاتلين الذين قاوموا الغزو» . وفي حين ان الاحلام التي تملأ أخيلة اطفال المدن هي أحلام مترفة كالنجاح في الامتحانات ، فان الاحلام التي تداعب أخيلة الصغار في القرى هي احلام عنف ، «أحلام تشبـّه بهذا المقاتل او ذاك من المقاتلين الذين ما تزال ميتتهم البطولية تستدر من المآقي دموعا غزارا» .

هجاء البورجوازية الوطنية

لا تتجلى ضراوة هجاء فانون للمدن في مجال كما تتجلى في مجال هجائه لما اصطلح على تسميته بالبورجوازية الوطنية . فالبورجوازية «الوطنية» ، بعكس ما يوحي به اسمها ، هي الصديد الذي ينزّه القرح الاستعماري والقذَر الذي تفرزه مراحيضه والروث المتراكم في اصطبلاته .

ان البورجوازية الوطنية هي نخبة قاذورات المدن وصفوة نفاياتها في العالم الكولونيالي ، وهي اذ تتركز في المدن فانها تركز في ذاتها كل الصفات المميزة للهجين ، النغل ، الخلاسي ، من الظاهرات التاريخية والتركيبات الاجتماعية .

ان البورجوازية الوطنية ليست ظاهرة طبيعية وأصيلة من ظاهرات تطـور المجتمعات المستعمَرة . فلو انها كانت وطنية حقا ولو انها كانت أصيلة حقا ، فلن يكون لها من رسالة تاريخية في هذه الحال غير «ان تنكر نفسها كبورجوازية ، ان تنكر نفسها كأداة للرأسمال ، وان تضع نفسها وضعا كاملا في خدمة الرأسمال الثوري الذي هو الشعب» . والحقيقة ان البورجوازية الوطنية مستحيلة كمقولة تاريخية في العالم الكولونيالي . فهي إما ان تكون وطنية ، وفي هذه الحال من واجبها ان تكف عن ان تكون بورجوازية ، وإما ان تكون بورجوازية وفي هذه الحال تكف بالضرورة عن ان تكون وطنية . ولقد اختارت البورجوازية في كل مكان من العالم الكولونيالي ان تكون بورجوازية قبل ان تكون وطنية ، وأبت ان تسير في الطريق البطولي والخصب ، طريق انكار الذات والتنكر للمهمة التاريخية الموكولة تقليديا بكل بورجوازية ، وتنكبت عن مدرسة الشعب لتضع نفسها في مدرسة الرأسمال . وبكلمة واحدة «سارت راضية النفس مطمئنة البال في طريق فظيع، مناقض لمصلحة الامة ، هو الطريق الذي تسلكه بورجوازية تقليدية ، بورجوازية بورجوازية ، بورجوازية ارتضت في غباء وحمق وحطة الا تكون الا بورجوازية» .

والواقع ان البورجوازية الوطنية في العالم الكولونيالي ليست مستحيلة الوجود بوصفها بورجوازية «وطنية» فحسب ، بل هي مستحيلة الوجود ايضا بوصفها «بورجوازية» . فاذا كان التعريف الكلاسيكي للبورجوازية هو انها الطبقة التي تراكم الرأسمال ، فان البورجوازية الوطنية عاجزة حتى عن ان تكون بورجوازية لانها عاجزة عن مراكمة الرأسمال في ظل النظام الاستعماري .

«ان البورجوازية لا يخلقها فكر ولا ذوق ولا آداب ، حتى ولا آمال ، وانما البورجوازية ثمرة مباشرة لوقائع اقتصادية معينة» . والحال ان الوقائع الاقتصادية العينية في العالم الكولونيالي هي بمثابة شهادة قاطعة جازمة على ان الوجود البورجوازي الوطني مستحيل . فالواقع الاقتصادي في المستعمرات هو واقع بورجوازي **اجنبي** . والبورجوازية المستوطنة في البلد المستعمَر هي امتداد للبورجوازية الاجنبية الغربية ، وفرع لها ، ومنها تستمد مشروعيتها وقوتها واستقرارها . وكل تراكم حقيقي للراسمال في المستعمرات هو مباشرة برسم البورجوازية المتروبولية ولصالحها .

اما البورجوازية الوطنية فانها لا تملك أيا من الصفات التي تؤهلها لان تلعب دورها التاريخي كبورجوازية حقيقية ، ولا تملك من القوة الاقتصادية والتقنية ما يكفي لبناء مجتمع بورجوازي ولخلق شروط نمو طبقة عاملة كبيرة ولتصنيع الزراعة ولقيام ثقافة قومية أصيلة . والحق ان البورجوازية الوطنية في البلدان المستعمَرة ليست بورجوازية الا بالفكر ، فقوتها الاقتصادية تكاد تعادل صفرا ، والدور الوحيد الذي تقوم به بلا غضاضة هو دور وكيل للبورجوازية المتروبولية، ونشاطها محصور في قطاع الوساطة والتجارة والمهن الحرة ، ونفسيتها هي نفسية رجال اعمال ، لا رواد صناعة .

ان البورجوازية الوطنية في البلدان المستعمَرة والمتخلفة «ليست متجهة نحو الانتاج ، والابتكار ، والبناء ، والعمل . وانما هي تنفق نشاطها كله في اعمال من نوع الوساطة» . وفي كثير من الاحيان ، لا تتعدى وظيفتها «التاريخية» ان تكون «قوادة» تعمل في خدمة البورجوازية المتروبولية . وهكذا نراها «تنشىء مراكز للراحة والاستجمام واللذة يتقاطر عليها رجال البورجوازية الغربية . وهي تطلق على هذا النشاط اسم السياحة ، وتعده أشبه بصناعة وطنية» . وأميركا اللاتينية تقدم مثالا صارخا على دور «القوادة» الذي تؤديه البورجوازية الوطنية باسم تنمية الدخل القومي : «ان ملاهي هافانا ومكسيكو وشواطىء ريو دي جانيرو ، والبرازيليات الصغيرات ، والمكسيكيات الصغيرات ، وخلاسيات السنة الثالثة عشرة من العمر ، وآكابولكو ، وكوبا كابانا ، كل ذلك انما هو امارات الفساد الاخلاقي الذي تتردى فيه البورجوازية الوطنية ... التي تنظم بلادها ماخورا لاوروبا» .

وبالرغم من ضعف البورجوازية الوطنية وهزالها وتخلفها ورخصها وعجزها عن تطوير الاقتصاد وعن تحقيق حد ادنى من الرخاء للشعب وعن انشاء أيديولوجيا جديدة وعن القيام بأعمال تتجلى فيها روح الابتكار ، فانك تراها تتشبه بالبورجوازية الغربية ، تلك البورجوازية النشيطة ، الفعالة ، المتنورة، العلمانية، التي أدت دورا مرموقا في التاريخ ، و«تتذكر ما قراته في الكتب المدرسية الغربية ، فاذا هي تستحيل شيئا فشيئا لا الى نسخة عن اوروبا ، بل الى كاريكاتور لاوروبا» . وهنا بالضبط تكمن مفارقة البورجوازية الوطنية : فهي تتصور ان من حقها ان تتمتع بنفس الامتيازات التي تتمتع بها البورجوازية

الغربية وأن تعيش حياة التمتع والتلذذ التي تعيشها هذه الاخيرة ، من غير ان تؤدي الدور الذي أدته في ريادة عوالم جديدة واستكشاف آفاق جديدة . وهكذا نراها تنفق الاموال الطائلة التي تجنيها من ارض الوطن في اقتناء السيارات الاميركية الفخمة والفيلات الباذخة وفي قضاء الاجازات على شواطىء الريفيرا والعطل الاسبوعية في الملاهي المتوهجة بأضواء النيون .

وليس من قبيل الصدفة ان تنغمس البورجوازية الوطنية في حمأة الملذات وأن تبذر حصيلة مجهود الامة في بذخ الليالي الحمراء وفي شراء السندات المالية من اوروبا وفي ايداع أرباحها في المصارف الاجنبية . فالبورجوازية الوطنية تعلم ان حياتها قصيرة وان لعبتها خاسرة على المدى الطويل . ولهذا فهي تريد ان تستفيد من وضعها ، الذي تدرك انه لن يدوم الى غير نهاية ، الى اقصى حد ممكن من الاستفادة . وهذه السياسة اليائسة او الانتحارية هي علامة صادقة من علامات الهرم المبكر . ولئن كانت البورجوازية الوطنية الفتية تتشبه بالبورجوازية الغربية المتقدمة في السن وتعيش في اول عهدها الحياة التي تعيشها البورجوازية الغربية في آخر عهدها ، فليس ذلك لانها «تغذ السير وتحرق المراحل ، وانما لانها في حقيقة الامر تبدأ من النهاية . فهي قد دلفت الى الشيخوخة المتهدمة قبل ان تعرف ما يعرفه عهد الصبا والمراهقة من نزق وتهور واندفاع» .

وشأن البورجوازية الوطنية قبل الاستقلال ليس بأفضل من شأنها بعد الاستقلال . فكل طموحها بعد الاستقلال ان تحل محل البورجوازية الاستعمارية وأن ترث امتيازاتها . وبالاساس ، فان حظها «من الحلول محل المضطهد الاستعماري يكون على قدر ما أتيح لها من خلوة مع السلطة الاستعمارية القديمة» .

وأول ما تفعله البورجوازية الوطنية بعد الاستقلال هو ان تحول نفسها الى بورجوازية موظفين . ورغبتها الجامحة في احتكار وظائف الادارة الوطنية الجديدة تدفع بها الى رفع شعار التأميم : تأميم الوظائف وتأميم الاقتصاد والقطاع التجاري . ولكن التأميم عند البورجوازية الوطنية لا يعني وضع مجموع الاقتصاد في خدمة الامة ولا خلق الشروط الضرورية لنهضة اقتصادية وصناعية حقيقية، وانما يعني فقط نقل الوظائف الى البورجوازية الوطنية . وهكذا فان التأميم لا يؤدي ، ومهما بدا ذلك غريبا ، الى اي تبدل جوهري في الواقع الاقتصادي للبلدان المستقلة حديثا .

وكل ما هنالك ان البورجوازية الوطنية وضعت يدها على مكاتب الاعمال وعلى بيوتات التجارة ، وبات واجبا على الشركات الاجنبية ، حتى تستمر في استغلالها لثروات البلاد ، ان تمر بوساطة البورجوازية الوطنية . وبذلك تستمر البورجوازية الوطنية بعد الاستقلال كما كانت الحال قبله في أداء مهمتها التاريخية كوسيط وكوكيل اعمال للبورجوازية الاستعمارية . وهذا ما يسهل على الرأسمالية الامبريالية المضطرة الى التخفي والتنكر ان تضع على وجهها قناع الاستعمار الجديد .

وبالفعل ، ان ميدان الوساطة هو الميدان المأثور لدى البورجوازية الوطنية ، وهو الميدان الذي تستطيع ان تبرز فيه براعتها في التجارة وفي خطف الوكالات . والحقيقة ان الفعاليات الوساطية هي الفعاليات الاقتصادية الوحيدة التي تقدر عليها الامكانيات والطاقات المحدودة للبورجوازية الوطنية المتخلفة والهزيلة . ذلك ان الفعاليات الوساطية لا تتطلب رساميل ، وانما مهارة في عقد الصفقات . ثم ان الفعاليات الوساطية هي الفعاليات الاقتصادية الوحيدة التي يسمح بها الاستعمار الجديد للبلدان المتمتعة حديثا بنعمة او لعنة الاستقلال السياسي الشكلي . ولا غرو ان وجدنا البورجوازية «الوطنية» على تفاهم عميق مع الاستعمار الجديد : فهي تعرف حدودها وهو يعرف مصلحته .

بيد ان الدور الذي تلعبه البورجوازية الوطنية في الحياة الاقتصادية ليس ، على قذارته ، أخطر أدوارها ولا أجدرها بالازدراء والهجاء . فالصفة اللاوطنية للبورجوازية الوطنية لا تتكشف في اي مضمار كما في مضمار نشاطها (او كسلها) السياسي والقومي .

ان يقظة الامة في العصور الحديثة ترتبط في كل مكان (من اوروبا) بيقظة البورجوازية وصعودها التاريخي الذي لا يقهر . والشعور القومي الحديث ، اي الشعور بالانتماء الى الامة لا الى الاسرة او القبيلة او المقاطعة او الطائفة الدينية ، هو الشعور الذي رافق في كل مكان سعي البورجوازية الحثيث الى تأسيس دول قومية حديثة على أنقاض المجتمعات الاقطاعية ومخلفات القرون الوسطى . اما في المجتمعات الكولونيالية ، فان الامر يكاد يكون على العكس من ذلك . ففي هذه المجتمعات يعاني الوعي القومي من ضعف يكاد يكون كلاسيكيا . وكثيرا ما تنتقل البلدان المستقلة حديثا من «حالة الامة الى حالة القبيلة ، ومن مستوى الدولة الى مستوى العشيرة» . وهذه الانتكاسات هي نتيجة تاريخية لعجز البورجوازية وتخلفها وكسلها . والواقع انه لا بد هنا من التمييز بين الشعور الوطني والشعور القومي . ففي المجتمعات المستعمَرة، وبنتيجة الاستعمار بالذات، يمكن للشعور الوطني ان ينمو ويتطور بسرعة . ولكن هذا الشعور لا ينضج بالسهولة نفسها والسرعة عينها الى شعور قومي . وفي كفاح التحرير الوطني يمكن ان تلعب هذه القبيلة او تلك دورا حاسما . ولكنها تظل مع ذلك «قبيلة» ، جماعة تنتمي الى نفسها اكثر مما تنتمي الى الامة . واذا ما انتقل المجتمع الكولونيالي من مرحلة الكفاح المسلح ضد الاستعمار الى مرحلة بناء الدولة القومية ، انكفأت تلك القبيلة على نفسها ، وتبخر شعورها الوطني ، وطرحت مطالبها الذاتية بالتعارض مع مجمل مصالح الامة . وقد لوحظ بالفعل ، في الكثير من البلدان التي نالت استقلالها حديثا وبخاصة تلك التي نالته من غير ان تمر بمرحلة جذرية من الكفاح المسلح ، انتكاس نحو الاوضاع القبلية وانتصار للانقسامات العنصرية . وهذه الظاهرة لا يمكن تفسيرها الا بالسلوك الرخيص للبورجوازية الوطنية وبغموض مواقفها العقائدية وبعجزها عن تمثل الافكار الكبيرة وعن تنوير مجموع الشعب . وما دام الشعار الوحيد الذي تنادي به البورجوازية

الوطنية هو الحلول محل الاجانب والاستيلاء على امتيازاتهم ، فلا غرو ان كشرت المشاعر القبلية عن أنيابها ، وحاولت هي الاخرى ان تأخذ نصيبها من وليمة الاستقلال مطالبة بابعاد كل الاجانب عنها : والاجانب في هذه الحال ليسوا هم المستعمِرين سابقا وانما ابناء القبائل الاخرى او العروق الاخرى .

ان الحزازات الاقليمية والعنصرية والدينية والقبلية، التي عجزت البورجوازية الوطنية عن صهرها في بوتقة الوحدة القومية ، تأخذ غداة الاستقلال شكلا انفجاريا وتسفر القناع عن نفسها في شكل نزعات انفصالية ، وفي احسن الاحوال في شكل نزعات فيدرالية . والواقع ان الاستعمار يكون قد مهد لهذه المرحلة ، الضرورية له بعد ان يكون قد لبس قناع الاستعمار الجديد ، خير تمهيد . فهو لم يعمل ، في مرحلة ما قبل الاستقلال ، على استثمار مجموع البلاد ، وانما اكتفى باكتشاف موارد طبيعية معينة في مناطق معينة ، وبذلك اتاح لبعض المناطق شيئا من الثراء وأبقى سائر المستعمَرة في حالة من البؤس المدقع . فاذا ما جاءت مرحلة ما بعد الاستقلال ، تمسكت المناطق المحظوظة بامتيازاتها وأبت ان يجمعها والمناطق المحرومة مصير واحد وأعلنت نفسها دولة مستقلة او طالبت في احسن الاحوال بتنظيم فيدرالي يضمن لها تفوقها وامتيازاتها.

ولو ان البورجوازية الوطنية كانت قادرة على بناء اقتصاد قومي متكامل يتيح نموا متساويا لكل عضوية الامة ، لكان امكن التغلب على النتائج السلبية لسياسة الاستعمار في التمييز الاقتصادي الاقليمي . ولكن البورجوازية الوطنية لا تعجز عن بناء مثل ذلك الاقتصاد القومي المتكامل فحسب ، بل ان وجودها بالذات هو أستمرار لسياسة التمييز تلك . ذلك ان البورجوازية الوطنية لم تتطور ولم تنم الا في المناطق التي خصها الاستعمار باهتمامه وعنايته . ولقد ازدهرت حيثما ازدهرت مشاريع الاستثمار الاستعمارية . وبمقدار ما ان البورجوازية الوطنية هي وريثة الاستعمار ، فانها لن تألو جهدا في تعميق الهوة بين المناطق المحظوظة والمناطق المحرومة لان استمرارها كطبقة محظوظة رهن باستمرار تلك الهوة .

والبورجوازية الوطنية انما تتركز في المدن قبل كل شيء . وسياسة المناطق المحظوظة والمحرومة هي في الدرجة الاولى سياسة تمييز المدن عن الارياف . والتضخم المرضي للمدن في المستعمرات وفي البلدان المتخلفة هو أسطع برهان على خيانة البورجوازية الوطنية لوحدة الامة ، لان هذا التضخم يؤدي الى بقاء جل الامة خارج الامة ، خارج دائرة نشاط الامة . وهذا على صعيد السياسة كما على صعيد الاقتصاد . ذلك ان ما يميز النشاط السياسي للبورجوازية الوطنية ، والموسوم بميسم الانتهازية والتسوية والمصالحة والارتماء في أحضان الاستعمار الجديد ، هو انحصاره وتركزه في المدن . والاحزاب السياسية الوطنية التي تنشئها البورجوازية هي احزاب مدينية قاعدة وقيادة ، ومهمتها على صعيد السياسة هي كمهمة البورجوازية الوطنية على صعيد الاقتصاد : القيام بدور الوساطة مع الاستعمار في مرحلة ما قبل الاستقلال ، ومع الاستعمار الجديد

في مرحلة ما بعد الاستقلال . وبقدر ما ان الحزب السياسي البورجوازي الوطني هو حزب مديني ، فانه في نظر فانون حزب مستورد . ذلك ان البورجوازية الوطنية التي ضيعت نفسها تضييعا عجيبا في محاولتها تقليد البورجوازية المتروبولية في كل شيء لا تتوانى عن تقليدها في مضمار العمل السياسي ايضا ، فتنشىء احزابا انتخابية ، مسالمة مشروعة ، في مجتمعات لا تعني فيها المشروعية غير الارتضاء بالنظام الاستعماري القائم . وليست الخطورة في ذلك التقليد وحده ، وانما ايضا وقبل كل شيء في الدور الذي يلعبه الحزب السياسي البورجوازي الوطني . فهذا الحزب ، بحكم من صفته المدينية ، هو حزب اللاعنف ، ووجوده هو بمثابة نفي دائم لفكرة الثورة المسلحة واستبدال لحرب التحرير بدبلوماسية التحرير . واللاعنف هو بالتحديد «محاولة لتسوية المسألة الاستعمارية على مائدة خضراء قبل التورط في اي حركة لا سبيل لتراجعها ، قبل اهراق الدم ، قبل القيام بأي عمل مؤسف» . والواقع انه ليس لهذا الحزب «الوطني» من دور ، ساعة نشوب الكفاح المسلح الوطني الحقيقي ، غير ان يهرع نحو المعمرين قائلا لهم باسم البورجوازية الوطنية : «اننا ما زلنا قادرين على ان نوقف المذبحة ، فالجماهير ما تزال تثق بنا ، فأسرعوا اذا كنتم لا تريدون ان تعرضوا للمخاطر كل شيء ... ان الامر حقا خطير ، وليس يدري المرء كيف يمكن ان ينتهي ... لا بد من ايجاد حل ، لا بد من ايجاد تسوية ... اعطونا مزيدا من السلطة !» . وفي الوقت نفسه يصدر حزب البورجوازية الوطنية بيانا يعلن فيه معارضته للعنف ويدين نسف الجسور وتخريب المزارع وسائر اعمال العنف ويصرخ بصوت عال انه لا شأن له بمدبريها ، لا شأن له بأولئك «الماو الماو»، لا شأن له بأولئك «الارهابيين» ، لا شأن له بأولئك «الذباحين» . واذا ما شعر حزب البورجوازية الوطنية ان الامر خطير حقا وان الزمام قد افلت من يده وان الثورة المسلحة باتت حقيقة واقعة ، أسرع يعرض من جديد وساطته بين الطرفين. وهذا معناه انه «لما كان المعمرون لا يستطيعون ان يبحثوا الامر مع اولئك الماو الماو، فهو يتطوع للقيام بالمفاوضات» . وهكذا «نرى الناس الذين كانوا في مؤخرة الكفاح الوطني ، الناس الذين لم يشتركوا يوما في النضال ، يصبحون بنوع من البهلوانية طليعة المفاوضين في سبيل ايجاد تسوية ، لا لشيء الا لانهم حرصوا على ان تبقى الصلة قائمة بينهم وبين الاستعمار» .

وحال حزب البورجوازية الوطنية بعد الاستقلال ليس بأفضل من حاله قبله. فما ان تؤتي المفاوضات ثمارها ، حتى يصبح همه الاول تثبيت المكاسب والامتيازات التي آثر نفسه بها بعد ان أفلح في سرقة ثمار الكفاح الشعبي المسلح. وأول ما يفعله هو ان يعلن ان من الضروري ، نظرا الى تخلف البلاد والجماهير ، ان تقاد الامور بسلطة قوية بل دكتاتورية . والحقيقة ان البورجوازية الوطنية «الضعيفة اقتصاديا والعاجزة عن اقامة علاقات اجتماعية متسقة قائمة على مبدأ سيطرتها كطبقة ، تختار الحل الذي يتراءى لها انه اسهل الحلول ، أعني نظام الحزب الواحد» . وكما تنسحب البورجوازية الوطنية من مرحلة البناء لتكرس

نفسها للفعاليات الوساطية ولتغوص في حمأة الملذات ، كذلك هي على الصعيد الدستوري تقفز فوق المرحلة البرلمانية وتختار دكتاتورية من النوع الفاشي . وهذه الدكتاتورية هي الشكل الوحيد الممكن لحكم البورجوازية الوطنية المهلهلة في البلدان التي ما تزال بالرغم من استقلالها شبه مستعمَرة . ففي هذه البلدان التي يتاخم فيها اكبر ثراء أبأس فقر ، يكون الجيش والشرطة اعمدة النظام القائم، وتكون مهمة الدولة بث القلق في نفس المواطن بدلا من ان تبث فيها الاطمئنان . اما الحزب الوطني الذي يستلم مقاليد الحكم فان دماء الحياة الشاحبة اصلا تنسحب من عروقه ، ويطفو على سطح الحياة السياسية كجثة هامدة ، ولا يعود يمثل ذلك الذهاب والاياب من القاعدة الى القمة ومن القمة الى القاعدة الذي هو ضمانة ديموقراطيته ، ويتحول الى مصلحة مخابرات مهمته التجسس على الجماهير ومراقبتها «لا ليتأكد من انها تشارك في شؤون الامة حقا ، بل ليذكرها بأن السلطة تنتظر منها الطاعة والنظام والخضوع» .

وضمانا لاستقرار العهد القائم وضمانا لاستمرار سيطرتها ، تكتشف البورجوازية الوطنية ضرورة تتويج دكتاتوريتها بزعيم «شعبي» يأخذ على عاتقه تخدير الشعب وتنويمه وطرده من التاريخ او منعه من دخول التاريخ ، وبكلمة واحدة ان يردّه طفلا بدلا من ان يجعله راشدا .

والزعيم هو فكرة بورجوازية وطنية «أصيلة» . ففي البلدان المتطورة تستطيع البورجوازية ان تفرض هيبتها ودكتاتوريتها بفعل قوتها الاقتصادية ، وكذلك بفعل قوة الجذب التي تمارسها افكارها وأيديولوجيتها . أما في البلدان المتخلفة فان البورجوازية الوطنية الهزيلة اقتصاديا والفقيرة أيديولوجياً تخترع فكرة الزعيم لتحتمي بظله وتغتني تحت حمايته . وضرورة الزعيم للبورجوازية الوطنية الحاكمة هي كضرورة الشرطي : فما دامت تعد الشعب قوة عمياء يجب ترويضها وقطيعا بليدا يجب ان يساق سوقا ، فان الزعيم يؤدي لها عن طريق التضليل والديماغوجية الخدمة التي يؤديها لها الشرطي عن طريق العنف والهراوة .

خلاصة القول ان المهمة التاريخية الوحيدة للبورجوازية الوطنية هي ان تحول البلاد الى «مزرعة» وأن تعيد الشعب الى كهوفه بدلا من ان تحقق الازدهار له . وما كان يفترض فيه انه حكمها القومي لا يعدو في حقيقته ان يكون حكمها القبلي ، ودكتاتوريتها المزعوم انها بورجوازية هي في الواقع دكتاتورية قبلية ، صريحة ومكشوفة في بعض الاحيان .

وما حزبها الحاكم الا قبيلة صارت حزبا . وما زعيم هذا الحزب الا زعيم قبيلة صار رئيس دولة . وما البلاد قاطبة الا مزرعة عائلية لكل اعضاء القبيلة البورجوازية . ولا غرو بعد هذا ان كشرت النزعات الاقليمية والانفصالية عن أنيابها . فالسلطة القبلية البورجوازية هي دعوة ماجنة الى الانحطاط بالامة التي حققت بعد لأي وحدتها القومية الى مستوى حشد أشوه من قبائل متنافرة متشاحنة .

هذه هي «الرسالة التاريخية» الوحيدة للبورجوازية الوطنية في البلدان

المتخلفة . وفحوى هذه الرسالة لا تترك مجالا لخيار : ان المرحلة البورجوازية مستحيلة في البلدان المتخلفة ، ويجب ان تكون مستحيلة اذا كانت هذه البلدان لا تريد ان تبقى متخلفة . وفانون بخلاف ماركس ، وبخلاف لينين ، وحتى بخلاف ماوتسي تونغ ، يسقط من حسابه نهائيا مقولة الثورة الديموقراطية البورجوازية : ان الثورة اما ان تكون من الان وفورا ثورة اشتراكية ، وإلا فلن تكون ثورة ابدا . وقد لا يكون التحرر من الاستعمار غير مرحلة ديموقراطية في نظر الماركسية ، ولكن حركة التحرر الوطني يجب ان تفضي مباشرة في نظر فانون الى الثورة الاشتراكية ، وإلا فان ما يسمى بالمرحلة الديموقراطية لن يكون الا تمهيدا لسيطرة الاستعمار والبورجوازية الوطنية . واذا كانت حركة التحرر الوطني معنية بألا يعاود الاستعمار دخوله من النوافذ بعد طرده من الباب ، فليس عليها الا ان تغلق اسطبل البورجوازية الوطنية الان وفورا والى الابد .

خلط بين البورجوازية الكومبرادورية
وبين البورجوازية الوطنية .

من ماركس الى ماركوز

لقد طالت بنا الرحلة «الآسيوية» للماركسية ، وآن الاوان ـ ونحن عند مشارف خاتمة مطافنا ـ لكي نقفل راجعين من حيث بدأنا لنرى الى المصائر التاريخية للنظرية الماركسية في البلدان التي تمتلك القوة الكلاسيكية للثورة ، اي البروليتاريا الصناعية التي جعل منها ماركس عامل التقدم التاريخي .

والواقعة الاساسية التي نصطدم بها هنا هي تكذيب التاريخ للنبوءات الماركسية الكلاسيكية بصدد ريادة البلدان الصناعية المتقدمة للثورة الاشتراكية، والطريق المسدود الذي انتهت اليه هذه الثورة في جميع الاقطار التي كان يفترض فيها ان تكون السباقة اليها .

لماذا ؟

لقد اجاب ماركس نفسه كما رأينا على جزء من هذا السؤال عندما عزا مع انجلز «موت الاشتراكية الانكليزية» الى الوضع الاحتكاري الممتاز الذي كانت تحتله بريطانيا في السوق العالمية .

وأجاب عليه لينين جزئيا ايضا عندما كشف النقاب عن تكوّن قشرة ارستقراطية على سطح الطبقة العاملة ، قشرة اشترتها الرأسمالية الاحتكارية بفضل الارباح الطائلة المجتناة من المستعمرات واستخدمتها في تمييع وتثليم وعي البروليتاريا الطبقي .

ولكن ماركس وانجلز ولينين على حد سواء اعتبروا «الانتهازية العمالية» ظاهرة عارضة ومؤقتة في حياة الطبقة العاملة الاوروبية ، وافترضوا ان تصفية الامتيازات الاحتكارية وتطور الطليعة الثورية كفيلان بالحفاظ على نقاء الوعي البروليتاري الطبقي الثوري من كل أدران الانتهازية والرشوة والتميع وباعادة

دماء الحياة الى عروق الثورة البروليتارية المتيبسة مؤقتا .

بيد ان ما اعتبره كلاسيكيو الماركسية عارضا مؤقتا اخذ طابع الثبات والدوام، وما كان في النظرية اللينينية مجرد قشرة صار نواة البنية البروليتارية الاوروبية ، ولا يستطيع احد اليوم ـ اللهم الا اذا كان دوغمائيا مكابرا ـ ان يزعم ان الثورة الاشتراكية مطروحة فعلا على جدول اعمال التاريخ في بلدان الغرب المتقدم صناعيا . وازاء هذه الواقعة التي لا سبيل الى المماراة فيها ، قد يميل بعضهم الى اصدار قرار بإدانة الماركسية واعلان موتها النهائي . ولا ريب في انه في وسعنا نحن ايضا ان نقول ان التاريخ صفع ماركس وكذّب «نبوءاته» ، ولكن هذا بشرط ألا ننسى ان ماركس لم يكن نبيا .

وبالفعل ، ان ماركس لم يكن صاحب رؤيا ، ونظريته ليست يوتوبيا جديدة تنضاف الى تراث الانسانية المتراكم من المدن الفاضلة ، وانما كانت محصلة تحليله العميق لحركة الواقع التاريخي ورصده الشمولي لاتجاهات تطوره . ولقد رأينا في الفصل الاول من هذا الكتاب كيف أنكر ماركس ان تكون الشيوعية مثلا اعلى ينبغي ان يتعدل الواقع تبعا له وحددها بأنها الحركة الواقعية التي تلغي الحالة الراهنة وتنبع منها . ولئن أناط بالبروليتاريا الرسالة التاريخية التي اناطها بها ، فليس ذلك لانها الطبقة «المختارة» التي خصتها العناية الالهية بقدر تحرير الانسانية وافتدائها ، وانما لانها فعلا وواقعا الطبقة المؤهلة تاريخيا لأداء تلك الرسالة . ولقد شرط ماركس ثورية البروليتاريا بشرطين اثنين : شمولية عذاباتها ووضعها في الانتاج . فالبروليتاريا اولا عامل الثورة التاريخية لانها الطبقة التي تعيل المجتمع بمجمله من غير ان تكون هي نفسها مالكة لاي شيء باستثناء عذاباتها . والبروليتاريا ثانيا عامل الثورة التاريخية لانها النتاج الموضوعي لثورة الصناعة الكبرى والتكنولوجيا . وبديهي انه من اللحظة التي تكف فيها البروليتاريا عن ان تكون ذلك التجسيد للعذابات الشاملة وذلك النتاج الموضوعي للثورة التكنولوجية ، فانها تكف في الوقت نفسه عن ان تكون عامل الثورة الاجتماعية . واذا لم يكن هناك مناص من الحديث عن نبوءات الماركسية ، فلنقل بأن الماركسية «تنبأت» بالاحتمالين معا : بالبروليتاريا كطبقة يرشحها التاريخ لان تكون عامل الثورة ، وبالبروليتاريا كطبقة عاجزة ، بحكم التطور الموضوعي للتاريخ ، عن اداء دور عامل الثورة .

وقد يقول قائل : كيف يمكن القبول بنبوءات تؤكد الشيء وعكسه ؟ كيف يمكن احترام نبي يتوقع لك الصيف والشتاء في فصل واحد ؟ كيف يمكن تصديق نبي يتخذ سلفا احتياطاته بحيث لا تكذب الاحداث اللاحقة نبوءاته سواء أهبت الريح من الشمال ام من الجنوب ؟

وبالفعل ، ان النبوءات الازدواجية هي من اختصاص الانبياء الكذبة والدجالين . ولكن مثل هذه التهمة لا يمكن توجيهها الى ماركس ، لانه بكل بساطة لم يكن نبيا . والماركسية ليست علم الغيب ، بل هي علم الواقع وحركته:

أداة تحليل وفرضية عمل . وازدواجية توقعات الماركسية ليست هي من قبيل الاحتياطات المتخذة سلفا ، وانما هي دليل قاطع على انها ليست ، كما أتهمت ، نظرية حتمية او جبرية . وما دامت الماركسية أداة تحليل وفرضية عمل ، فما من احد يستطيع ان يزعم ان لاستنتاجاتها صفة الاطلاق . ان واقعا معينا ، واقع القرن التاسع عشر ، هو الذي قاد ماركس الى ان ينيط بالبروليتاريا الرسالة التي أناطها بها. واستنتاجات ماركس او توقعاته يمكن تكذيبها في حالة واحدة لا غير ، وهي ان تكون شروط القرن التاسع عشر ما تزال مستمرة الى يومنا هذا . وبالمقابل فان الاستمرار في توكيد استنتاجات ماركس في عصر مغاير للعصر الذي بنى عليه ماركس تلك الاستنتاجات هو الدوغمائية بعينها ، وهو الذي يتيح لاعداء الماركسية فرصة «نقض» الماركسية و«دحضها» لانه يحط استنتاجاتها وتوقعاتها المشروطة تاريخيا الى مستوى التنبؤات المحلقة فوق التاريخ .

ان النظرية الماركسية حول الرسالة التاريخية للبروليتاريا مشروطة كما ذكرنا بشمولية عذابات البروليتاريا . وموقف ماركس وانجلز من الطبقة العاملة الانكليزية ، ثم موقف لينين بشكل أعم من الطبقة العاملة الاوروبية ونظريته عن القشرة الارستقراطية ، لا يدع مجالا للشك في ان الماركسية فهمت عميق الفهم طبيعة العصر الامبريالي بوصفه العصر الذي لا تعود فيه البروليتاريا المتروبولية تجسد شمولية العذاب ولا تعود تلك الطبقة التي لن تفقد بالثورة غير أغلالها . والحقيقة ان المقدمة العامة للماركسية حول رسالة البروليتاريا التاريخية ، أعني شمولية العذاب ، لم تفقد شيئا من اهميتها في عصر الامبريالية . فاذا ما فهمنا أن الامبريالية هي عصر الثنائية العالمية ، اي العصر الذي يمتد فيه نمط الانتاج الرأسمالي ليشمل العالم قاطبة ولكن على اساس من انقسام بلدان العالم الى متروبولات ومستعمرات وأمم العالم الى أمم ظالمة وامم مظلومة ، أدركنا ان ثمة انتقالا قد حدث في مركز الثورة الاشتراكية العالمية كنتيجة للتحول في مركز العذابات الشمولية . ومن هذه الزاوية ، فان الفانونية ليست هرطقة كما قلنا ولا نقضا للماركسية ، ونظرية فانون عن «معذبي الارض» هي استمرار طبيعي لنظرية ماركس عن عذابات البروليتاريا الشمولية ، وكل ما هنالك ان مقولة «الطبقة الثورية» باتت تتجسد في فلاحي المستعمرات وشعوب العالم الثالث لان العالم الكولونيالي بات مركز العذابات الشاملة في عصر الامبريالية العالمية . والفانونية تفسر لمَ أضحت الثورة محتومة في عالم لا يخشى ان يخسر بالثورة غير أغلاله ، بينما تقلصت النظرية الماركسية عن رسالة البروليتاريا التاريخية لتصبح مجرد تفسير لواقع ان الثورة اصبحت مستبعدة في عالم يخشى ان يفقد مع الثورة امتيازاته .

اذن ، وفي القرن التاسع عشر ، كانت البروليتاريا عامل الثورة الوحيد . ولكن الرأسمالية في القرن التاسع عشر لم تكن قد اضحت عالمية بكل ما في الكلمة من معنى . وفي عصر الامبريالية العالمية ، اي في عصر الثنائية العالمية، لا يعود في وسع اي ماركسي ان يؤكد ان البروليتاريا المتروبولية هي عامل

الثورة الوحيد . بل ان استشراء السرطان الاستعماري وامتداده الى البروليتاريا المتروبولية يجعل من الصعب التوكيد بأنها ما تزال عامل ثورة . ولا شك في ان استنتاجات الماركسية حول ثورية البروليتاريا بحاجة الى مراجعة عامة على ضوء تطورات الامبريالية العالمية ، ولكن الماركسية من جهة ثانية قد دللت على حيوية مدهشة بصدد مقدمتها العامة عن اقتران النظام الرأسمالي بعذابات شاملة وعن ضرورة هذه العذابات لتطور ذلك النظام وعن انبثاق عامل الثورة من هذه العذابات بالذات . والتطور الذي يقود من ماركس الى لينين الى ماوتسي تونغ الى فانون – اي ما أسميناه بالمسيرة الآسيوية للماركسية – ليس تطورا منقطعا مهما تناقضت استنتاجات فانون مع استنتاجات ماركس واستنتاجات ماوتسي تونغ مع استنتاجات لينين او تروتسكي .

فهذا التناقض وهذا التدرج في التناقض ضروريان وصحيان لانهما الترجمة النظرية للتطورات التي عرفتها حركة الواقع التاريخي للرأسمالية في مسيرتها من القرن التاسع عشر الى القرن العشرين ومن المتروبولات الى المستعمرات في ظل الوحدة المتناقضة للامبريالية العالمية .

البروليتاريا والتكنولوجيا

ان التطور من ماركس الى فانون لا يمثل كل تطور الماركسية خلال قرن من تاريخها . ولا ريب في ان الماركسية ما كانت لتكون تلك النظرية الشمولية لعصر الرأسمال لولا مسيرتها الآسيوية التي حررتها من مركزية الذات الاوروبية ومن الرؤيا المتروبولية الأحادية الجانب للنتائج التاريخية لانتصار نمط الانتاج الرأسمالي وعمومه . ولكن اذا كانت اوروبا قد كفت عن ان تكون مركز العالم ، فهذا لا يعني انها فقدت كل اعتبار وان الشمولية الماركسية تستطيع ان تكتفي من الان فصاعدا بنوع من مركزية الذات الآسيوية .

والواقع ان اوروبا (وأميركا) ما تزال تحتفظ بكل اهميتها لانها ما تزال مركز الرأسمال العالمي وموطن تطوره ومسقط رأس الثورة التكنولوجية . ولئن كنا قد خصصنا القسم الاكبر من هذا الكتاب لدراسة رحلة تغرب الماركسية نحو محيط العالم الرأسمالي ، فان العودة الى مركز هذا العالم لالقاء نظرة ، ولو خاطفة ، على المصائر التاريخية للماركسية فيه ضرورة يفرضها مطمح الماركسية الى الشمولية .

وبالفعل ، ان التطور من ماركس الى فانون في محيط العالم الرأسمالي يقابله تطور موازٍ من ماركس الى ماركوز في مركز العالم الرأسمالي . ولا يتسع المجال هنا للوقوف مليا عند كل المراحل الانتقالية التي تفصل بين ماركس وماركوز (برنشتاين ، كاوتسكي ، جوريس ، الاممية الثانية ، نظرية وممارسة الاحزاب الاشتراكية – الديموقراطية والاحزاب الشيوعية الغربية) ، فهذه المراحل

الانتقالية ، ما خلا بعض الاستثناءات ، هي في حقيقتها مراحل انحطاط الماركسية وانزلاقها الى مواقع الانتهازية او الدوغمائية . واذا كنا سنقفز من ماركس الى ماركوز مباشرة ، فهذا لان ماركوز هو اول من حاول ، بعد سلسلة طويلة من الابتذال والتحريف والجمود ، أن يعيد النظر في مقولة «الطبقة الثورية» من خلال المجتمع الرأسمالي المتقدم صناعيا وعلى ضوء التطورات الذاتية لهذا المجتمع .

والحديث عن ماركوز يقودنا مباشرة الى الحديث عن التكنولوجيا ، اي عن ذلك العامل الثاني الذي شرط به ماركس ثورية البروليتاريا (بعد شرط شمولية العذاب) .

ان ثورية البروليتاريا هي في نظر ماركس ، وكما رأينا في الفصل الاول ، امتداد مباشر لثورية التكنولوجيا . فقبل ثورة الصناعة الكبيرة والتكنولوجيا ، وفي مرحلة المانيفاتورة والاختصاصات الحرفية اليدوية ، لم تكن الطبقة العاملة مؤهلة لان تلعب في التاريخ ذلك الدور الثوري والتحريري الحاسم لانها لم تكن طبقة موحدة ولم تكن تمثل قوة اجتماعية متضامنة متلاحمة . ففي مرحلة الصناعة اليدوية والمانيفاتورة كانت الطبقة العاملة منقسمة الى طوائف حرفية مستقلة متنافسة ، وكانت الاختصاصات والمصالح الحرفية تحول دون اي تضامن طبقي ولا تسمح بأكثر من تضامن مهني ضيق ومحدود ، وكانت النزعة المحافظة المميزة للطوائف المهنية متضامنة تضامنا وثيقا مع النزعة المحافظة للتكنولوجيا البدائية غير المتطورة . ومع الثورة التكنولوجية التي رافقت ولادة الصناعة الكبيرة واستعمال الآلات على نطاق واسع ، حدثت تغيرات جوهرية في بنية الطبقة العاملة . فقد تضخمت أعداد هذه الطبقة تضخما فاق كل تصور ، وقضى غزو الآلة على الاختصاصات الحرفية الضيقة وعلى الحواجز الطائفية المهنية وعلى الحزازات المحلية ، وتحررت الطبقة العاملة من تجزئتها التكوينية وتحولت الى جسم واحد متضامن الاجزاء والى كتلة متجانسة متلاحمة ، وحل التضامن الطبقي محل التضامن المهني ليفسح المجال امام البروليتاريا للظهور على المسرح السياسي كقوة ثورية حاسمة .

ان التكنولوجيا الثورية تخلق طبقة عاملة على صورتها ، اي بروليتاريا ثورية . فالتكنولوجيا تقوم على اساس من النظام والتنظيم ، ومن هذا الاساس ستستمد البروليتاريا قدرتها على تنظيم نفسها وعلى الانضباط الذي تستحيل بدونه أي ثورة اجتماعية . والتكنولوجيا تمثل أحدث منجزات العقل البشري والابتكار الانساني ، ومن التعامل اليومي والمباشر مع هذه المنجزات ستستمد البروليتاريا قابليتها لتمثل التصور المادي العلمي الثوري عن العالم وقدرتها على تحرير نفسها من كل الخرافات والاساطير وعلى نبذ جميع الايديولوجيات والآراء المسبقة والأغلال الفكرية الموروثة عن عهود الاقطاع والتخلف التي كانت تشدها الى الوراء ، الى عالم الأمس القديم البالي .

وواقعة الثورة التكنولوجية وما أحدثته من تبدل جوهري في بنية الطبقة

العاملة لا تترك مجالا للشك في ان ماركس في تصوراته عن الدور الثوري للبروليتاريا في التاريخ لم يكن طوباويا وصاحب رؤيا ، وأنه بنى على العكس تصوراته عن الرسالة التاريخية للبروليتاريا على اساس واقعي ، على اساس حركة الواقع التاريخي بالذات :

واذا كان التصور الماركسي عن رسالة البروليتاريا التاريخية يعاني اليوم من ازمة ، فليس ذلك لان هذا التصور مغلوط او لأن ماركس اخطأ في تحليل حركة الواقع التاريخي ، وانما مرد الازمة ان حركة الواقع التاريخي هذه قد تجاوزت في القرن العشرين التحليل الذي انشأه ماركس في القرن التاسع عشر . فالثورة التكنولوجية التي أطلقت من عقالها قوى لا حدود لها هي ثورة مستمرة ، ولا يمكن ان تتوقف بحكم طبيعتها بالذات عند تخوم معينة . وتقول الاحصاءات الحديثة ان الاختراعات والاكتشافات العلمية التي راكمتها الانسانية خلال العقد او العقدين الاخيرين تفوق مرتين او اكثر مجموع الاختراعات والاكتشافات التي أنجزتها خلال عشرين الف سنة من تاريخها . وهذه الثورة العلمية والتكنولوجية المستمرة قد احدثت تطورا واسع النطاق في طرق وقوى وعلاقات الانتاج الصناعي . ومن وجهة نظر التحليل الماركسي لعلاقات البروليتاريا بالتكنولوجيا، فان الآثار الاجتماعية للثورة التكنولوجية الحديثة تنعكس على مستويين : اولا تقلص دور البروليتاريا في الانتاج ، وثانيا تبدل بنيتها الطبقية .

وبصدد دور البروليتاريا في الانتاج ، كان التحليل الماركسي الكلاسيكي يلاحظ ان البروليتاريا هي القوة الرئيسية بين سائر قوى الانتاج وان شراء قوة عملها هو المصدر الرئيسي لفضل القيمة ولتراكم الرأسمال الاجتماعي . وكان ماركس يردد ان المجتمع الحديث بأسره يعيش عالة على قوة عمل البروليتاريا . بيد ان الثورة التكنولوجية الحديثة ، اي استخدام الآلات والتأليل على نطاق واسع ، أدت الى تقلص دور البروليتاريا في الانتاج والى بروز العلم كقوة انتاجية جديدة . وقد وجدت هذه الواقعة ترجمتها في ما اصطلح الاقتصاديون على تسميته بارتفاع التركيب العضوي للرأسمال (١) .

وبديهي ان البروليتاريا ما تزال عاملا انتاجيا هاما ، ولكنها لم تعد العامل الوحيد ، وما عاد في وسع نظرية الثورة الاجتماعية في الوقت نفسه ان تهمل دور العلم كقوة انتاجية مستقلة . ومن هنا كانت دعوة بعض الماركسيين المعاصرين (روجيه غارودي في كتابه **منعطف الاشتراكية الكبير**) الى الاعتراف بقيام «كتلة تاريخية جديدة» تضم الى جانب البروليتاريا العلماء والفنيين والاختصاصيين ، والى بناء الاشتراكية لا على اساس من دكتاتورية البروليتاريا

---

١ ـ التركيب العضوي للرأسمال مصطلح يشير الى نسبة كل من العمل الحي (البروليتاريا) والعمل الميت (الآلات) في الانتاج .

وحدها بل على اساس تحويل تلك الكتلة التاريخية الجديدة الى كتلة سلطوية .

واذا كانت مسألة «الكتلة التاريخية الجديدة» ما تزال موضع نقاش وحوار ، فان ما من احد يجرؤ اليوم — اللهم الا اذا كان هنا ايضا دوغمائيا مكابرا — على انكار التبدلات الجوهرية التي طرأت على البنية الطبقية للبروليتاريا بنتيجة الثورة التكنولوجية . واذا اردنا تلخيص هذه التطورات في عبارة واحدة ، فاننا نقول : ان التكنولوجيا الثورية هي في سبيلها الان ، وبعكس ما كانت عليه الحال في القرن التاسع عشر ، الى توليد بروليتاريا محافظة . صحيح ان ماركس لم يتوقع تطورا من هذا القبيل ، وصحيح انه بنى كل نظريته حول البروليتاريا الثورية بدالّة الثورة التكنولوجية ، ولكن ملاحظته المنهجية بأن الثورة التكنولوجية «تحدث تبدلات مستمرة لا في القاعدة التكنولوجية للانتاج فحسب بل ايضا في وظائف العمال وسيرورة العمل» تظل ملاحظة صحيحة ومنطلقا للتحليل وإن أفضت الى نتائج معاكسة تماما للنتائج التي استخلصها من تحليله لعلاقات البروليتاريا والتكنولوجيا .

وقد حاول بول سويزي ، وهو مفكر واقتصادي ماركسي بارز ، في دراسة له في مجلة «القارات الثلاث» أن يستأنف في القرن العشرين التحليل الذي انشأه ماركس في القرن التاسع عشر ، واستطاع ان يتوصل الى النتائج التالية فيما يتعلق بدور الثورة التكنولوجية الحديثة في توليد بروليتاريا محافظة :

١ — ان الثورة التكنولوجية قد أدت الى تقسيم مشتط للعمل والى تجزئة سيرورة الانتاج الى عدد لا حصر له من عمليات جزئية صغيرة لا يعدو دور العامل فيها ان يكون في غالب الاحيان تكرارا أبديا لحركات لا معنى لها في حد ذاتها . وهذا «العمل المفتت» (على حد تعبير جورج فريدمان) قضى على جزء من البروليتاريا ببلادة فكرية شبه تامة ، وجرد الانتاج من كل صفة انسانية ، وأحال العامل الانساني نفسه الى عامل آلي كل مهمته ان يكرر في فترة زمنية محددة عددا محددا من حركات متماثلة مطلق التماثل (١) . وبديهي ان هذا التكرار الميكانيكي لاعمال جزئية وتافهة في حد ذاتها لا يعمل في اتجاه تثوير وعي البروليتاري وتنويره ، بل في اتجاه تخديره وتبليده وتعميته . واذا ما اخذنا بعين الاعتبار ان هذا النوع من الاعمال لا يتطلب خبرة مهنية كبيرة ولا فترة طويلة من التدريب وأن أجور اليد العاملة تكون متدنية في هذا القطاع بالتالي اكثر من اي قطاع آخر ، فوجئنا بهذه المفارقة : ان أفقر شرائح البروليتاريا المعاصرة وأكثرها مصلحة في الثورة هي على وجه التحديد الشرائح التي قضى عليها وضعها في الانتاج بالبلادة الفكرية وبالعجز النسبي عن تمثل التصور الثوري عن العالم .

٢ — ان الثورة التكنولوجية الحديثة قد أحدثت تبدلات هامة في وظائف

---

١ — لعل هجاء شارلي شابلن المرّ لهذا النوع من العمل في فيلمه «الازمنة الحديثة» ليس ببعيد عن أذهاننا .

العمل وأوجدت «مروحة واسعة من الوظائف الجديدة» من مهندسين وفنيين وعمال مختصين وباحثين ومراقبين الخ . وهذه الوظائف الجديدة تتطلب بالبداهة قدرا كبيرا من الاختصاص والخبرة والمهارة ، وهي تضمن بالتالي للعامل أجرا اعظم من أجر العامل الذي يعمل في «السلسلة» او في التجميع او في التعليب الخ . وهكذا تتضامن الثورة التكنولوجية مع التطور الامبريالي للرأسمالية في تكوين قشرة او نواة ارستقراطية عمالية . واذا ما اخذنا بعين الاعتبار ان هذه الارستقراطية العمالية هي التي تتعامل يوميا ، بحكم وضعها في الانتاج ، مع المنجزات العلمية والتكنولوجية للعقل البشري ، فوجئنا من جديد بهذه المفارقة : ان اكثر شرائح البروليتاريا المعاصرة استعدادا لتمثل التصور المادي والثوري عن العالم هي على وجه التحديد الشرائح التي تغريها امتيازاتها المادية وأجورها المرتفعة نسبيا بأن تسد آذانها دون نداء الثورة .

٣ ـ ان الثورة التكنولوجية الحديثة كانت لها نتائج معاكسة تماما لنتائج ثورة القرن التاسع عشر التكنولوجية على سيرورة توحيد الطبقة العاملة. فالاختصاصات المهنية الضيقة التي قضت عليها الثورة التكنولوجية القديمة تعاود اليوم ظهورها بفعل استمرارية الثورة التكنولوجية على وجه التحديد ، والطبقة العاملة التي كانت قد استحالت الى كتلة متجانسة متلاحمة بفضل التطور التكنولوجي هي في سبيلها الى الانقسام على نفسها من جديد بفعل هذا التطور نفسه . وبالفعل ، أن الطبقة العاملة لم تعد اليوم مؤلفة من عمال فحسب ، بل هي تتكون من شرائح عمالية متمايزة ومتعارضة : شريحة العمال من اصحاب الاختصاص المهني العالي، وشريحة العمال المختصين ، وشريحة العمال أنصاف المختصين ، وشريحة العمال غير المختصين . وهذه الحواجز المهنية التي عاودت ظهورها في قلب الطبقة العاملة قد حفزت من جديد مشاعر التضامن المهني الضيق على حساب مشاعر التضامن الطبقي . واذا ما اخذنا بعين الاعتبار ان هذه الحواجز المهنية تترافق بحواجز مادية (اختلاف الاجور الشديد بين المختصين وغير المختصين) ، ادركنا عمق الازمة التي تواجهها البروليتاريا الغربية من حيث تطلعها الى ان تكون كتلة متلاحمة منحوتة من صخرة واحدة .

المجتمع المغلق

ان الشروط الموضوعية المعاصرة لوجود البروليتاريا ، وهي الشروط التي أجملناها في تقلص شمولية عذاباتها والتبدلات الطارئة على بنيتها الطبقية ، كان لها انعكاس مباشر على الصعيد الذاتي ، اي على صعيد وعي البروليتاريا الطبقي الثوري . وبديهي ان علاقة الذات بالموضوع ليست علاقة ميكانيكية ، وليس هناك من قانون حديدي يحتم ان يكون الوعي الذاتي متطابقا مطلق التطابق مع الشروط المادية الموضوعية . والحقيقة ان الشروط الموضوعية اللاثورية لوجود

البروليتاريا الحديثة تميل ـ تميل ليس إلا ـ الى توليد بروليتاريا محافظة على صعيد الوعي ، ولكن هذا الميل لا يتحول الى حقيقة واقعة الا بمقدار ما تريده البروليتاريا هي نفسها بوصفها قوة وعي ، اي الا بمقدار ما تمتنع عن افراز سموم مضادة لمقاومة ذلك الميل وتجميده وإبطال مفعوله .

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا هو : لماذا امتنعت البروليتاريا الغربية وعجزت عن افراز تلك السموم المضادة ولماذا وجدت نفسها مكرهة على القبول بأن تكون ما ارادت شروطها الموضوعية ان تكونه ؟ وبعبارة اخرى : لمَ أمكن لقوة الشروط الموضوعية ان تبطل المفعول الثوري لوعي البروليتاريا ، وما امكن لقوة وعي البروليتاريا الثوري ان تبطل مفعول الشروط الموضوعية اللاثوري ؟

بديهي ان الاجابة الكلاسيكية هي : ان القوة الموضوعية اقوى في التحليل الاخير وعلى المدى الطويل من القوة الذاتية . وهذا صحيح . ولا احد يماري في ان الغلطة التاريخية للبروليتاريا الغربية هي انها امتنعت عن اغتنام الفرصة الذهبية التي كانت متاحة لها للقيام بثورتها الموعودة يوم كانت الشروط المادية والذاتية لوجودها تهيئها لان تكون عامل الثورة والذات المحركة للتاريخ . ولا ريب في ان انتهازية الاحزاب الاشتراكية ـ الديموقراطية ونزعتها الاصلاحية وسياسة المساومة والتوفيق التي انتهجتها تجاه البورجوازية (وهذا كله قد وجد تعبيره في رفض تلك الاحزاب الاقتداء بالمثال البلشفي) هي التي تتحمل القسط الاوفر من مسؤولية تلك الغلطة التاريخية . ولا شك اخيرا في ان الانتهازية الاشتراكية ـ الديموقراطية كانت انعكاسا موضوعيا على صعيد الوعي للميول المحافظة واللاثورية في الشروط المادية لوجود البروليتاريا الغربية . ولكن هذه الوقائع ، التي لم تعد خافية على احد والتي استوعبها التحليل الماركسي منذ أمد بعيد ، لم تعد كافية للاجابة على كل الاسئلة . ذلك ان الواقع التاريخي المعاصر قد تجاوز التحليل الماركسي الكلاسيكي المتوارث منذ عهد لينين . فليس المطلوب اليوم ان نفسر ظهور الانتهازية الاشتراكية ـ الديموقراطية في صفوف الطبقة العاملة ، بل ان نفسر انتصارها . ليس المطلوب ان نفسر السياسة الانتهازية للاشتراكية ـ الديموقراطية ، بل ان نفسر لماذا اصبحت هذه السياسة هي السياسة الوحيدة الممكنة للطبقة العاملة الغربية. ليس المطلوب ان نفسر لماذا تأخرت الثورة البروليتارية في الغرب ، بل ان نفسر لماذا اصبحت مستحيلة او شبه مستحيلة . وبكلمة واحدة ، ليس المطلوب ان نفسر وجود الميل ، بل ان نفسر تحوله الى حقيقة واقعة.

ويخيل الينا ، من هذه الزاوية ، ان المحاولة الجدية والمتكاملة لاستئناف التحليل اللينيني قد صدرت عن المفكر الالماني الاصل ، الاميركي الجنسية ، هربرت ماركوز الذي لا نبالغ ان قلنا انه فعل بالنسبة الى بلدان الغرب المتقدم صناعيا ما فعله فرانز فانون بالنسبة الى بلدان العالم الثالث ، اي اعاد «اكتشاف قوانين التاريخ» ان كان التواضع المفترض في الفكر يسمح باستخدام مثل هذا التعبير .

ان التحليل الذي يحاوله ماركوز هو تحليل على صعيد الوعي . وبديهي ان

ماركوز يحيلنا باستمرار الى الثورة التكنولوجية الحديثة ، ولكنه لا يدرس هذه الثورة في حد ذاتها ، بقدر ما يدرس آثارها ونتائجها على وعي البروليتاريا وسائر قوى الثورة الاجتماعية في البلدان الرأسمالية المتقدمة صناعيا .

ان ماركوز لا ينكر التحليل الماركسي ، بل يلاحظ فقط انه أمسى عاجزا ، غير فعال . فالماركسية ، التي يسميها ماركوز بحق النظرية النقدية الكبرى ، لا تطمح الى تفسير العالم فحسب بل الى تغييره ايضا . وهي لا تدين بفعاليتها لصحة تحليلاتها ولجذرية انتقاداتها فحسب ، بل ايضا ، وفي الدرجة الاولى ، لتأسيسها نقدها الجذري على قوة اجتماعية حقيقية قادرة على تمثله وتحقيقه : البروليتاريا الصناعية. واذا كانت الماركسية تمثل أشمل نقد للمجتمع الرأسمالي، واذا كان هذا النقد الشامل قد تجاوز الصعيد النظري المحض ليتحول الى سلاح حاسم في معركة تصفية المجتمع الرأسمالي ونفيه ، فهذا لان هذا النقد وهذا النفي متجسدان واقعيا في البروليتاريا . ومن هنا ، واذا كانت الماركسية تعاني اليوم من ازمة في البلدان الرأسمالية المتقدمة ، فليس ذلك لانها ضلت سواء السبيل او لأن نقدها النظري لم يعد متطابقا مع الواقع او لان مآخذها على المجتمع الرأسمالي قد كفت عن ان تكون صحيحة ، وانما مرد الازمة قبل كل شيء الى انكفاء هذا النقد على نفسه في المجال النظري المحض والى الانقطاع في استمراريته على صعيد الواقع العملي والى تلاشي القوة الاجتماعية التي كانت مؤهلة لحمله وتبنيه وتحقيقه .

ان النفي الماركسي النظري للمجتمع الرأسمالي غير قابل للانفصال عن النفي الحي والعملي لهذا المجتمع في شخص البروليتاريا . ولا غرو ان بدا سلاح النقد الماركسي مفلولا وغير فعّال وبلا موضوع من اللحظة التي كفت فيها البروليتاريا عن ان تكون قوة النفي الكبرى للمجتمع الرأسمالي . وكل تحليل ماركوز ينصب على هذه الواقعة الاساسية في المجتمع الرأسمالي المتقدم صناعيا اليوم : تخدُّر النقد ، استحالة الرفض ، انتفاء النفي ، وبكلمة واحدة اندماج البروليتاريا بالمجتمع ، هي التي كان يفترض فيها أن تكون قوته السالبة .

ان الصورة التي يرسمها ماركوز للمجتمع الرأسمالي المتقدم صناعيا هي صورة رهيبة ــ وهذا بغض النظر عن الطابع الفلسفي والعويص لأفكاره . فهي ليست صورة عالم اضطهادي واستبدادي فحسب ، بل هي ايضا وقبل ذلك صورة عالم سد جميع المنافذ على امكانية الخروج منه او عليه : عالم مغلق ، عالم أحادي البعد ، عالم يحيلك باستمرار الى ذاته . وما يرهب في هذا العالم ليس انه احتل بدوره مكانه في دارة الاستبداد ، وانما ان يكون قد أغلق هذه الدارة ، وأغلقها بإحكام . وهذا بالضبط ما يميز استبداد المجتمع الرأسمالي المتقدم صناعيا عن كل استبداد المجتمعات التاريخية الماضية . فلئن صح القول بان تاريخ المجتمع الانساني لم يكن حتى الان غير تاريخ الاستبداد ، فلقد كان يصح بالدرجة نفسها القول بأنه كان ايضا تاريخ النضال ضد ذلك الاستبداد . وهذا

الجدل بين الاستبداد والحرية هو الذي ترك دارة التفاؤل مفتوحة . وهـذه الدارة لم يستطع النظام النازي نفسه ، اكثر الانظمة إفحاشا في الاستبداد والتوتاليتارية ، ان يغلقها . ذلك ان النظام النازي كان في كل فعل من أفعاله يسمي نفسه على انه نظام استبداد ، ومتى سمى الاستبداد نفسه ولدت الحرية حتى ولو ظلت مدفونة في الصدور ، وارتسمت في الافق امكانية النفي حتى ولو كانت القدرة على المقاومة مشلولة . والحال ان امكانية الرفض والنفي والتحرر هذه ، التي هي البعد الثاني او الكامن لكل استبداد ، هي التي نفاها المجتمع الرأسمالي المتقدم صناعيا — ومن هنا استحق صفة الانغلاق او أحادية البعد . فاستبداد هذا المجتمع لا يسمي نفسه ، ولا يظهر ذاته ، ولا يستدعي الحرية كما يستدعي الفراغ الغاز ، لانه قد سد فراغ الحرية بوهم الحرية . ولقد امكن للمجتمع الرأسمالي المتقدم ان يحقق هذه «المعجزة» بفضل الثورة التكنولوجية الحديثة .

ان المجتمع الرأسمالي المتقدم هو ، بوصفه مجتمعا طبقيا ، وككل مجتمع طبقي في التاريخ ، مجتمع اضطهاد واستبداد وارهاب . ولكن هذا المجتمع يتميز عن كل المجتمعات التي سبقته بطاقات ماديـة هائلة حررتها الثورة التكنولوجية . وقد اتاحت له هذه الطاقات المحررة هيمنة على الفرد تتجاوز من بعيد كل أشكال السيطرة التي مارسها المجتمع في الماضي على أفراده. فلقد كانت السيطرة على مر العصور شكلا لاعقلانيا من أشكال العلاقات الانسانية ، وبسبب طابعها اللاعقلاني هذا على وجه التحديد كان في وسع الانسان دوما ان يعقلها ويفضحها ويطالب بوضع حد لها . بيد ان السيطرة الاجتماعية في عصر التقدم التكنولوجي تتلبس طابعا عقلانيا يجرد سلفا كل احتجاج وكل معارضة من سلاحهما . وهذا الطابع العقلاني للسيطرة في المجتمع الصناعي يتمثل في قدرة هذا المجتمع ، بفضل التطور التقني المعجز ، على استباق كل مطالبـة بالتغيير الاجتماعي وعلى تحقيق هذا التغيير جزئيا وتلقائيا . ومن زاوية الانجازات العظيمة التي حققها المجتمع الصناعي المتقدم ، تبدو المطالبة بتجاوز هذا المجتمع هـي اللاعقلانية وليس هو . اذ هل من المعقول في شيء المطالبة بتغيير مجتمع يثبت يوميا قدرته على تنمية الانتاج والانتاجية وتوفير حياة الرغد والرفاه لعدد متعاظم باستمرار من اعضائه ؟

بديهي ان هذا ظاهر الامور ليس إلا . فالمجتمع الرأسمالي المتقدم هو برمته مجتمع لاعقلاني . ولئن كانت النظرية النقدية الكبرى قد سلطت الضوء على تناقضاته الطبقية الصارخة بوصفها المظهر الاساسي للاعقلانيته ، فان ماركوز يجد هذه اللاعقلانية في صلب عقلانيته المزعومة وفي منطقها الداخلي بالذات . فالمقياس الذي يعتمده المجتمع الرأسمالي المتقدم ليبرر دعواه العقلانية هـو الانتاجية وما يكفله لها من اطراد التطور وما تفتحه من آفاق لتلبية حاجات بني الانسان . والحال ان ماركوز يلاحظ مع ماركس ان تطور انتاجية المجتمع الرأسمالي لا يؤدي الى تطور الحاجات والمواهب الانسانية تطورا حرا ، وأن قمع

التفتح الحر للملكات والحاجات الانسانية هو شرط استمرار تطور تلك الانتاجية.
وماركوز يطور هذه الاطروحة الماركسية باتجاه التمييز بين الحاجات الكاذبة والحاجات الحقيقية ، بين الحاجات المصطنعة والمفروضة والحاجات الطبيعية والتلقائية . فالمجتمع الرأسمالي المتقدم بحاجة الى اصطناع حاجات كاذبة لا ليضمن استمرار النمو لانتاجيته فحسب ، بل ايضا ليقضي ، عن طريق تلبية هذه الحاجات المصطنعة ، على كل شكل من أشكال التناقض والتجاوز والتعالي وليحقق التلاحم الاجتماعي الداخلي وليخلق انسانا ذا بعد واحد يقبل بذلك المجتمع ككل لانه المجتمع الذي يلبي «حاجاته» .

وحاجة المجتمع الرأسمالي المتقدم الى اصطناع حاجات كاذبة هي التي تفسّر التضخم المرضي فيه للدعاية والاعلان وسائر وسائل الاتصال الجماهيري . فمهمة هذه الوسائل ان تخلق ، مع وهم الحاجات ، وهم الحرية . واذا ما فهمت الحرية على انها تحرير الحاجات ، أدركنا كيف يتوهم انسان المجتمع الرأسمالي المتقدم انه حر لمجرد انه يستطيع ان يختار بين تشكيلة كبيرة من البضائع والخدمات التي تحضه الدعاية ليل نهار على استهلاكها لتلبية «حاجاته» . ولكن هذه الحرية العقلانية المتوهمة هي اللاعقل بالذات . اذ هل يجوز للعبد ان يتوهم انه حر لمجرد انه حصل على الحرية في اختيار سادته ؟

وتزييف حاجات الانسان شاهد صارخ على لاعقلانية المجتمع الرأسمالي ، لان هذا التزييف يترتب عليه تبذير مزدوج : تبذير ناشىء عن تكاليف اصطناع الحاجات وتبذير ناشىء عن تكاليف تلبية حاجات غير ضرورية للانسان . فالشركات الرأسمالية الحديثة تخصص نسبة عالية من رقم اعمالها (نسبة تبلغ الثلث احيانا !) لميزانية الدعاية والاعلان . كما ان جزءا هاما من الدخل القومي يذهب هدرا في تلبية حاجات كاذبة ، ومن قبيل ذلك النفقات العسكرية الباهظة في الدول الغربية . ومهما امكن للعقل ان يسفه هذا التبذير ، فليس في وسع المجتمع الرأسمالي الاستغناء عنه لان هذا التبذير اللاعقلاني هو الذي يضفي صفة عقلانية على وجود ذلك المجتمع ويموه لاعقلانيته التأسيسية .

ان المجتمع الرأسمالي يعمل جاهدا على تمويه لاعقلانيته المتمثلة جوهريا في انقسامه الى طبقات مستغِلة ومستغَلة . وفي سبيل الوصول الى تمويه هذا الانقسام الطبقي بظاهر من تلاحم طبقي ، اي في سبيل اضفاء طابع عقلاني على واقعة الطبقية اللاعقلانية ، لا يحجم ذلك المجتمع عن رصد اموال طائلة لتزييف الحاجات ولتلبيتها بعد تزييفها : فالعامل الذي يشعر بالحاجة الى ارسال ابنه الى نفس الجامعة التي يتلقى فيها ابناء رب عمله تعليمهم ، والسكرتيرة التي تشعر بالحاجة الى ارتداء ملابس لا تقل أناقة عن ملابس ابنة مستخدمها ، والزنجي الذي يشعر بالحاجة الى امتلاك سيارة فارهة في الوقت الذي لا يتمتع فيه بحقوقه المدنية الاساسية ، هم نماذج حية تشهد لا على زوال الطبقات بل على مدى مساهمة الطبقات السائدة في تحديد حاجات الطبقات المسودة وعلى

مدى نجاح المجتمع الرأسمالي في تمويه واقعة الانقسام الطبقي وفي وأد كل رغبة في تجاوزه ونفيه وقلبه .

والتبذير العسكري يؤدي بدوره وظيفة بالغة الخطورة في إبطال مفعول كل معارضة داخلية وفي نفي احتمالات الرفض والتعالي . فالمجتمع الرأسمالي بحاجة الى ان يكون في حالة حصار دائم . وبدون حالة الحصار هذه ، بدون حالة الطوارىء غير المعلنة هذه ، يتعرض وجود هذا المجتمع للانفجار تحت ضغط عناصر النفي والتمرد . وحتى تجد حالة الحصار الداخلي هذه طابعا عقلانيا ، وحتى تصبح مقبولة من الداخل وبملء الارادة ، فلا بد من اصطناع حالة من الحصار الخارجي (خطر الغزو الشيوعي على سبيل المثال) تبرر سلفا تدابير الدفاع الذاتي التي هي بالضرورة تدابير قمع . وهكذا تكرس **أسطورة** الحصار الخارجي **واقع** الحصار الداخلي وتبرره . والمجتمع الرأسمالي ، الذي هو بأمس الحاجة الى هذا التبرير ، لا يحجم عن تحمل نفقات باهظة لتغذية تلك الاسطورة . وبديهي ان ذلك الحصار ، المرغوب من الداخل اكثر مما هو مفروض من الخارج ، ليس برسم أعداء المجتمع الخارجيين وانما برسم الاعداء الداخليين. وهو في الحقيقة لا يستهدف قمع هؤلاء الاعداء الداخليين بل الحيلولة دون وجودهم اصلا وقطع الطريق على امكانية وجودهم بالذات . والشعار المعلن لهذا الحصار هو الدمج والاندماج . ولئن كان السوسيولوجيون قد نوهوا منذ أمد بعيد بالمجتمع الاميركي – وهو النموذج الامثل للمجتمع الرأسمالي المتقدم صناعيا – بوصفه بوتقة هائلة لصهر القوميات ولدمج ابناء الشعوب الاخرى القادمين من شتى انحاء العالم ، فان ماركوز يكشف النقاب عن ان مهمة هذه البوتقة هي ايضا ، قبل كل شيء ، دمج الاجانب الداخليين لا الاجانب الخارجيين فحسب .

وبالفعل ، ان المجتمع الرأسمالي المتقدم صناعيا هو مجتمع بلا اجانب ، بلا خوارج ، بلا لامنتمين . انه ينتمي الى نفسه ، وكل ما فيه ينتمي اليه . هو مستنفر بكل طاقاته وامكانياته ليجعل اللاانتماء مستحيلا او مشروعا جنونيا . وسبيله الى ذلك ليس الارهاب المباشر والعنف العاري والرقابة الخارجية المفروضة من فوق ، بل تزييف وعي الفرد وحمله على تبني هذه الرقابة واستبطانها . ولقد أثبتت هذه الرقابة الداخلية فعاليتها ونجعها الى درجة بات معها الفرد الذي يأبى الانصياع والامتثال للمجتمع القائم يضع نفسه هو في قفص الاتهام بدلا من ان يضع فيه المجتمع إياه . وليس من قبيل الصدفة ان يعج المجتمع الاميركي بالعيادات النفسية وأن تكون نسبة زوارها ٢٠ بالمئة من مجموع السكان ، فاللامنتمون واللامتكيفون والمتمردون هم في نظر هذا المجتمع وفي نظر انفسهم مرضى نفسانيون بحاجة الى علاج ، ومهمة العيادات هي على وجه التحديد ان تقنعهم بأن الشذوذ كامن فيهم لا في المجتمع .

وما يلفت النظر هنا ان المجتمع المغلق لم يفلح في دمج الطبقة العاملة وفي إبطال مفعول الرفض والتجاوز الذي كانت تمثله فحسب ، بل أفلح ايضا في دمج

طليعتها السياسية او ما كان يفترض فيه ان يكون طليعتها السياسية . وهكذا وجدنا الاحزاب الاشتراكية ـ الديموقراطية في الغرب تغوص اكثر فأكثر في مستنقعات الانتهازية والليبيرالية وتتخلى اكثر فأكثر لا عن التقاليد الثورية فحسب ، بل حتى عن برامجها الاشتراكية التدرجية واقنعتها الماركسية النظرية. اما الاحزاب الشيوعية فانها تسير قدما نحو احتلال المواقع التي هجرها الاشتراكيون ـ الديموقراطيون ونحو التميع والاندماج . وماركوز يلاحظ ان هذه الاحزاب قد كفت بالفعل عن ان تكون «اجنبية» ، لا بمعنى انها لم تعد تتلقى توجيهاتها من دولة اجنبية بل بمعنى انها لم تعد جسما غريبا داخل العضوية الاجتماعية وبعدا نافيا للمجتمع القائم وجزءا منفصلا عنه ومتعاليا عليه .

والحصار الذي يفرضه المجتمع المغلق على الطبقة العاملة وطليعتها السياسية ليشل مفعول الرفض والنفي الذي تمثله بالنسبة اليه هو قبل كل شيء حصار ايديولوجي وفكري . فالايديولوجيا هي بالتعريف ثنائية البعد لانه لا قوام لها الا اذا ميزت بين الواقع وبين ما يمكن ان يكونه هذا الواقع . والفكر عدو لدود للمجتمع المغلق لانه يمثل قوة العقل النقدية السالبة التي تتحرك دوما باتجاه ما يجب ان يكون لا باتجاه ما هو كائن . ولهذا عمل المجتمع الرأسمالي المتقدم صناعيا على احاطة الايديولوجيا بسور من الازدراء والتحقير باسم عقلانيته التكنولوجية وفعاليته الانتاجية . بيد ان رفض المجتمع المغلق للايديولوجيا وعمله على امتصاصها وإبطال مفعولها لا يعني ان الايديولوجيا لم يعد لها من وجود . وكل ما هنالك ان المدنية التقنية اصبحت هي الايديولوجيا . والمجتمع المغلق يحاول ان يموه هذه الحقيقة بزعمه ان التكنولوجيا محايدة . والحال ان حياد التكنولوجيا أسطورة ، لان المنطق الذي تقوم عليه التكنولوجيا هو منطق ايديولوجي معين ، منطق الرقابة والسيطرة .

ان التكنولوجيا هي بالتعريف فن غزو الطبيعة والتغلب على مقاومتها الخرساء ، وعلم تحويل الاشياء (اشياء الطبيعة) الى ادوات مروضة ، مسيطر عليها ، بهدف استغلالها لاغراض اجتماعية وحضارية . ومن هذه الزاوية تلعب التكنولوجيا دورا تقدميا لا يماري فيه الا الرجعي الغبي . ولكن من الغباء ايضا القبول بأسطورة حياد التكنولوجيا لان في هذا تجاهلا لحقيقة ان السيطرة على شعب من الآلات والادوات هي ايضا سيطرة . والمقلب الذي راح انسان المجتمع المغلق ضحية له هو ان المنطق الأداتي للتكنولوجيا بوصفها فن السيطرة على الطبيعة قد اصبح ايضا ، باسم الفعالية التكنولوجية ، المنطق المحدِّد للعلاقات الاجتماعية اي لفن السيطرة على الانسان . وهكذا ، وبدلا من ان تكون قوة التكنولوجيا قوة تحريرية عن طريق تحويل الاشياء الى ادوات ، امست عقبة في وجه التحرر عن طريق تحويل البشر الى ادوات . وهكذا ايضا يعلن ماركوز انهيار التفاؤل الماركسي الذي كان يتصور ان التطور التاريخي يقود من «حكم البشر الى حكم الاشياء» ويعارضه بمخطط تاريخي متشائم يلحظ ان حكم الاشياء قاد الى حكم البشر وترسيخه وتأبيده .

وبديهي ان ماركوز بعد هذا كله ، وبعكس ما اتهم ، لا يرفض التكنولوجيا ولا ينادي بالعودة الى جهالة العصور الوسطى ، بل هو يؤمن على العكس بأن التكنولوجيا قد اوجدت لاول مرة في التاريخ الامكانية الواقعية لتحرر الانسان ، وبأن تحرر الانسان قد كف عن ان يكون غاية ميتافيزيقية بعيدة وأصبح هدفا وأقعيا قريب المتناول بفضل الثورة التكنولوجية على وجه التحديد ، اي بفضل تحرير الطاقات المادية والانتاجية الهائلة . ولكن تحرر الانسان لا يمكن ان يكون نتيجة عفوية للتقدم التقني في حد ذاته ما دام المنطق الاجتماعي للتكنولوجيا منطق سيطرة واضطهاد . وحتى تحرر التكنولوجيا الانسان ، فلا بد ان تتحرر هي نفسها اولا . وتحرير الانسان هذا لنفسه عن طريق تحرير التكنولوجيا لا يمكن ان يمر بغير طريق الانقلاب السياسي : سياسي لانه يحرر التكنولوجيا من خضوعها الراهن لسياسة القوى والطبقات الاضطهادية المسيطرة في البلدان الرأسمالية ، وسياسي لان مهمته هي ان يقلب السياسة الراهنة للمشروع التكنولوجي وان يحمله على تبني العلة الغائية ، الهدف النهائي الذي هو تحرر الانسان .

ولكن من هو عامل هذا الانقلاب السياسي ؟ هنا على وجه التحديد يبرز وجه ماركوز المتشائم . فهو لا يكتفي بأن يعلن ان الطبقة العاملة لم تعد عامل التغير الاجتماعي ، بل يضيف ايضا بأن هذا العامل لا وجود له في المجتمع الرأسمالي المغلق . واذا كان ثمة من أمل ، او بصيص من أمل ، فانه معلق على القوى التي لم يتمكن المجتمع المغلق من دمجها به : المنبوذين على مختلف انواعهم واللامنتمين والعاطلين عن العمل والطبقات والعروق والالوان الاخرى المستغلة التي لم تدخل او لم يستطع المجتمع المغلق ادخالها في لعبته . ولكن هذه القوى قوى بدائية ، وقد يختلف او لا يختلف حصارها للحضارة الصناعية المعاصرة عن حصار المد البربري للحضارة الغابرة . ثم انها قوى تقف خارج النظام كما يلاحظ غارودي ، وأكثر طرق الثورة طوباوية هي تلك التي تبحث عن أمل الخلاص من خارج النظام .

ما الحل اذن ؟

ما من احد ، في رأي ماركوز ، يستطيع الاجابة على هذا السؤال . وهذا صحيح بمقدار ما يمكن الافتراض بأن اندماج البروليتاريا بالمجتمع التكنولوجي هو اندماج نهائي . ولئن كان ماركوز قد قدم أدلة لا تدحض على ان البروليتاريا اندمجت او هي في طريقها الى الاندماج ، فان الدليل لم يقم بالمقابل على ان هذا الاندماج اصبح نهائيا . ومن الممكن تماما ان نتصور امكانية إحداث ثغرة في سور حصار المجتمع الصناعي لنفسه . وهذه الثغرة يمكن ان تنشأ كما تقول النظرية الصينية بنتيجة حصار أرياف العالم لمدنه والمستعمرات للمتروبولات . ويمكن ان تنشأ ايضا كما تقول النظرية السوفياتية بنتيجة انتصار معسكر الاشتراكية على المعسكر الرأسمالي في المباراة الاقتصادية السلمية . ويمكن ان تنشأ ثالثا وأخيرا ، وكما حاولت ان تثبت ذلك حركات تمرد الطلاب في اوروبا

وأميركا ، بنتيجة إحداث صدع على صعيد وعي البروليتاريا المندمجة .

ومهما يكن من امر ، فليس في وسع احد ان يزعم ان صفحات التاريخ الاخيرة قد كتبت . والواقعة الاساسية التي يمكن استنتاجها من التطور الذي يقود من ماركس الى ماركوز بصدد دور البروليتاريا بوصفها عامل الثورة التاريخية هي ان الطبقة الثورية بحاجة اليوم الى تثوير ، وان تثوير الثوريين على صعيد الوعي اصبح شرط الثورة . وهذا يوجب اول ما يوجب ان تتخلص الطبقة العاملة من بيروقراطيي النقابات والاحزاب الذين نصبوا انفسهم أوصياء عليها . وهذه الضرورة التي لم يولها ماركوز اهتمامه ، قد فهمها «تلامذته» من الطلاب الذين كانوا يتطلعون ، من خلال حوادث التمرد الواسعة التي شهدتها الجامعات الغربية مؤخرا ، لا الى ان يحلوا انفسهم محل البروليتاريا ولا الى ان يقوموا بالثورة لحسابهم الخاص ، وانما الى إحداث الثورة في وعي البروليتاريا والى ايقاظها من تخدرها والى نفض الغبار البيروقراطي المتراكم حولها . ولئن كانوا قد نعتوا ثورتهم بأنها ثقافية ، فهذا توكيدا منهم بأن الصدع الذي ينبغي ان يُحدث في بنيان المجتمع المندمج والمغلق هو صدع على صعيد الوعي اولا . وضرورة هذا الصدع تزداد إلحاحا كلما ازداد المجتمع انغلاقا والبروليتاريا اندماجا وطريق الثورة انسدادا .

خـاتمة
حول الاستراتيجية الطبقية للثورة العربية

ان الشوط الذي قطعناه لم يكن بالقصير ، ولكنه كان قبل كل شيء كثير المنعطفات . فعلى مدى قرن من الزمن او اكثر ، وعبر المسيرة المتعرجة من ماركس الى فانون وماركوز ، تعرضت النظرية الماركسية عن الاستراتيجية الطبقية للثورة الى تطورات حاسمة وتقلبات لا نغالي ان قلنا انها مباغتة . ولنحاول في هذه « الخاتمة » أن نجعل الخلاصة الرئيسية لكل مرحلة من مراحل المسيرة :

عند ماركس كانت البروليتاريا ، والبروليتاريا وحدها ، الطبقة الثورية حتى النهاية .

وعند لينين اصبح التحالف مع الفلاحين الشرط الاساسي لممارسة البروليتاريا دورها الطليعي والقيادي في الثورة .

أما عند ماوتسي تونغ فقد اصبح الفلاحون القوة الثورية الرئيسية من غير ان تكف البروليتاريا — ولو نظريا على الاقل — عن ان تكون قائدة الثورة .

وأما فانون فقد اخرج جميع الطبقات من معسكر الثورة ليجعله حكرا للطبقة الفلاحية التي اصبحت قوة الثورة الرئيسية والقيادية في آن واحد .

وأما ماركوز اخيرا فقد أعلن إفلاس الرسالة التاريخية للبروليتاريا من غير ان يفتح دارة التفاؤل لطبقة بديلة .

والموقف من البورجوازية لا ينطوي على تقلب أقل عنفا :

فالبورجوازية في نظر ماركس لعبت دورا ثوريا مرموقا في التاريخ ، والثورة

الاشتراكية لن تقوم لها قائمة ما لم تسبقها وتمهد لها ثورة ديموقراطية بورجوازية .

أما البورجوازية في نظر لينين فانها الطبقة المرشحة على الدوام لخيانة رسالتها الثورية ، ومن هنا فان انجاز الثورة الديموقراطية البورجوازية بوصفها المدخل الى الثورة الاشتراكية يصبح مهمة بروليتارية .

وماوتسي تونغ يقسم بحدة البورجوازية الى بورجوازية وطنية وبورجوازية كومبرادورية لا وطنية ولا ثورية ، ويعتبر الثورة الديموقراطية جزءا من الثورة العالمية الجديدة او الاشتراكية ، لا جزءا من الثورة القديمة او البورجوازية .

أما فانون فقد رأى في البورجوازية المسماة بالوطنية قاذورة قاذورات التاريخ ، وقال لا باستحالة المرحلة البورجوازية فحسب بل ايضا بضرورة حرقها من الان وفورا اذا كانت الشعوب المتخلفة لا تريد ان تبقى متخلفة .

وكل ما حاولنا ان نقوله ، فيما تقدم من فصول رحلتنا ، هو ان هذه «القفزات» لا تمثل انقطاعا في تاريخ الماركسية بقدر ما تمثل محاولة من الماركسية لمعانقة المسار الواقعي ، المتناقض ، المتعدد الاتجاهات والمراكز ، للتاريخ . وبعبارة اخرى ، نحن لم نحاول تفسير التاريخ بدالّة مخططات الماركسية ، بل حاولنا تفسير تاريخ الماركسية بدالّة وقائع التاريخ .

وفي اعتقادنا ان احدى الوقائع الاساسية للتاريخ هي الواقعة القومية . والتطورات الجذرية التي أدخلت على الاستراتيجية الطبقية للثورة وأعطتها غناها وشمولها انما انبثقت اساسا عن سعي الحركات الثورية الكبرى في هذا العصر الى ايجاد طريق قومي الى الثورة ، طريق متحرر من كل سكولائية ودوغمائية وغير ملتزم بأي كتاب غير كتاب الحياة . وما نعنيه بالطريق القومي ليس اختراع «أقدار خاصة» ، بل تحديد الاستراتيجية الطبقية للثورة على ضوء مجمل الشروط التاريخية الخاصة بهذه الامة او تلك .

والحقيقة ان الاستراتيجية الطبقية للثورة لا يمكن ان تحدد او تبنى ــ اللهم الا اذا كانت استراتيجية مفجوعة ــ على نحو دوغمائي واستنادا الى معطيات نظرية مسبقة مُنزلة منزلة الحقائق المطلقة الصالحة لكل زمان ومكان ، حتى ولو كانت نسبتها تعود الى ماركس مباشرة . وليس هناك من اعتبارات نظرية ــ اللهم الا اذا كانت دوغمائية ــ تنص على نحو مسبق على ان هذه الطبقة لا تلك هي الطبقة الثورية في هذا القطر او ذاك . وقراءة كتب الماركسية لا تغني ابدا عن قراءة كتاب الواقع ، بل ليس للكتب الماركسية من مهمة غير ان تساعد على حسن قراءة وتفهم كتاب الواقع .

ومن حق القارىء العربي بعد هذا ان يطرح علينا سؤالا قد يبدو مباغتا : ماذا بشأن الاستراتيجية الطبقية للثورة العربية ؟

والواقع ان هذا السؤال لم يكن غائبا عن اذهاننا ، وان كنا لم نتطرق اليه ولم نشر اليه ولو مجرد اشارة طوال رحلتنا عبر المصائر التاريخية للنظرية الماركسية عن الاستراتيجية الطبقية للثورة . ولو كان هذا السؤال غائبا عن

أذهاننا لما تجشمنا ـ والقارىء معا ـ مشقة هذه الرحلة التي قد تبدو من اكثر من جانب سكولائية . ولكن اذا كنا نقول ان هذا السؤال لم يكن غائبا عن أذهاننا ، فليس هذا معناه اننا نملك اجابة محددة عليه او ننوي الاجابة عليه . ومثل هذه المهمة لا تخرج عن نطاق كتابنا فحسب ، بل نحن نعترف اصلا بعجزنا عنها . نحن في هذا الكتاب لم نضع اي استراتيجية ولم نبتكر اي طريق ، ولكن ما حاولناه هو اننا سلطنا بعض الضوء على المعالم العريضة لاستراتيجيات تكونت وأدت دورها وأصبحت ملكا للتاريخ وتراثا للحركة الثورية الاممية . ولو أمكن الافتراض بأن الثورة العربية قد توصلت الى وضع استراتيجيتها الطبقية الخاصة وتنظيرها وبلورتها بشكل نهائي ، لكان من الممكن ان نفرد لها فصلا خاصا وأن نقارنها بالتجربة الروسية او الصينية على سبيل المثال . ولكن شعورنا العميق هو ان الاستراتيجية الطبقية للثورة العربية ما تزال قيد البناء والنمو والتبلور* ، وبالتالي ـ وبالضرورة ـ رهن الحوار والنقاش وكذلك التخبط ، وانها ما تزال تناضل للتحرر هنا من أغلال الدوغمائية ، وهناك من أغلال الانتقائية ، وهنالك من أغلال النزعة التجريبية او العفوية الخالصة . وعلى هذا فان الامكانية غير متاحة بعد لوصف الاستراتيجية الطبقية للثورة العربية ، لان مرحلة الوصف لا يمكن الا ان تكون تالية لمرحلة البناء والتبلور والتنظير .

ولكن بالرغم من استحالة الوصف هذه ، وبالرغم من ايماننا العميق بأن الممارسة الثورية المباشرة هي وحدها التي يحق ويمكن لها ان تبني الاستراتيجية الطبقية للثورة العربية وأن تبلورها عمليا ونظريا ، فاننا نفترض ان ما حاولناه في هذا الكتاب يمكن ان يسهم ، ولو في حدود بالغة الجزئية ، في رصف بعض اللبنات او ازالة بعض المعوقات . ذلك ان هذا الكتاب قد ركز كما قلنا، من خلال وصفه للاستراتيجيات الثورية ونقدها عند اللزوم ، على فكرة ان الاستراتيجية تبُنى ولا تتبنى ، وان البناء يعني ابتكار طريق قومي خاص الى الثورة من خلال تطوير التراث الاممي المشترك بقدر ما يعني التبني انتهاج دروب الدوغمائية الفاجعة . وبقدر ما تحرص الحركة الثورية العربية على الا تكون حركة مفجوعة، فان من واجبها ان تنهي التعامل مع كل دوغمائية بصدد القوى والطبقات المحركة للثورة العربية . وبقدر ما تحرص الحركة الثورية العربية على ان تجد هي الاخرى طريقها القومي الى الاشتراكية فان من واجبها ان تحدد معالم الاستراتيجية الطبقية للثورةالعربية بدالّة خصوصية الاوضاع العربية وبالاستفادة من كل تجارب الحركة الثورية الاممية .

ونحن بالطبع نتحدث عن خصوصية الاوضاع لا عن خصوصية المذاهب . فالاشتراكية ليس لها سوى مذهب واحد : الماركسية ، ولكن طرقها متعددة . والمطلوب هو على وجه التحديد شق طريق عربي الى الاشتراكية ، اي بكلمة واحدة تعريب الماركسية .

وبالنظر الى ان المرحلة الراهنة من الثورة العربية هي على الصعيد النظري مرحلة اللقاء بالماركسية ، وبالنظر الى ضخامة التراث الماركسي وثقله وهيبته

وشموليته ، فقد يكون الاغراء كبيرا في التنكب عن طريق التطوير والابتكار ونهج طريق النسخ والتقليد . وما حاولناه في هذا الكتاب هو التوضيح بأن التراث الماركسي نفسه لم يتراكم ويتطور الا من خلال الابتكار ، وبأن ضخامة هذا التراث وهيبته وشموليته لا تعفينا من واجب استئناف الدراسة والتحليل والتنظير ، وبأننا لن نكون تلامذة ماركس الا بقدر ما نكون تلامذة الواقع العربي .

المراجع

تجنبا لإثقال النص ولتشتت انتباه القارىء ، فقد امتنعنا ـ الا فيما نـــدر ووجب ـ عن إسناد الشواهد الى مصادرها وعمدنا في كثير من الاحيان الى طريقة نثر الشواهد حفاظا على روحها اكثر منا على حرفها .

مراجع اللغة الفرنسية

ـ ماركس وانجلز ـ المؤلفات المختارة ـ مجلدان ـ دار التقدم ـ موسكو .
ـ كارل ماركس ـ نصوص مختارة ـ تصنيف نوربرت غوترمان وهنـــري لوفيفر ـ مجلدان ـ غاليمار ـ باريس ١٩٦٣ .
ـ كوستاس بابايوانو ـ الماركسيون ـ سلسلة «قرات» ـ باريس ١٩٦٥ .
ـ هنري لوفيفر ـ فكر كارل ماركس ـ بوردا ـ باريس ١٩٥٦ ـ الطبعــة الثالثة .
ـ آنا يوروئيفا ـ أثر خالد ـ دار التقدم ـ موسكو ١٩٦٩ .
ـ إسحق برلين ـ كارل ماركس : حياته وأعماله ـ غاليمار ـ باريس ١٩٦٢ .
ـ جماعة من المؤلفين ـ مبادىء الماركسية ـ اللينينية ـ دار التقـــدم ـ موسكو ـ الطبعة الثانية .
ـ لينين ـ المؤلفات الكاملة ـ ٣٧ مجلدا ـ المنشورات الاجتماعيـــة بباريس ومنشورات اللغات الاجنبية بموسكو .
ـ هنري لوفيفر ـ فكر لينين ـ بوردا ـ باريس ١٩٥٧ .
ـ جورج لوكاش ـ لينين ـ إيدي ـ باريس ١٩٦٥ .

- نيقولا بردائيف - مصادر الشيوعية الروسية ومعناها - غاليمار - باريس ١٩٦٢ .
- مارسيل ليبمان - الثورة الروسية - منشورات جيرار - فيرفييه (بلجيكا) ١٩٦٧ .
- غوستاف ولتر - تاريخ روسيا - بايو - باريس ١٩٦٣ - الطبعة الثالثة.
- جماعة من المؤلفين - تاريخ الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي - منشورات اللغات الاجنبية - موسكو - الطبعة الجديدة .
- ليون تروتسكي - تاريخ الثورة الروسية - مجلدان - سوي - باريس ١٩٦٧ .
- ليون تروتسكي - الثورة الدائمة (بالاضافة الى الثورة المخنوقة) - غاليمار باريس ١٩٦٤ .
- ستالين - مسائل اللينينية - منشورات اللغات الاجنبية - موسكو ١٩٤٧ .
- جوليانو بروكاشي -ستالين ضد تروتسكي - ماسبيرو - باريس١٩٦٥ .
- ماوتسي تونغ - المؤلفات المختارة - ٤ مجلدات - المنشورات الاجتماعية بباريس ومنشورات اللغات الاجنبية ببكين - ١٩٥٥ - ١٩٦٢ .
- لوسيان بلانكو - أصول الثورة الصينية - غاليمار - باريس ١٩٦٧ .
- روي ماك غريغور هاستي - ماوتسي تونغ - منشورات جيرار - فيرفييه ١٩٦٤ .
- بيير بروئيه - المسألة الصينية امام الاممية الشيوعية - إيدي - باريس ١٩٦٥ .
- شرام ودانكوس - الماركسية وآسيا - آرمان كولان - باريس ١٩٦٥ .
- برغمان ودوتشكه ولوفيفر ورابيل - تمرد الطلاب الالمان - غاليمار - باريس ١٩٦٨ .

مراجع اللغة العربية

- ماركس وانجلز - الايديولوجيا الالمانية - ترجمة جورج طرابيشي - دار دمشق ١٩٦٥ .
- جماعة من المؤلفين - تجارب اشتراكية - ترجمة جورج طرابيشي - دار الآداب - بيروت ١٩٦٦ .
- هربرت ماركوز - الانسان ذو البعد الواحد - ترجمة جورج طرابيشي - دار الآداب - بيروت ١٩٦٦ .
- فرانز فانون - معذبو الارض - ترجمة سامي الدروبي وجمال الاتاسي - دار الطليعة - بيروت ١٩٦٣ .
- الياس مرقص - الماركسية والشرق - دار الطليعة - بيروت ١٩٦٨ .

ـ حمزة علوي ـ الفلاحون والثورة ـ ترجمة فالح عبد الرحمن ـ دار الطليعة ـ بيروت ١٩٦٨ .

ـ ج. هـ. كول ـ تاريخ الفكر الاشتراكي ـ عدة مجلدات ـ ترجمة عبد الكريم احمد ـ الدار القومية ـ القاهرة .

ـ ليون تروتسكي ـ الثورة الدائمة (بالاضافة الى «نتائج وتوقعات») ـ ترجمة بشار ابو سمرا ـ دار الطليعة ـ بيروت ١٩٦٥ .

الفهرست

للمؤلف

سارتر والماركسية

دار الطليعة ١٩٦٤

النزاع السوفياتي ـ الصيني

دار الآداب ١٩٦٨

الماركسية والمسألة القومية

دار الآداب ١٩٦٩

الماركسية والايديولوجيا

دار الطليعة ١٩٧١

لعبة الحلم والواقع : دراسة في أدب توفيق الحكيم

(طبعة اولى) دار الطليعة ١٩٧٢

(طبعة ثانية) دار الطليعة ١٩٧٩

الله في رحلة نجيب محفوظ الرمزية

(طبعة اولى) دار الطليعة ١٩٧٣

(طبعة ثانية) دار الطليعة ١٩٧٧

شرق وغرب ، رجولة وأنوثة

(طبعة اولى) دار الطليعة ١٩٧٧

(طبعة ثانية) دار الطليعة ١٩٧٩

الادب من الداخل

دار الطليعة ١٩٧٨

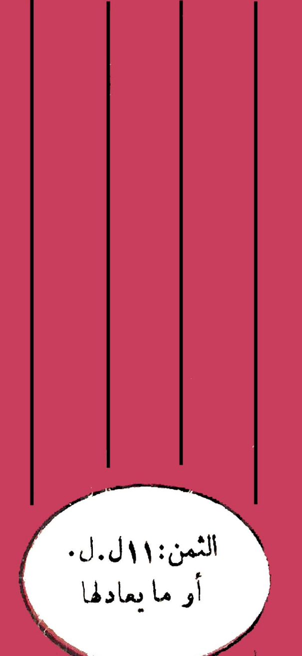
Mouyn

ليس الطريق القومي الى الاشتراكية في التحليل الاخير سوى تحديد استراتيجية طبقية موائمة للثورة على ضوء مجمل الشروط التاريخية الخاصة بهذه الامة او تلك.

وهذا الكتاب يتناول بالتحليل المراحل الكبرى التي مرت بها النظرية الماركسية عن الاستراتيجية الطبقية للثورة .

فعند ماركس ، كانت البروليتاريا هي الطبقة الثورية حتى النهاية. وعند لينين تحدد الطريق الروسي الى الاشتراكية بأنه طريق تحالف العمال والفلاحين . أما تصيين الماركسية على يد ماوتسي تونغ فكان معناه تحويل الفلاحين الى القوة الرئيسية للثورة من غير ان تكف البروليتاريا عن ان تكون قائدتها النظرية . ومع فانون ، خرجت جميع الطبقات من معسكر الثورة خلا الفلاحين الذين صاروا قوتها الرئيسية والقائدة في آن واحد . ثم جاء ماركوز ليعلن افلاس الرسالة التاريخية للبروليتاريا من غير ان يفتح دارة التفاؤل لطبقة بديلة .

فماذا يمكن ان تكون ، على ضوء مجمل هذه الاعتبارات ، الاستراتيجية الطبقية للثورة العربيــة ؟



دار الطليعة للطباعة والنشر
بيروت